باث باركر

نساء طروادة

THE WOMEN OF TROY

PAT BARKER

ترجمة:
سليمان ع. يوسف



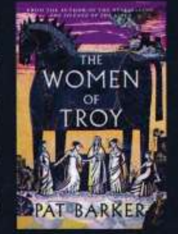


نساء طروادة

سقطت طروادة، والإغريق الظافرون تواقون للعودة إلى الديار برفقة غنائم من حربٍ سرمديّة، بما في ذلك نساء طروادة أنفسهن، وهم ينتظرون ريحًا كيّسة تسوقهم عبر بحر إيجة.

لا تأتيهم الريحُ، وذلك لأن الآلهة ساخطة، فجثة الملك بريام تهجع مُدنّسة وغير مدفونة، وهكذا يظل المنتصرون مُعلّقين، مخيّمين في ظلال المدينة التي دمروها، ويبدأ الاتحاد الذي جمعهم بالتفسّخ، وترجع الخلافات القديمة إلى الظهور وتبدأ الشكوك والتنافسات الجديدة بالتقيُّح.

من غير ملاحظة من آسريها، تبدأ بريزيس التي كانت ملكةً طروادية ذات مرة، والتي كانت في ما مضى أمةَ أخيل، والآن صارت ملك رفيقه ألكيموس، بإدراك هذه التطورات، فتشكّل تحالفات حيث يمكنها، مع هيكوبا العجوز الجامحة زوجة بريام، ومع العرّاف الموصوم كالخاس، في حين تسعى طوال الوقت خلف طريق انتقامها بدهاء.



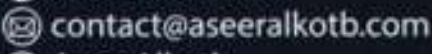
تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com








aseeralkotb.com


contact@aseeralkotb.com

AseerAlkotb

AseerAlkotb

AseerAlkotb

نساء طروادة





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Women Of Troy
- العنوان العربي: نساء طروادة
- طُبِع بواسطة: Hamish Hamilton
- طُبِع بواسطة: شركة هاميش هاميلتون

- المترجم: سليمان ع. يوسف
- مراجعة وتحرير: أحمد إبراهيم إسماعيل
- تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: نوفمبر / 2021م
- رقم الإيداع: 22505/2021م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-55-8

إلى جاك، وماغي، والسيد هوبس،

ووفاءً لذكرى بِن.

1

في جوف الحصان حرارة وظلمة، وتعرُق وخوف، وهم محشورون في الداخل، مرصوصون كما تُرص زيتونات في برطمان، هو يكره هذا التماس لطالما فعل مع الأجساد الأخرى، حتى اللحم البشريّ النظيف حلو الرائحة يُشعِره بالغثيان، وهؤلاء الرجال نتنى. ربما كان الحال أحسن لو يظلون ساكنين، لكنهم لا يفعلون، إذ يبدّل واحدهم بين جانبيه محاولًا إرخاء كتفيه في مساحة أوسع، ولو قليلًا، وكلهم متشابكون.. يتلوّون مثل دود في روث حصان.

«الدودة الحمراء»...

تُغرقه الجُملة في دوّامة عميقة، موغلة في العمق في الماضي، تقطع به الزمان عودًا إلى بيت جده. في صِباه -الذي يبدو أن البعض يظنه لا يزال فيه- كان معتاد النزول إلى الإسطبلات كل صباح، راكضًا على طول الممر بين الأسيجة العالية، بينما تُخَثِّر الأنسامُ الهواء، وتتلألأ الأغصان العارية جَمْعًا، تحت الضوء الضارب إلى الحمرة، وبعد أن يلفّ المنعطف، كان يرى روفُس العجوز البائس واقفًا بحذاء بوابة الحظيرة الأولى، أقرب إلى الاتكاء عليها. كان قد تعلَّم ركوب الخيل على روفُس؛ الجميع تقريبًا تعلَّموا عليه، ذلك أن روفُس كان حصانًا متينًا على نحو استثنائيّ تمامًا، وقالت النكتة إنك إذا ما هممتَ بالسقوط، كان يمد حافرًا ليدفعك معيدًا إياكَ فوقه. كل ذكرياته عن تعلُّم ركوب الخيل سعيدة، لذا كان يمنح روفُس هرشة كيّسة، في كل البقاع التي يعجز عن بلوغها بنفسه، ثم يتنفس في منخريه، فتتمازج أنفاسهما منتجةً صوتًا شاخرًا دافئًا؛ صوت الأمان.

يا الله كم أحَبّ ذاك الحصان أكثر من أمه، وأكثر حتى من مربيته، التي -بأيّ حال- حُرِم منها حالما بلغ السابعة. «روفُس»، حتى الاسم كان قد شكّل رابطةً بينهما: روفُس، وبيروس، إذ يعني كلا الاسمين «أحمر»، وكان كلاهما أحمر الشعر بصورة مدهشة، وإن كان اللون في حالة روفُس -باعتراف الجميع- أقرب إلى الكستنائيّ منه إلى الأسمر المُحمر. وقتما كان حصانًا فتيًا، كان شعره يلمع مثل أولى ثمرات القندلي في الخريف، لكنه بالطبع أكبر سنًّا الآن، ومريض. منذ مدة لا تجاوز الشتاء الماضي، قال أحد الساسة: «يبدو بارز الأضلاع بعض الشيء»، وراح وزنه ينقص في كل شهر مذ ذاك الحين، فتنتأ عظام حوضه، وتحتدّ زاويتا كتفيه، ويصير شبيهًا بهيكل عظميّ، حتى العشب الصيفيّ الوارف عجز عن إلصاق الدهن بعظامه. وذات يوم، عند مرآه سائسًا يجمع بمجرفته كَوْمةً من الروث الرخو، سأل بيروس: «لمَ قوامه هكذا؟»، فقال الرجل: «إنها الدودة الحمراء، لقد ثقّبتْ العجوز الأحمق التعِس».

«الدودة الحمراء»...

تلك الجملة وحدها تُعيده إلى الجحيم.

في البداية، سُمِح لهم بمشاعل الأسل، وإن كان ذلك مصحوبًا بتحذير صارم بوجوب إخمادها في اللحظة التي يبدأ فيها الحصان بالتحرك. كانت أضواء واهنة مُترجرجة، لكن رغم ذلك، كانت فروة الظلمة والخوف لتخنقهم دونها. آه! بلى، الخوف، كان لينكر ذلك لو استطاع، لكنه ها هنا حاضر، لا لبس فيه في جفاف فمه، وارتخاء أمعائه. يحاول أن يصلي، لكن لا إله يسمعه، فيغمض عينيه، ويفكر: «أبي»، فتبدو الكلمة مُربِكة، مثل سيف جديد لم تعتد الأصابع نِصابه بعد. أتراه رأى أباه من قبل؟ حتى لو فعل، فقد كان طفلًا آنذاك، أصغر من أن يتذكر أهم لقاء في حياته. يحاول أخيل بدلًا من ذلك، ويجد أنه من الأسهل والأهون بالفعل أن يستخدم الاسم الذي يمكن لأيّ رجل في الجيش استخدامه.

ينقّل نظره بين صف الرجال قبالته، يرى وجوههم مضاءة من أسفل، وألسنة اللهب الدقيقة تتراقص في أعينهم. لقد قاتل هؤلاء الرجال إلى جانب أبيه، فها هو أوديسيوس؛ الأسمر الضامر، نمسيّ الوجه، مهندس هذه

المغامرة بأكملها، إذ صمّم الحصان، وأشرف على بنائه، وأسر أميرًا طرواديًا، وعذبه ليحصل على تفاصيل دفاعات المدينة، واختلق أخيرًا قصة يُفترض بها أن تعبر بهم البوابات. إذا ما فشلت الخطة، فسيموت قادة محاربي الجيش الإغريقيّ كلهم في ليلة واحدة. كيف للمرء أن يحمل مسؤولية كهذه؟! لكن أوديسيوس لا يبدو قلقًا البتة. من غير قصد، يجذب بيروس انتباهه، ويبتسم أوديسيوس. يبدو ودودًا في ابتسامته، لكن بماذا يفكر حقًا؟ أيتمنى لو كان أخيل هنا، بدلًا من هذا القزم الضئيل عديم الفائدة؛ ابنه؟ حسنًا، إن كان كذلك، فهو محق، ينبغي لأخيل أن يكون هنا، فهو لم يكن ليخاف.

مرسلًا نظره على طول الصف، يرى ألكيموس وأوتوميدون يجلسان جنبًا إلى جنب، كانا كبيري معاوني أخيل فيما مضى، والآن صارا معاونَيه، إلا أن الأمر لم يكن هكذا تمامًا؛ ذلك أنهما المسيطران، هما كذلك منذ لحظة وصوله، يدعمان قائدًا غشيمًا، ويموّهان أخطاءه، وعلى الدوام يحاولان تحسين صورته في أعين الرجال. حسنًا، اليوم، أو الليلة بالأحرى، كل هذا سيتغير، وبعد الليلة سينظر في أعين الرجال الذين حاربوا في صف أخيل، ولن يرى إلا الاحترام؛ الاحترام لِما أحرزه في طروادة. أوه. بالطبع لن يتبجّح بالأمر، وعلى الأرجح لن يأتي حتى على ذكره، لن يحتاج إلى ذلك، فالكل سيعرف، هم دائمًا يعرفون. كان يرى الرجال ينظرون إليه أحيانًا، ويشكون في أمره، حسنًا، ليس بعد اليوم... اليوم سيـ...

يا إلهي! إنه في حاجة إلى التغوّط. يعتدل في جلسته، محاولًا تجاهل المغص في أحشائه. وقتما تسلقوا إلى الحصان، أُلقيَت نكات كثيرة عن المكان الذي ينبغي لهم وضعُ دِلاء الغائط فيه، فقال أوديسيوس: «من جهة العجُز، وإلا فأين؟»، أطلقت هذه النكتة انفجار ضحك تحمّل مسؤوليته الجالسون في المؤخرة. لم يستخدم أحد هذه الدلاء بعد، وهو مستقتل لئلا يكون الأول. سيكونون جميعهم ممسكين أنوفهم، ويهوّون بأيديهم دفعًا للرائحة. هذا ليس عدلًا أبدًا.. ليس عدلًا؛ ينبغي أن يكون مستغرقًا بالتفكير في الأمور المهمة، في انتهاء الحرب الليلة في سعير من الإجلال له. كان قد تدرب من أجل هذا لسنوات، منذ أن سمحت له سِنّه بحمل السيف، وحتى قبل ذلك؛ في الخامسة أو السادسة، كان يقاتِل بِعِصيّ مشحوذة. لم يمر عليه وقت لم يقاتل فيه

قط، وكان يلكز مربيته متى ما حاولَت تهدئته. والآن كل شيء يتحقق، إنه يتحقق بالفعل أخيرًا، وكل ما يمكنه التفكير فيه هو: «***ماذا لو تغوّطتُ على نفسي؟!***». بدا أن المغص يهدأ بعض الشيء، ربما سيكون الأمر على ما يرام.

ساد صمت تام في الخارج. لأيام، علا ضجيج تحميل السفن، وغناء الرجال، وقرع الطبول، وهدير الدوارات الخشبيّة[1]، وإنشاد الكهنة؛ وكل هذا بأقصى قدر ممكن من الصخب، لأنهم قصدوا أن يسمعهم الطرواديّون. عليهم أن يصدقوا أن الإغريق راحلون فعلًا، ولا يجب أن يُترَك أيّ شيء في الأكواخ، ذلك أن أول ما سيفعلونه هو إرسال فِرق استطلاعيّة إلى الشاطئ للتحقق من كون المعسكر قد هُجِر بالفعل. لا يكفي نقل الرجال والأسلحة، بل على كل شيء؛ من نساء، وخيول، وأثاث، وماشية.. أن يرحل. ارتفعَت دمدمة اضطراب داخل الحصان. لا يعجبهم هذا الصمت، يُشعِرهم كما لو أنهم قد هُجِروا. يستدير بيروس على مقعده، وينظر مضيِّقًا عينيه عبر فُرجة بين لوحين، لكنه يعجز عن رؤية أيّ شيء لعين، ويسأل أحدُهم: «ما الذي يجري بحق الجحيم؟»، فيقول أوديسيوس: «لا تقلق، سيرجعون». وبالفعل، بعد بضع دقائق فحسب، يسمعون وقْع خطوات قادمة تجاههم من ناحية الشاطئ، تعقبها صيحة: «أأنتم على ما يرام في الداخل؟»، وقرقعة استجابة. ثم بعد ما بدا ساعات -وإن كان على الأرجح محض دقائق- يهتز الحصان متقدمًا، وعلى الفور، يرفع أوديسيوس يده، وتنطفئ الأضواء واحدًا واحدًا. يغمض بيروس عينيه، ويتخيل أظهُر الرجال المتعرقة المجاهدة، وهم منكبّون على مهمة قَطر هذا الوحش عبر الأرض المُحفّرة إلى طروادة. لديهم مجادل تساعدهم، لكن رغم ذلك المهمة ستستغرق وقتًا طويلًا، فالأرض مُنَخّرَبة ومُندَّبة جراء عشر سنين الحرب الطوال.

عرفوا أنهم يقتربون وقتما بدأ الكهنة بترتيل ترنيمة تسبيح لأثينا، راعية المدن.. راعية المدن؟ أهذه مزحة؟ فلنأمل -بحق الجحيم- أنها لا ترعى هذه المدينة بالذات. وأخيرًا يتوقف الترنح، ويلتفت الرجال في بطن الحصان ليحدّقوا إلى بعضهم بعضًا، ووجوههم لا تعدو كونها لطخات شاحبة تحت

(1) الدوارة الخشبيّة آلة موسيقيّة، استخدمها العديد من الحضارات والشعوب القديمة، بمنزلة وسيلة للتواصل عن بُعد، أو وسيلة للتنبيه أحيانًا.

الضوء الخافت. هل انتهى الأمر؟ هل وصلوا؟ ترنيمة أخرى لأثينا، ثم بعد ثلاثة هتافات على شرف الربّة، يغادر الرجال الذين جرّوا الحصان إلى بوابات طروادة.

تخبو أصواتهم التي ظلت ترتل الترانيم والصلوات إلى صَمْت، ويهمس شخص ما: «ماذا الآن؟»، فيقول أوديسيوس: «ننتظر».

تُمَرَّر قربة من جلد الماعز مملوءة بالنبيذ المُخفَّف من يد إلى يد رغم أنهم لا يجرؤون على أكثر من بلِّ شفاههم، فقد جاوز امتلاء الدلاء ثلثيها، وكما يقول أوديسيوس: «قد يثير حصان خشبيّ بدأ بالتبوّل الشكَ». الجو حارّ هنا، والمكان يعبق برائحة الصمغ المنبعثة من خشب الصنوبر حديث القطع، وقد بدأ شيء غريب جدًا يحدث، ذلك أنه يستطعِم الصمغ، ويشتمّ الحرارة. يحس بجوف منخريه يحترق، ولم يكن الوحيد الذي يعاني، فماخاون يسبح في عرقه، وهو يحمل وزنًا أكبر بكثير من الرجال الأصغر سنًا، الهزيلين هزالة الكلاب الضارية التي لا بد أنها الآن تحوم حول أبواب الأكواخ الخاوية، متسائلةً إلى أين ذهب الناس. يحاول بيروس تخيُل المعسكر مهجورًا؛ الردهة التي دخلها للمرة الأولى بعد عشرة أيام من وفاة أبيه، وجلوسه على كرسي أخيل، وإرخائه يديه على رأسَي أسدَي الجبل المنحوتَين، وثَنيه أصابعه داخل فِيهما المزمجرَين، مثلما فعل أخيل قبل ذلك، لا بد أنه فعل، ليلة بعد ليلة، وشاعرًا طوال الوقت بأنه نصّاب، صبي صغير سُمِح له بالسهر حتى وقت متأخر، ولو نظر إلى الأسفل لرأى ساقيه تتدليان، وبينهما وبين الأرض قَدم.

قد يكون ميتًا بحلول صباح الغد، لكن لا طائل من التفكير على هذا النحو، فسيجيء أجَل المرء في أوانه، ولا شيء يمكنه فعله لتأخير تلك اللحظة. يجيل نظره من جانب إلى آخر، ويرى توتره منعكسًا على الوجوه كلها، حتى أوديسيوس قد بدأ بقضم ظفر إبهامه. لا بد أن الطرواديّين صاروا يعرفون أن السفن قد أبحرت، وأن المعسكر الإغريقيّ مهجور بالفعل، لكن أعساهم لا يصدقون ذلك؟ لقد حكم بريام طروادة لخمسين عامًا، إنه ثعلب هرِم إلى حد يمنعه من الوقوع ضحية لحيلة كهذه. الحصان فخ.. فخ عبقري، بلى، لكن من بداخله؟

يرفع أوديسيوس رأسه، وينصت، وبعد ثانية يسمعونها كلهم: تمتمة أصوات طرواديّة سؤولة منفعلة: ما هذا؟ ما غايته؟ هل استسلم الإغريق حقًا، وذهبوا إلى ديارهم، تاركين خلفهم هذه الهدية الاستثنائية؟ فيقول أحدهم: «عديمة النفع على نحو استثنائيّ»، «كيف لك أن تقول إنها عديمة النفع، وأنت لا تعرف ما عملها؟!»، «قد لا نعرف ما عملها، لكننا نعرف أمرًا واحدًا: لا تثق بالإغريق الداعرين». تعلو جلبة اتفاق: «بأيّ حال، كيف نعرف أنه خالٍ؟ كيف نعرف أنه لا يأوي أحدًا داخله؟»، تتحول الأصوات تدريجيًا من الريبة إلى الذعر. «أضرِموا النار فيه»، «أجل، هلمّوا، أحرقوا اللوطيّ، وستعرفون يقينًا ما إذا كان ثمة أحد بداخله». تلاقي الفكرة أصداء، وسرعان ما يشرعون بالهتاف: «أحرِقوه! أحرِقوه! أحرِقوه!». ينظر بيروس حوله، ويرى الخوف يكسو كل الوجوه، لا، بل أكثر من الخوف؛ إنه الرعب. هؤلاء الرجال بواسل، صفوة الجيش الإغريقي، لكن الرجل الذي يدّعي أنه لا يهاب النار، هو إما كاذب، وإما أحمق.

«أحرِقوه! أحرِقوه! أحرِقوه!».

صندوق خشبيّ مكتظ عن آخره بالرجال، سيصير مثل محرقة جنائزيّة مدهونة بشحم الخنزير. وماذا سيفعل الطرواديّون عندما يسمعون صرخاتهم؛ يركضون، ويجلبون دلاء ماء؟ لا وحق الجحيم، لن يفعلوا، بل سيصطفون حولهم ويضحكون. سيرجع الجيش، ولن يجد إلا الأخشاب المتفحمة، وأجساد الرجال المحروقين، وقبضاتهم المرفوعة منكمشة في الوضعيات التلاكميّة التي يوجد عليها الموتى حرقًا، وفوقهم، ينتظر الطرواديّون على الأسوار. هو ليس جبانًا، ليس كذلك فعلًا، فقد دخل هذا الحصان اللعين مستعدًا للموت، لكنه ملعون إذا كان سيموت مثل خنزير يتحمّر على سيخ. من الأفضل الخروج والقتال...

يهمّ بالوقوف، وفي منتصف وقوفه يظهر سِنان بين رأسَي الرجلين الجالسَين قبالته. يرى وجهيهما، وقد ابيضّا من هول الخضة، وعلى الفور، يهمّ جميعهم بالدلوف إلى قاع البطن، أبعد ما يمكنهم بلوغه عن الأطراف، وفي الخارج، تصرخ امرأة ملء صوتها: «إنه فخ، ألا يمكنكم رؤية أنه فخ؟»، ومن ثم يقول صوت آخر: صوت رجل عجوز، لكنه ليس ضعيفًا، ويحمل

الكثير من السلطان. لا يمكن أن يكون سوى بريام: «كساندرا، ارجعي إلى المنزل حالًا، إلى المنزل».

داخل الحصان، يستدير الرجال ليحدجوا أوديسيوس -صاحب هذه الفكرة- بنظرة اتهام، لكنه لا يفعل إلا هز كتفيه، ورفع يديه.

تندلع دفقة صراخ أخرى، فقد وجد الحراس شخصًا ما يتسلل أمام البوابات، وهم يجرّونه الآن، ويجبرونه على الركوع عند قدمَي بريام. ثم أخيرًا، بعد طول انتظار، يبدأ سينون الكلام، بصوت متهدج في البداية، لكنه يزداد قوة مع مُضيه في حكايته. ينظر بيروس إلى أوديسيوس في الطرف المقابل، ويرى شفتيه تتحركان مزامنةً مع كلمات سينون. كان قد قضى الأسابيع الثلاثة المنصرمة في تدريبه، يذرع كلاهما الميدان جيئةً وذهابًا لساعات بلا انقطاع، يتمرنان على القصة، ويحاولان توقُّع كل سؤال قد يطرحه الطرواديّون.

كل التفاصيل محاكاة بأعلى سوية ممكنة من الإقناع كيف آمَن الإغريق بأن الآلهة قد هجرتهم، ولا سيما أثينا التي أهانوها عظيم الإهانة، وأن الحصان أضحية نذريّة يجب أخذها إلى معبدها على الفور، لكن ليست التفاصيل ما تهم، إنما كل شيء متوقِّف في الحقيقة على قراءة أوديسيوس لشخصية بريام. عندما كان صبيًّا صغيرًا لم يبلغ السابعة بعد، أُسِر بريام في حرب، واحتُجز لقاء فدية، ولكونه وحيدًا عديم الأصدقاء، ومجبرًا على عيش حياته في أرض أجنبية، التجأ إلى الآلهة بحثًا عن السلوان، وإلى زيوس زينيونس على وجه التحديد؛ الرب الذي يأمر بالإحسان إلى الغرباء. في عهد بريام، كانت طروادة مستعدة دائمًا لإيواء الذين انقلب أهل بلادهم ضدهم. وقصة أوديسيوس مُعدَّة لاستعطاف بريام، كل تفصيل فيها مُصَمم لاستغلال إيمانه، وتحويله إلى نقطة ضعف. وإذا ما فشلت الخطة، فلن يكون ذلك ذنب سينون بكل تأكيد، ذلك أنه منحها كل ما في وسعه، كان صوته يبلغ عنان السماء في نحيب بؤساء عظيم، وظل يردد: «أرجوكم، أرجوكم.. أرجوكم أشفِقوا عليَّ، لم أجرؤ على الذهاب إلى الديار، سأُقتَل إذا ما ذهبتُ إلى الديار». قال بريام: «اتركوه»، وأردَف: «مرحبًا بك في طروادة»، ويُحتمل أنه كان يكلم سينون مباشرة.

بعد وقت غير طويل، تُسمَع جلجلة حبال تلتف في أنشوطات حول عنق الحصان، ثم يبدأ بالتحرك. وبعد بضع ياردات فقط، يهتز متوقفًا، ويجمد في مكانه لعدة دقائق مُمضّة، ثم يترنح منطلقًا مرة أخرى. ينظر بيروس عبر فجوة بين الألواح (ويشعُر بنسيم الليل باردًا برودًا مفاجئًا على جفنيه)، لكنه لا يرى إلا جدارًا حجريًّا، وإن كان ذلك كافيًا ليعرف أنهم يمرون عبر البوابة الإسكائيّة إلى طروادة، فيحدّقون إلى بعضهم بعضًا، فاغري الأعين، وصامتين. في الخارج، يأخذ الطرواديّون رجالًا ونساءً وأطفالًا، يرتلون ترانيم التسبيح لأثينا، حامية المدن، بينما يجرّون الحصان إلى داخل البوابات، ويشيعُ الكثير من الهذر الحماسيّ بين الصبية الصغار الذين يساعدون آباءهم في شد الحبال.

في إبان ذلك، يحدث أمر عجيب لبيروس، ربما كان بسبب الظمأ فحسب، أو الحرارة، اللذين صارا الآن أشد من أي وقت مضى، لكن يبدو وكأنه يرى الحصان من الخارج. يرى الرأس موازيًا أسطُح القصور والمعابد، بينما يُجذب بأناة عبر الشوارع. شعور غريب أن يكون مُحتجزًا بإحكام في الظلمة، ويَقدر -رغم ذلك- على رؤية الشوارع العريضة والساحات المفتوحة، وحشود الطرواديّين المتحمسين تدور حول أرجل الحصان، وقد اسودت الأرض من كثافتهم. إنهم كالنمل الذي وجد شرنقة حشرة كبيرة بما يكفي لتطعِم صغاره لأسابيع، وراح يجرّها عائدًا إلى وكره بنصر، غير مدرك أنه عندما تنشق القشرة اللامعة القاسية منفتحةً، ستطلق الموت عليهم كلهم.

يتوقف الترنح والتمايل أخيرًا، وبحلول هذا الوقت، صار جميع من في الحصان يشعر بالغثيان. المزيد من الصلوات، والمزيد من الترانيم، ثم يحتشد الطرواديّون في معبد أثينا ليشكروا الربّة على الانتصار، ليبدأ بعد ذلك القصف، ويدور الغناء والرقص والشرب، والمزيد من الشرب. ينصت المقاتلون الإغريق، وينتظرون، ويحاول بيروس إيجاد مساحة ليمطّط ساقيه، إذ إن ربلته اليمنى متشنجة جراء الجفاف، والجلوس الطويل في الوضعية المنقبضة نفسها. صاروا في ظلمة داجنة الآن، في غياب قمر يلقي بنوره عبر الصدوع في جانبي الحصان، فقد اختيرت ليلة غير مقمرة للهجوم. بين الحين والآخر، تمرّ زمرة من العرابدة السكارى المترنحين بجوارهم، فتلقي

مشاعلهم المتوهجة بخطوط نمريّة على وجوه الرجال المنتظرين في الداخل، ويتلألأ الضوء على خوَذهم، ودروع صدورهم، ونِصال سيوفهم المسلولة، ومع ذلك، يظلون منتظرين. في الخارج، بعيدًا في الظلام، ستحرث السفن السوداء المعقوفة أخاديد بيضاء عبر البحر الرماديّ المائج عندما يرجع الأسطول الإغريقيّ. يتخيّل السفن تدخل الخليج، وأشرعتها تُطوى بينما يتولى المجدفون العمل، ثم احتكاك الصوالب على الحصباء مع جدّهم السير صعودًا إلى اليابسة.

يتلاشى الغناء والصياح بالتدريج، وكان أواخر السكارى قد زحفوا إلى منازلهم، أو غابوا عن الوعي في مجرى الصرف، لكن ماذا عن حرس بريام؟ أَمِن المحتمل أنهم لا يزالون يقظين، الآن بعد أن انتهت الحرب، الآن وهم يخالون أنهم موقنون بالنصر، وأنه لم يعد ثمة من يقاتلونه؟

وأخيرًا، عند إيماءة أوديسيوس، يشد أربعة مقاتلين عند الطرف القصيّ المزاليج، مزيلين فصّين من الطرفين، ويطفو هواء الليل البارد إلى الداخل، فيشعر بيروس بجلده يخزه بينما يجف عرقه. ومن ثم، يبدأ الرجال بالتأرجح نزولًا عبر السلالم الحبليّة واحدًا واحدًا في اندفاع ثابت مجتمعين في حلقة على الأرض. يحدث شيء من التدافع عند المقدمة، لأن كل الرجال يبتغون شرف أن يكونوا أول الخارجين، ولا يأبه بيروس لهذا، فهو واحد من الأوائل، وهذا كافٍ. يشعر بالرجّة تصعد حتى أعلى عموده الفقريّ عندما تخبط قدماه الأرض، ويدق البقية بأقدامهم محاولين إنعاش دورتهم الدمويّة، لأنهم سيضطرون إلى الركض في أيّ لحظة الآن. ينتزع مشعلًا من حاملة على جدار المعبد، ويلتفت في وهج الضوء الأحمر لينظر إلى الخلف، بينما يهبط آخر مقاتل هبطةً ثقيلةً على الأرض، الحصان يتغوّط رجالًا. ما إن صاروا جميعًا في الخارج، حتى التفتوا محدّقين إلى بعضهم بعضًا، ونفس الهيئة نصف الواعية تعلو كل الوجوه. إنهم في الداخل. على مهل، يطوف الإدراك في موجة لا وَقْف لها، فالآن، في هذه اللحظة، يقف حيث لم يقف أبوه قط، داخل أسوار طروادة. لا خوف الآن، كل شيء ضياء، كل شيء واضح. هناك، في العتمة، تقبع البوابات التي عليهم فتحُها لإدخال الجيش. يحكم بيروس قبضته على سيفه، ويندفع راكضًا.

2

يصل بعد ساعة إلى درجات القصر في خضم القتال، فينتزع فأسًا من رجل يحتضر، ويبدأ بشق طريقه عبر الباب. تصعّب عليه جمهرة المقاتلين المتدافعين على الدرجات خلفه التلويح كما يجب، فيصرخ بهم أن يرجعوا.. أن يعطوه مساحة، وبعد أربع أو خمس خبطات تنفتح فجوة في الباب يكفي اتساعها للمرور، والأمر هيّن بعد ذلك، كل شيء هيّن. ثم ينطلق عبر الرواق، شاعرًا بدماء أبيه تقصف في شرايينه، وتصرخ انتصارًا.

عند المدخل المؤدي إلى غرفة العرش، ثمة سور متين من الحرس الطرواديّين، والمقاتلون الإغريق يتصارعون معهم بالفعل، لكنه ينعطف ناحية اليمين، باحثًا عن الممر السريّ الذي يقود من منزل هيكتور (حيث تعيش الآن أرملته «أندروماخي» وحدها مع ابنه) إلى مسكن بريام الخاص. هذه هي المعلومة التي عذب أوديسيوس أسيره الأمير للحصول عليها. يقوده باب في الحائط، نصف مخفيّ تحت حجاب، إلى ممر خافت الإنارة ينحدر بحدة صوب الأسفل –حيث الرائحة الباردة للأماكن العفنة غير المستخدمة–، ومن ثم يأخذه درج صغير صعودًا إلى الضوء الساطع لغرفة العرش، حيث كان بريام واقفًا أمام مذبح، جامدًا.. منتظرًا، كما لو أن حياته بأسرها كانت تحضيرًا لهذه اللحظة. هما وحدهما. وبدا أن أصوات تَحَارُب الإغريق والطرواديّين على الجانب الآخر من الجدار تتلاشى.

يحدِّق واحدهما إلى الآخر في صمت. بريام عجوز.. عجوز على نحو صادم، وواهن حد أنه يرزح تحت ثقل درعه. يتنحنح بيروس؛ صوت غريب اعتذاريّ يتردد في السكون الشاسع. يبدو أن الوقت قد توقّف، ولا يعرف كيف يحرّكه من جديد. يتحرك مقتربًا من درجات المذبح، ويعلن عن اسمه، الأمر

الذي ينبغي للمرء فعله قبل القتال: «أنا بيروس، ابن أخيل»، وعلى نحو لا يُصدَّق، ولا يُغتفَر، يبتسم بريام، ويهز رأسه. غاضبًا الآن، يطأ بيروس الدرجة السفلى، ويرى بريام يحصّن نفسه، رغم أن العجوز وقتما رمى الرمح أخيرًا فشل في اختراق الترس، وعلِق فيه للحظة مهتزًا، قبل أن يسقط مجلجلًا على الأرض. ينفجر بيروس ضاحكًا، ويحرره صوت ضحكته، ثم يثب صاعدًا الدرجات، ويقبض على حفنة من شعر بريام، ويشد رأسه خلفًا ليكشف عن حلقه الأعجف، و... ولا شيء...

كان خلال الساعة الماضية في حالة من السُعر الوشيك، بالكاد تلمس قدماه الأرض، والقوة تنسكب فيه من السماء، لكن الآن، في أكثر وقت يحتاج فيه إلى السُعر، يشعر أنه ينسل من أطرافه. يرفع ذراعه، لكن السيف في غاية الثقل، وعندما يستشعر بريام الضعف، يلتوي فارًّا من قبضته محاولًا الركض، لكنه يتعثر، ويسقط ملء وجهه على الدرجات. يثب بيروس عليه في الحال، ويمسك بلبدة الشعر الفضيّ، وهذه هي اللحظة الحاسمة، هذه هي، الآن.. *الآن*، لكن الشعر ناعم نعومة مفاجئة، مثل شعور النساء تقريبًا، وهذا التفصيل الضئيل التافه كافٍ للإطاحة به. يحزّ عنق العجوز، ويفشل –غبيّ، غبيّ!–؛ إنه مثل صبي في العاشرة يحاول طعن خنزيره الأول، يقطع من غير اكتراث جرحًا بعد جرح، ولا واحدَ منها عميق بما يكفي ليقتل. يبدو بريام بشعره الأبيض وبشرته الشاحبة، كما لو أن جسده لا يحوي قطرة دم واحدة. أوه! ولكنه يحوي غالونات وغالونات منه، وراح يتزحلق، وينزلق على الأرض. وأخيرًا، يحكم قبضته على المزعج العجوز، ويجثم فوق صدره المهزول، وحتى حينذاك يعجز عن فعلها، فيئنّ يائسًا: «أخيل! أبي!»، وبصورة مدهشة، يلتفت بريام إليه، ويبتسم مجددًا قائلًا: «نجل أخيل؟ أنت؟ شتّان ما بينك وبينه!».

تمنح ضبابة سخط حمراء بيروس القوة ليضرب مجددًا على العنق مباشرة هذه المرة، دون أخطاء، ويدفق دم بريام الساخن على قبضته المشدودة. هذا كل ما في الأمر، لقد انتهى. يترك الجسد يهبط على الأرض، وفي مكان ما قريب جدًا، ثمة امرأة تصرخ. يحدّق حوله مبهوتًا، وإذا به يرى مجموعة من النسوة حاملات أطفالًا بين أذرعهن، وجاثمات عند الطرف البعيد من

المذبح، فيركض ناحيتهن ثملًا بالنصر والارتياح، باسطًا يديه على اتساعهما، ويصرخ: «بووا» في وجوههن، ثم يضحك وسط انكماشهن خوفًا.

لكن فتاةً واحدة تقف محدِّقةً إليه بعينَين جاحظتَين، ووجه أشبه بالضفدع. كيف تجرؤ على النظر إليه؟ للحظة، يغريه صرعها، لكنه يتراجع في الوقت المناسب، فلا مجد يكسبه المرء من قتل امرأة، وهو مرهق بأيّ حال، أكثر إرهاقًا من أيّ وقت مضى في حياته. تتدلى ذراعه اليمنى من كتفه، ميتة مثل مجرفة، وتجف دماء بريام شاذةً على جلده، زنخةً، تفوح منها تلك الرائحة السمكيّة الحديديّة. يقف لحظة، يحدِّق إلى الجثة في الأسفل، ثم يركلها دون سابق تفكير في خاصرتها. لن يُدفَن بريام (يقرر ذلك)، لا احترام له، ولا طقوس جنائزيّة، ولا كرامة في الموت. سيفعل مثلما فعل والده بهيكتور تمامًا؛ يربط كاحلَي العجوز السقيمَين بجسر عربته، ويجرّه عودًا إلى المعسكر، لكن عليه أولًا الابتعاد عن كل الصراخ والنشيج، لذا يتخبط عشوائيًّا عبر باب إلى يمينه.

عتمة في الداخل، وبرود وهدوء، وبدت صرخات النساء أخبى الآن. عند تكيُّف عينيه مع الظلام، يرى رفًا من الحبال الشعائريّة، وإلى جواره كرسي مُلقى على ظهره أثواب كاهن. لا بد أن هذه غرفة إلباس بريام[1]. راح ينصت، وهو واقف عند عتبة الباب تمامًا، شاعرًا بالغرفة تنكمش مبتعدةً عنه، مثلما فعلت النسوة. كل شيء صامت، وفارغ، لكنه في تلك اللحظة، يلتقط فجأةً حركة في الركن البعيد. ثمة شخص ما يختبئ هناك في الظلال، ولا يمكنه أن يرى إلا إطار شكلٍ ما. امرأة؟ لا، فمن اللمحة التي لمحها كان شبه متأكد أنه رجل. يدفع رف الملابس جانبًا، ويتقدم رويدًا إلى الأمام، وعندها يكاد يضحك بصخب مرحًا ورواحًا، فهناك أمامه مباشرة.. يقف أخيل. لا يمكن أن يكون أيّ سواه؛ الدرع البراقة، والشعر المنساب، وهذه إشارة.. إشارة إلى أنه قد قُبِل أخيرًا. يمشي بثقة إلى الأمام، يحدق عبر الظلام، ويرى أخيل قادمًا ناحيته، مغمدًا بالدماء، وكل شيء أحمر، من خوذته المُريّشة إلى قدميه المصندلتَين، وشعره أحمر أيضًا، ليس برتقاليًّا، ليس جزريًّا، لا، بل أحمر

(1) غرفة الإلباس: هي الغرفة التي يرتدي فيها القائمون بالمراسم أروابهم الرسميّة. (المترجِم).

كالدم أو النار. وفي اللحظة الأخيرة، وجهًا لوجه، يمد يده، فتصطدم أصابعه اللزجة بشيء صلب وبارد.

يقترب أكثر، وأكثر، ويكاد يبلغ من القرب حدًا كافيًا للتقبيل. يقول: «أبي»، بينما تغبِّش أنفاسُه البرونز المصقول للمرآة: «أبي»، ومجددًا، بثقة أوهَن: *«أبي؟»*.

3

إننا ذاهبون

إننا ذاهبون

إننا ذاهبون إلى الديار!

لقد تاه مني عدد المرات التي سمعتُ فيها هذه الأغنية –إن كان بالإمكان تسميتها أغنية– في الأيام القليلة الأخيرة. شراذم من الرجال يترنحون حول المعسكر، سكارى، سائبي الأفواه، جاحظي الأعين، يجعجعون بالكلمات البسيطة المتكررة حتى بحّت أصواتهم. انهار الانضباط انهيارًا، يكاد يكون تامًا، وكافح الملوك في جميع أرجاء المعسكر لاستعادة السيطرة على رجالهم.

بينما كنت أعبُر الميدان ذات صباح، سمعتُ أوديسيوس يصرخ: «إذا لم تحسنوا عملكم اللعين، وتُحمّلوا تلك السفينة، فلن تذهبوا إلى أيّ مكان!»، كان قد خرج من ردهته، ووقف على درجات الشرفة، مواجهًا أُباشة من عشرين أو ثلاثين رجلًا. ومن الأدلة على المزاج العام أنه حتى في مُجمّعه الخاص، كان يحمل رمحًا. بدأ معظم المغنّين بالابتعاد رويدًا، لكن صدح بعد ذلك صوت من الحشد: «إي، وماذا عنك أيها المتآمر ابن الزنى، ***لا أراك تحمل الكثير***؟!».

ثيرسيتيس بالطبع، ومَن غيره؟ لم يكُن قد خطا إلى الأمام بالضبط، بل كانت الحالة أقرب إلى تراجع الآخرين. وثب أوديسيوس أمامه على الفور، رافعًا رمحه عاليًا فوق رأسه، وراح يضربه مستخدمًا عقب الرمح هراوةً مرارًا وتكرارًا على ذراعيه وكتفيه، ومن ثم، وهو ملقىً منكمش على نفسه يئنّ على الأرض؛ زاده عدة لطمات على أضلاعه قبل أن يأتي عليه بركلة في فرجه.

أخذ ثيرسيتيس يتخبط يمنة ويسرة، بينما احتشد بقية الرجال حوله يهدرون ضحكًا. كان مشهورًا بكونه محراكَ قذارة، وهاذرًا، وإذا ما وُجِد أيّ عمل ينبغي توزيعه، فدائمًا ما يكون ثيرسيتيس في مؤخرة الصف. أوه! قد يحصلون على إثارة غيرية من تحدياته للسلطة، لكنهم لا يُكنّون أيّ حب للرجل، ولا احترام، لذا تركوه وشردوا مبتعدين، ربما ليحمّلوا السفينة، وربما -على الأرجح- ليبحثوا عن إمدادات طازجة من الشراب، نظرًا لأن قرب جلود الماعز المُدلّاة على أكتافهم بدت فارغة. وبعد بضع ياردات بدؤوا بالغناء مجددًا، وإن كانت الأغنية تزداد قربًا إلى مرثيّة مع كل تكرار.

إننا ذاهبون

إننا ذاهبون

إننا ذاهبون إلى الديار!

أما عن الحقيقة، فلا أحد ذاهب إلى الديار.. لا أحد ذاهب إلى أيّ مكان. منذ أربعة أيام فقط، كانت تفصلهم ساعة عن الرحيل، وصعد بعض الملوك، بما فيهم أوديسيوس، على متون سفنهم بالفعل، لكن الريح استدارت آنذاك، وراحت تعصف بشدة تقارب النوّ فوق البحر. كان على المرء أن يكون مخبولًا ليغادر كنف الخليج في خضم ذلك. قال الجميع: «أوه! لا تقلقوا، ستمرّ عاجلًا»، لكنها لم تمر، وظلت الريح العجيبة تعصف يومًا بعد يوم، وساعةً بعد ساعة. وهكذا، احتُجِز المحاربون الإغريق الظافرون جميعًا ها هنا، والسبايا الطرواديّات معهم بالطبع.

رحتُ في غضون ذلك إلى ثيرسيتيس، وانحنيتُ فوقه محاولةً ألا أنفر من النتانة المتفجرة من فمه المفتوح. آلمني أن أسيء الظن برجل دعا أوديسيوس بالمتآمر ابن الزنى في وجهه للتوّ، لكن في الحقيقة لم يتمتع ثيرسيتيس بالكثير مما يستدعي الإعجاب. ومع ذلك، كان جريحًا هناك، وكنتُ في طريقي إلى المشفى، فوضعتُ يدي تحت إبطه، وساعدتُه لينهض على قدميه. وقف ملتويًا للحظة، ويداه على ركبتيه، قبل أن يرفع رأسه على مهل، ويقول:

- أنا أعرفكِ، بريزيس، أليس كذلك؟ (ومسح أنفه الدامي بظهر يده) عاهرة أخيل!

- زوجة السيد ألكيموس.

- نعم، لكنْ ماذا عن هذا الطفل الذي تحملينه؟ ما رأي السيد ألكيموس بذلك إذن؛ أخذ نجل آخر على عاتقه؟

أدرتُ له ظهري، مدركةً طوال الوقت، وأنا أمشي مبتعدةً أن أمينا تتعقبني. أكانت تعرف تاريخ زواجي؟ حسنًا، إن لم تكن تعرفه قبلًا، فقد باتت تعرفه الآن حتمًا.

قبل مقتله بيومين، كان أخيل قد منحني لألكيموس، معللًا ذلك بأن ألكيموس قد أقسم على الاعتناء بطفلي المنتظَر. لم أعرف شيئًا عن الأمر حتى صباح اليوم الذي حدث فيه، حينما جُرِرتُ من سرير أخيل (بملاءة مبقعة، ملفوفة على كتفيَّ، وفتات خبز في شعري، وأشعر بالغثيان، وتفوح مني رائحته)، وزُوِّجتُ بألكيموس. زواج غريب، وإن كان شرعيًّا بالكامل، وبوجود كاهن ليتلو الصلوات، ويربط يدينا معًا بالخيط القرمزيّ. ولنعطي كل ذي حق حقه، فقد أبرّ ألكيموس بوعده، إلا أنه أصرّ في هذا الصباح على لزوم أن ترافقني امرأة متى ما خرجتُ من المجمع، قائلًا: «المكان غير آمن؛ عليكِ أخذ شخص ما معكِ». وكانت النتيجة هذه الفتاة؛ أمينا.

شكّلنا موكبًا صغيرًا سخيفًا. أنا امرأة محترمة متزوجة، مُبالِغة في تستُّري، وأمينا تهرول على بُعد بضع خطوات خلفي، وكل هذا هراء بالتأكيد، فما حماني من الشراذم الثملة التي تطوف المعسكر لم يكن وجود فتاة مراهقة، بل ذراع سيف ألكيموس، مثلما كان فيما مضى، منذ خمسة أشهر فقط؛ ذراع سيف أخيل. الشيء الوحيد المهم في هذا المعسكر، الشيء الوحيد **ولا غيره؛** هو القوة، وهذا يعني بالتبعية معنىً واحدًا لها: قوة القتل.

في العادة، كان مشوار على طول الشاطئ يسرّني، لكن ليس في هذا اليوم، ذلك أن الريح قد صارت يدًا ساخنةً رطبةً، تدفعني بعيدًا عن البحر، قائلةً: ***«لا، لا يمكنك الذهاب إلى هناك»***. ورغم رطوبتها لم تهطل أيّ أمطار بعد، رغم أن سحابةً على هيئة سندان كانت قد ارتفعت عاليًا في السماء فوق الخليج، يشقها وميض برق في عمقها، يمكن رؤيته ليلًا. كل شيء كان ينذر

بأن عاصفةً على وشك الهبوب، لكنها لم تهب قط. صبغ الضوء الغريب البنيّ الضارب إلى الحمرة، كل نتفة جلد مكشوفة باللون البرونزيّ، حتى بدت أيدي الرجال ووجوههم مصنوعةً من معدن سيوفهم الصلب القاسي نفسه.

رصدتُ تحت سطح الاحتفالات (الشرب والقصف والرقص) تيارًا من الاضطراب. كانت هذه الريح قد بدأت بحز أعصاب الجميع، مثل طفل شَكِس يأبى النوم، وحتى في الليل خلف الأبواب الموصدة المُزلجة، لم يكن ثمة مفر منها. دسّت الهبّات نفسها في كل شق، رافعةً البُسُط، مطفئةً الشموع، مطاردةً الناس على طول الممر إلى غرف نومهم، بل حتى إلى نومهم. وكان المرء ليجد نفسه في الليل مستلقيًا يقظًا يحدِّق إلى السقف، وكل الأسئلة التي تدبّر تجاهلها في النهار متجمهرة حول سريره.

ما رأي السيد ألكيموس بذلك إذن؛ أخذ نجل رجل آخر على عاتقه؟

صار حملي خبرًا ذائعًا الآن. بدا أن التغير قد حدث على نحو غير ملحوظ، بل أشبه بتزايد طول الليالي، حيث تمر عشية بعد عشية، ولا يُرى فرق محسوس حتى تسُود فجأةً رعشة في الجو، فيُعرَف أن الخريف قد حلّ. تغير سلوك الناس تجاهي مع انتفاخ بطني، زاد ذلك بدوره من صعوبة تعاملي مع مشاعري الخاصة حول الجنين. طفل أخيل، ***أو ابن أخيل***، وَفقًا للمرميدييّن الذين على ما يبدو كانوا قادرين على رؤية ما في رحمي. في بعض الأوقات، كنتُ أشعر أن ما أحمله في جوفي ليس طفلًا على الإطلاق، بل أخيل نفسه، مُصغَرًا، مُقَلصًا إلى حجم أُنيسيان[1]، لكنه لا يزال أخيل بطريقة يمكن تمييزها، ومدججًا بالسلاح.

عندما اقتربنا من مجمع أجاممنون، خفضتُ نظري، ورحتُ أتتبع بتصميم حركة قدميّ داخلًا، خارجًا، داخلًا، خارجًا، كما كانتا تظهران، وتختفيان تحت حافة غلالتي[2]. لقد عشتُ تعاسةً جمةً في هذا المكان، ودائمًا ما فتك

---

(1) الأُنَيْسيان: الشخص الصغير، أو القزم، هو الشكل المصغر من المخلوق البشري، واشتهر في خيمياء القرن السادس عشر، وروايات القرن التاسع عشر، وقد أشار المصطلح تاريخيًا إلى خلق إنسان مصغر الشكل، مكتمل التكوين. (المترجم).

(2) الغِلَالَةُ: ثوب رقيق يشفّ ما تحته، وهو لباس داخليّ، أو قميص رقيق تغطِّيه ثياب خارجيّة. (المترجم).

بي ذعر العودة إليه، لكنني ذكرتُ نفسي بأن عار الكينونة أَمَة في أكواخ أجاممنون، في سرير أجاممنون، مكانه الماضي. صرتُ امرأة حُرة، لذا حالما عبرتُ البوابة رفعتُ رأسي، ونظرتُ حولي.

كنا في الساحة الرئيسيّة للمجمع. وقتما عشتُ هنا، كانت هذه أرضية الرتل، حيث يتجمع الرجال قبل أن يزحفوا إلى الحرب، والآن، باتت مشغولةً بخيمة مستشفى نُقِلت إلى هنا من مكانها الأصليّ المكشوف على الشاطئ. في موقعها الجديد، بدت الخيمة أكثر رثاثة من ذي قبل بخَيشها المغطى باللطخات الخضراء، الذي تفوح منه رائحة بغيضة جراء طول التخزين في عنبر السفينة. كانت هذه واحدة من الخيم التي عاش فيها الإغريق في الأشهر الأولى من الحرب، وقتما كانوا متعجرفين بالحد الكافي، ليظنوا أن طروادة ستُدحر بسهولة. وبعد أول شتاء بائس يقضونه تحت الخَيش، قطعوا غابة كاملة ليبنوا أكواخهم.

خفضتُ رأسي تحت السديلة المرفوعة، وتوقفتُ لحظةً ريثما تتكيف عيناي مع العتمة الخضراء. كنتُ أظن أنني قد سمعتُ كل الأصوات التي يمكن للريح إصدارها، لكن قصف الخَيش ونعيره كان جديدًا، بيدَ أن الرائحة لم تتغير؛ دماء آسنة من سلة ملأى بالضمادات المستعملة، ونكهة حادة لأعشاب طازجة؛ صعتر وإكليل جبل، وخُزامى وغار. وقتما عملتُ هنا، كانت الخيمة مكتظة إلى درجة وجوب تخطي مريض لبلوغ الآخر، أما الآن، فهي نصف خاوية؛ صفان فقط من خمسة أو ستة أسرّة مصنوعة من جلود الثور، معظم ساكنيها نائمون، إلا اثنين يلعبان النرد في الطرف الآخر. هؤلاء كانوا الرجال الذين أُصيبوا في الهجوم الأخير على طروادة. لم تبدُ إصابة أيّهم خطرة، إلا الأخير في الصف الأماميّ، بدا في حال حرجة. عجبتُ لمَ تكبدتُ عناء تقييم وضعهم، فلم يعُد لي علاقة بذلك الآن!

كانت ريتسا واقفةً بحذاء الدكّة في الطرف الآخر، تمسح يديها بإزار الخيش الجلف المحيط بخصرها. ابتسمَت لي وقتما اقتربتُ، لكنني لاحظتُ أنها لم تسرع لتستقبلني على مثل عادتها. قالت: «حسنًا، انظري إلى ***حالك***». تساءلتُ عمّا هو مختلف بي، أهو حمْلي الذي بدأ يظهر، أم التَوشِية المُترفة

على ثوبي؟ لكن لم يكن أيّ من هذين جديدًا تمامًا، ثم أدركتُ أنها لا بد ترمي إلى أمينا، التي تبعتني، وراحت تحوّم على بُعد بضع أقدام خلفي.

- من هذه إذن؟ خادمتك؟

- لا (كان من الضروريّ أن أوضح هذا) كل ما في الأمر أن ألكيموس لا يرغب بأن أجول المعسكر بمفردي.

- إنه محق في ذلك، إذ لم أرَ هذا الكم من السكارى من قبل قط. تفضلي، واقعدي...

التقطَت إبريق نبيذ، وصبّت ثلاث كؤوس، وبعد لحظة من التردد، ونظرة ناحيتي، قَبِلت أمينا إحداها. كانت، وعلى نحو مثير للإزعاج، تتصرف مثل خادمة بالضبط!

قعدتُ إلى الطاولة الطويلة، والتفتُّ إلى ريتسا:

- كيف حالك؟

- متعَبة.

كان باديًا عليها ذلك، وفي الحقيقة، بدَت مرهقة، ولم أفهم السبب، فجروح هؤلاء الرجال، باستثناء المُصاب في رأسه في الصف الأمامي، طفيفة.

«إنني أنام في كوخ كساندرا».

فسَّر هذا الأمر. تذكرتُ كم سُعِرَت كساندرا وقتما كانت النسوة الطرواديّات ينتظرن ليتقاسمهن الملوك! وكيف أمسكَت بالمشاعل، ودوّرتها فوق رأسها، وهي تخبط بقدميها، وتصرخ للجميع أن يأتوا، ويرقصوا في زفافها، حتى إنها حاولَت إنهاض والدتها مجبرةً إياها على الرقص والخبط بقدميها أيضًا!

- هل تحسنَت أيّ تحسن؟

لوّت ريتسا قسمات وجهها:

- يتفاوت حالها، فالصباحات جيدة إلى حد ما، أما الليالي فمروّعة ترويعًا لعينًا؛ إنها مهووسة بالنار، وإنه لأمر مذهل كيف تحصل عليها، لكنها تفعل! وفي كل مرة، أقع أنا في ورطة، ويكون الذنب ذنبي. إنني متفاجئة من أنها لم تحرق المكان اللعين كله. لستُ أجرؤ على الخلود إلى النوم، ومن ثم عليَّ العمل هنا طوال النهار. هذه ليست حياة!

- أنتِ محتاجة إلى من يساعدك.

- حسنًا، ثمة فتاة، لكنها عديمة الفائدة تمامًا. لم أقدِر على ترك كساندرا معها.

- يمكنني الجلوس معها، ولتحظَي ببعض النوم.

- لا أعرف ما سيكون رأي ماخاون بذلك.

- يمكننا سؤاله. أنا يمكنني سؤاله.

هزت رأسها. كان ماخاون كبير أطباء الجيش الإغريقيّ، وكان أيضًا –بل الأكثر صِلة بالموضوع– مالِكَ ريتسا. لاحظتُ أنها ترددت بشأن تركي أتواصل معه، فتعيَّن عليَّ إغفال الموضوع.

قُلت لأملأ الصمت:

- نبيذ كيِّس.

- أليس كذلك؟ ليس سيئًا.

كانت قد شرعت بصبّ كأسين أُخريين لنا وقتما نفخت هبّة ريح عظيمة الخيش من فوق رؤوسنا، فنظرتُ إلى الأعلى مرعوبةً:

- ألستِ قلقة؟ لقد خفتُ أن تهبط.

- أتمنى ذلك.

نظرتُ إليها، لكنها هزت كتفيها ثانيةً فقط، وعادت إلى سحق الأعشاب. قد يُخال هذا غريبًا، لكنني حسدتُها على الملمس الناعم للمهباج في راحة يدها، إذ مرّ وقت طويل مذ عملتُ معها على هذه الدكة، لكنه كان أسعد وقت قضيتُه في المعسكر. لا يزال بوسعي تمييز كل المكونات التي صفّتها أمامها، كلها ذات أثر مهدِّئ، وإذا ما مزجتِها بنبيذ قويّ، فستحصلين على جرعة بمقدورها إفقاد ثور وعيه.

- أهذه لكساندرا؟

ألقَت نظرة إلى أمينا، ثم غمغمَت:

- لأجاممنون. لقد جفاه النوم، على ما يبدو.

- آه، يا له من مسكين!

تبادلنا ابتسامة، ثم هزت رأسها مشيرةً إلى أمينا:

- إنها هادئة.

- المظاهر خدّاعة.

- حقًا؟

- لا، لستُ أدري، لكنك محقة؛ هي لا تتكلم كثيرًا.

- أهي خادمتك؟

- لا، إنها واحدة من فتيات السيد بيروس. أعتقد أن الأمر يناسب كلتينا، فأنا محتاجة إلى شخص أمشي معه، وهي تحتاج إلى الخروج.

كان هذا كله محرجًا بعض الشيء، فقد عرفتُ ريتسا مذ كنتُ طفلة، وفي ذاك الزمان، كانت شخصًا ذا مكانة مرموقة، مُعالِجة وقابلة محترمة. كانت أعز صديقات أمي، وبعد وفاتها، بذلَت ريتسا قصارى جهدها لتعتني بي. ثم بعد سنوات، وقتما نهب أخيل مدينتنا، وأحرقها، جُلِبنا إلى هذا المعسكر من معسكر ليرنيسوس أَمَتَين معًا، وكانت عونًا هائلًا لي آنذاك، وللعديد من النساء غيري، لكنني الآن امرأة حرة، زوجة السيد ألكيموس، في حين أن ريتسا لا تزال أَمَة. أوه! من السهل القول إنه لا ينبغي للتغيرات في المكانة وفي النصيب أن تُثقل الصداقة، لكن كلنا يعرف أنها تفعل. بيدَ أنها لن تُثقل هذه الصداقة، فقد خسرتُ الكثير من الذين أحببتُهم، وعزمتُ على ألا أخسر ريتسا.

وهكذا، رحتُ أستذكر عفويًّا حياتنا في ليرنيسوس، متواصلةً معها عبر الذكريات المشتركة لماضٍ أسعَد، قبل أن يدمر أخيل كل شيء، قبل أن نسمع الجدران ترجّع أصداء صيحته الحربيّة المريعة للمرة الأولى. ورغم ذلك، كانت المحادثة ثقيلةً تذوب مثل شمعة في آخر عمرها، وبقيتُ منتبهةً طوال الوقت إلى أمينا، وهي تنصتُ بنَهَم. وبعد سكتة أخرى، قلتُ: «حسنًا، أظن أن عليَّ العودة».

أومأَت ريتسا برأسها على الفور، ودفعَت هاونها جانبًا. تعثّرنا في تبادل القُبَل، وجعلَت إحدانا ترسل نقرات، وهزّات تافهة تجاه الأخرى قبل أن نحرز أخيرًا اصطدام أنوف محرج. شاهدَت أمينا ذلك، وعندما انطلقنا، تلكّأَت خلفي

عمدًا من جديد، فتراجعتُ راغبةً بالمشي بجوارها، لكن حالما أبطأتُ، أبطأت هي أيضًا، فظلت المسافة بيننا ثابتة. تنهدتُ، وواصلتُ سعيي في مواجهة الريح. كان ضميري يؤنبني بخصوص الفتاة، وقد استأتُ من هذه الحقيقة، لأني شعرتُ أنني كنتُ أفعل كل ما يسعني فعله. كنتُ قد حاولتُ التواصل معها قبلًا في زياراتي إلى أكواخ النساء وقتما تذكرتُ أيامي الأولى في المعسكر، وكم ساعدتني النسوة الأخريات آنذاك! لكنها لم تقبل أيّ بادرة صداقة بعد. بالطبع، كنتُ أحاول مساندة بقية الفتيات أيضًا، لكني خصَصتُ أمينا، ربما لأنها ذكّرتني بنفسي كثيرًا، بالطريقة التي شاهدتُ، وأنصتُّ، وانتظرتُ فيها. غالبًا ما تُبنى الصداقات على التشابهات، على اكتشاف السلوكيّات المشتركة.. الأهواء المشتركة، لكن أوجه التشابه بيني وبين أمينا لم تحمِل هذا التأثير، وإن فعلَت شيئًا، فهو أنها زادت الشكوك التي كنتُ أحسها تجاه نفسي فقط، لكن مع ذلك، أردتُ أن نتواصل، وظللتُ أنظر خلفًا إليها، لكنها استمرت بالمشي مطرقةً رأسها، متلافيةً نظراتي بعناية.

كانت ثلة من الرجال قد اجتمعَت في الميدان، وراحَت تتراكل مثانة خنزير، أو على الأقل، أمِلتُ أنها مثانة خنزير، ففي اليوم التالي لسقوط طروادة، مررتُ ببعض المقاتلين يلعبون كرة القدم برأس بشريّ. بدت هذه المجموعة مسالمة بالحد الكافي، لكنني لم أكن لأجازف، فاستدرتُ، ووضعتُ يدي على ذراع أمينا، وأومأتُ برأسي إلى الشاطئ. بدأتُ بالاعتقاد أن ألكيموس كان محقًا منذ البداية، وأن مغادرة المجمع أمر في غاية الخطورة.

كان الشاطئ مهجورًا، إلا من كاهنَين يرتديان أوشحة أبولو القرمزية، ويدوّران دوارات خشبيّة فوق رأسَيهما، ربما يحسبان أنهما إذا ما أحدثا جلبة كافية، فستُجبَر الريح على الإذعان. وبينما أراقبهما، أفقدَت نفخة ريح أحدَهما توازنه، وألقَته بلا كياسة فوق الرمل الرطب، ليستسلما بعد ذلك، ويجرّا أذيالهما خائبَين تجاه مجمع أجاممنون. في كل أرجاء المعسكر، كان ثمة كهنة مثل هؤلاء يحاولون فعل كل ما يعرفونه لتغيير حالة الطقس؛ دراسة أعفاج الأضاحي من الحيوانات.. مراقبة أنماط طيران الطيور.. تفسير الأحلام... وظلت الريح تعصف.

بعد أن غادر الكاهنان، صار الشاطئ الرحيب بأكمله لنا، وإن كنا مضطرتَين إلى تثبيت خمارَينا على وجهَينا لنتمكن من جرّ أيّ نفَس، أما التكلم، فكان مستحيلًا. لم تكن أيّنا قادرةً على مجابهة العصف بمفردها، لذا أُجبِرنا على التشبث ببعضنا بعضًا، وساهمَت هذه الدقائق من الكفاح المشترك بكسر الحواجز بيننا أكثر بكثير مما فعلَته مساعيَّ للصداقة. رحنا نترنح في المكان، نضحك ونقهقه، وتورَد خدا أمينا، وأخال أنها على الأرجح ذُهلَت لاكتشافها أن الضحك لا يزال ممكنًا.

ظللنا في البداية عند حافة الشاطئ، حيث منحتنا السفن المسنودة بعض الحماية، لكنني أعجز عن مقاومة فتنة البحر تمامًا، وبأيّ حال، قلتُ لنفسي: «إن الرمل البليل عند حافة الماء سيكون أمتَن، ومن الأسهل أن تَثبت أقدامنا فوقه»، لذا حدرنا هابطتَين جروف الرمل والحصباء المتمازجة، لنجد نفسَينا في مواجهة جدار من المياه الرماديّة المصفرّة التي بدت منتوية ابتلاع اليابسة. على الشريط الساحلي، كان ثمة أكوام نتنة من الفوقس الحويصليّ[1]، المرصّع بالمخلوقات الميتة، الآلاف منها، أكثر مما رأيت من قبل قط؛ سلطعونات ضئيلة رماديّة مخضرّة، ونجوم بحر، وعدة قناديل بحر، صميمها أحمر داكن، كما لو أن شيئًا بداخلها قد انفجر، وأشياء أخرى لا أعرف أسماءها، كلها ميتة. بدا كما لو أن البحر ينحر أطفاله!

التفتَتْ أمينا لتنظر إلى أبراج طروادة التي عثنَت[2] فيها النار، وصار وجهها فجأةً متوترًا ومبتئسًا، وشعرتُ أنني كنتُ أخذلها، وأن شخصًا غيري أكبر وأخبَر –ربما ريتسا– سيكون أقدر على التواصل معها مني. لذا مشينا في صمت حتى صرنا حذاء مجمع بيروس، كنتُ أعرف أننا ما إن ندخل البوابة حتى نصير في أمان، لكننا لم نكن قد بلغناها بعد. سمعتُ دفقة ضحك ناهق، فاقتربتُ بحذر ملتزمةً الظلال، ومحاولةً استنباط ما ينتظرنا. لم يكن الظلام

(1) الفوقس الحويصليّ: أحد أنواع الطحالب البحريّة بنية اللون، التي استُخدمت قديمًا في الطب البديل، ينمو الفوقس الحويصليّ ليصل إلى طول 90 سم، وينمو غالبًا في سواحل المحيط الأطلسيّ والمحيط الهادئ. (المترجم).

(2) عثنَت النار: دخّنَت (المترجم).

قد حلّ تمامًا، لكن في تلك الأيام، كانت السماء في غالب الأوقات مكفهرة إلى حد أنها حتى في منتصف النهار بالكاد تكون مُنارة.

امتد أمام البوابة مباشرةً خلاء واسع، اعتاد المرميديّون الاحتشاد فيه قبل الزحف إلى الحرب، وهنا، تجمعت أُباشة مقاتلين أخرى، لكن كانت في وسط هذه اللفّة فتاة معصوبة العينين، وكانوا يدوّرونها حول الدائرة، يرميها كلٌّ منهم رميًا إلى أحضان التالي. لم تبكِ، ولم تصرخ طالبةً النجدة، وعلى الأرجح أنها باتت تعرف بحلول هذا الوقت أن أحدًا لن يأتي. ***لا ينبغي لأمينا أن ترى هذا.*** قبضتُ على ذراعها، وأشرتُ بالعودة من حيث أتَينا، لكنها وقفَت مشلولةً وحسب، فتعيَّن عليَّ في آخر الأمر جرّها بعيدًا. تبعَتني متعثرةً على طول السور، لكنها ظلت تنظر من فوق كتفها إلى الفتاة الدوّارة، وحلقة الرجال الضاحكين.

في أسابيعي الأولى في المعسكر، حينما كان البحر عزاءً وإغواءً في آن معًا (أقول «إغواء»، لأنني غالبًا ما رغبتُ بالمشي ناحية الموج من غير رجعة)، كنت قد استكشفتُ كل بوصة من الشاطئ، وقد خدمتني تلك المعرفة خير خدمة الآن، ذلك أني كنتُ أعرف بوجود طريق بين الكثبان تؤدي إلى مدخل آخر للإسطبلات، لذا توجهتُ إليها رأسًا. لدى بلوغنا أول مكان محتجب، ارتميتُ على الرمل لألملم شتات أفكاري، وبعد لحظة تردد، قعدَت أمينا بجواري، ثم تسطحَت على ظهرها، وراحت تحدِّق إلى السماء.

تفادينا باستلقائنا على هذا النحو العنف الكامل للريح، وإن ظلت النصال الحادة لقصب الرمال ترشق فوق رأسَينا. أغمضتُ عينيّ، ووضعتُ ذراعيَّ فوق وجهي، كنتُ خائفةً أن ترغب أمينا بالتكلم عن الحادثة التي شهدناها للتو، ولم أعرف ما أقول لها. ربما كان عليَّ قول الحقيقة، لكنها حقيقة يشقّ قولها. نمتُ في ليلتي الثانية في المعسكر في سرير أخيل، وقبل ذلك بأقل من يومين، كنتُ قد رأيتُه يقتل زوجي وإخوتي. وظننتُ بينما رقدتُ تحته وهو نائم، أن هذا أسوأ ما يمكن أن يصيبني، أو يصيب أيّ امرأة، ظننتُ أن هذه كانت الهاوية، لكن وقتما تجوّلتُ في المعسكر لاحقًا، بدأتُ ألاحظ النسوة العوامّ، أولئك اللاتي كُنّ ينبّشن عن الفُتات حول نيران الطهو، اللاتي ظلَلْن دون طعام ليطعِمن أطفالهن، اللاتي كُنّ يزحَفن تحت الأكواخ في الليل لينَمن،

ولم أستغرق وقتًا طويلًا لأدرك أن ثمة أقدارًا عديدة أوخم من قدري. كانت أمينا في حاجة إلى معرفة ذلك، إلى فهم وقائع الحياة في هذا المعسكر، لكنني عجزتُ عن مجابهة وحشيّة إخبارها، وبأيّ حال، حدثتُ نفسي بأنها ستتعلّم قريبًا بما فيه الكفاية.

عندما فتحتُ عينيَّ، رأيتها تراقب بعض الغربان المحوّمة في دائرة، على بُعد مئة ياردة أو نحو ذلك، ظننتُ أنها حائرة، ووقفَتْ بعد لحظة ساترةً عينَيها لتُحسّن من رؤيتها. بدَت نفسها أشبه بغراب بثوبها الأسود المُرفرِف حولها، فنهضتُ واقفةً على مضض، متسائلةً: «كيف سأتجاوز بها تلك البقعة، ذلك أنني عرفتُ –أو بالأحرى شككتُ– ما يوجد هناك». عندما رجع بيروس ظافرًا بعد مفاخره في طروادة، كان يجرّ كيسًا من الدماء، والعظام المكسورة خلف عجلات عربته، هوَ بريام، وكان الفعل مُروّعًا، ومتوَقعًا بإيحاش على حد سواء. أهانَ أخيل فيما مضى جثمان هيكتور بجرّه خلف عربته، لذا من الواضح أن على بيروس إنزال المصير نفسه ببريام. تذكرتُ أخيلَ عائدًا إلى المعسكر في ذلك اليوم، كيف وسّع خطاه إلى الردهة، وغمس رأسه وكتفيه في حوض من المياه النظيفة، ليطلَع بعد دقيقة أو نحوها يقطر ماءً، وفاقدًا للبصر. كانت الغربان تحوّم في ذلك اليوم أيضًا.

«هيا بنا، (حاولتُ إقحام شيء من الحيويّة في صوتي) فلنذهب».

أحكمتُ شد خماري على وجهي، وانطلقتُ. كانت ثمة رائحة نتنة في الهواء أمِلتُ أنها لم تلاحظها، رغم أنها بدت منتبهةً إلى كل شيء. وصلنا بعد أن انزلقنا هابطتَين جروف الرمل الرخو إلى فسحة، وهناك رقدَت الجثة (بريام). لا يمكن معرفة ما إذا اختير هذا المكان عمدًا أم أن جسد بريام قد هُجِر هنا ببساطة وقتما بلغَت جولة بيروس المسعورة نهايتها! لكن سواء أكان صُدفة أم عن قصد، فقد تُرِك مسنودًا على حَدَر طفيف ليبدو وكأنه نصف قائم ليُحيّينا، وزاد ذلك كل شيء سوءًا بطريقة ما. لم يبقَ الكثير من وجهه؛ عيناه وأرنبة أنفه مختفية، ذلك أن الغربان دائمًا ما تستهدف الأعين أولًا، لأنها أسهل، ولأن عليها التحرك بسرعة، فكم كلَّف تلكُّؤ الغربان الجوعى لثانية إضافيّة أن ينتهي به الأمر بين فكَّي ثعلب!

لم يكن ثمة سبيل للالتفاف حول الجثة، فاضطررنا إلى المرور بجانبها، وبالقرب منها، صارت الخَمّة حاجزًا ملموسًا، على المرء دفع نفسه عبره، فرحتُ أتنفس عبر فمي، مُبقيةً نظري مخفوضًا لأحدّ من رؤيتي إلى أقل قدر ممكن. ما لم أتوقعه كان أزيز الذباب، آلاف الذباب التي كسَت الجثة مثل زغب من الشعر الأسود الخشن. تطايرَت وقتما هبط ظلي عليها، لتحط مجددًا في لحظة عبوري. أترع الضجيج رأسي حتى ظننتُه سينفلق، وفي بعض الأحيان، حتى الآن بعد الكثير من السنوات، أنتبه وأنا جالسة في الخارج، أستمتع بدفء أمسيّة صيفيّة إلى طنين نحلات تتلمس الأزهار، إلى صوت عدد لا حصر له من الحشرات الأخرى الفائرة في الظل الأخضر، ولا يمكنني احتمال ذلك. يسألني الناس: «إلى أين تذهبين؟»، وأجيب بطريقة عاديّة على نحو مقنع، لأنني حظيتُ بالكثير من التدريب. أوه! صدقيني، الكثير. «إن الجو في غاية الحر هنا، ألا تعتقدون ذلك؟ لمَ لا ندلف إلى الداخل؟».

لم يكن من مفر في ذلك اليوم. حاولت التركيز على أمور تافهة؛ ما كنا سنتناوله على العشاء، ما إن تذكرت النسوة تجهيز حمّام ساخن لعودة ألكيموس، رغم أني لم أملك أدنى فكرة عن موعد عودته، أو ما إذا كان سيعود أبدًا. فكرتُ بأيّ شيء، وكل شيء، إلا ما كان ممدّدًا هناك أمامي؛ البقايا المؤسفة لملك عظيم.

كانت أمينا متأخرةً عني بعض الشيء، فالتفتُّ أستعجلها، لكنني وجدتُ نفسي عاجزةً عن الكلام. أصابتها الصنّة بالغثيان، فرفعَت خمارها لتغطي أنفها، وراحت تحدِّق إلى الجثة، إلى تلك اللبدة من الشعر الفضيّ الممزوج بالدماء، لم يكُن ممكنًا التعرف إلى الكثير سواها، لكن ذلك كفاها لتقول: «بريام؟!». أومأتُ برأسي، وأشرتُ إليها بالمضيّ، لكنها وقفت راسخةً في أرضها، تحدق وتحدق، وعيناها فاغرتان إلى درجة بدا معها أنهما ابتلعتا كامل وجهها. ثم استدارت جانبًا، وتهوّعَت، وتشنّج كامل جسدها إجهادًا. بعد بضع لحظات، كانت تمس فمها بلباقة بطرف خمارها.

«هل أنتِ بخير؟»، لم ترُد، حسنًا، عدلٌ وحقٌ، إنه سؤال غبي! كانت تقشط بطرف صندلها ما يكفي من التراب لتغطية القيء، آخذةً وقتها، نيّقة مثل قطة. وقتما أدارت وجهها لي أخيرًا، ذُعرت. لا أعرف ما الذي توقعتُه؛

اشمئزازًا؟ نعم. صدمةً؟ نعم. ربما حتى نوبة هستيريا عارمة، أيّ شيء سوى هذه التحديقة الباردة الهادئة اليقظة! لقد وتّرتني:

- هيا بنا، فلنوصلكِ إلى المنزل.

- المنزل؟!

فات الأوان على اختيار كلمة أخرى، وبأيّ حال، سواء أأعجبها ذلك أم لا، كان كوخ النساء منزلها الآن. تابعتُ سيري، آملةً أن تتبعني، لكنها لم تفعل، وعندما نظرتُ من فوق كتفي، وجدتُها لا تزال تحدِّق، لكن ليس إلى بريام الآن، بل إلى الجثوة الصغيرة من التراب التي أنهضَتها لتستر قيئها، ثم رفعت رأسها قائلةً:

- التربة رخوة جدًا، ستكون سهلة الحفر.

لم أفهم في البداية، ثم:

- لا، لا!

- لا يمكننا تركه على هذي الحال وحسب.

- لا شيء يمكننا فعله.

- لا، ثمة شيء، يمكننا دفنه (ثم، مثل طفلة تردد درسًا حفظته صمًّا) إذا لم يُمنح ميت ما دفنًا لائقًا، يُحكَم عليه بأن يهيم في الأرض، عاجزًا عن دخول عالم الموتى الذي ينتمي إليه!

- أحقًّا تصدقين ذلك؟ يُعاقَب بريام، لأن بيروس لن يسمح لأحد بدفنه؟ هذا لا يُنبئ بالكثير من رحمة الآلهة، أليس كذلك؟

كل كلمة قلتُها كانت زائفةً، ذلك أن لا شيء في حياتي حتى تلك اللحظة قد جعلني أميل إلى الإيمان برحمة الآلهة.

- الفكرة أن بيروس لا يريده أن يُدفَن، وما يقوله بيروس يُنفَّذ.

- ثمة سلطة أعلى من سلطة بيروس.

قلتُ مسيئة الفهم عمدًا:

- بلى، أجاممنون. أتظنين أنه يهتم فيما إذا دُفن بريام أم لا؟

- أنا أهتم.

- أنتِ فتاة يا أمينا، لا يمكنكِ قتال الملوك!
- لا أريد قتال أحد، وبأيّ حال، لن أكون مقاتلةً أحدًا، إنما سأفعل ما تفعله النسوة دائمًا فحسب.

كانت محقة بالطبع، فتجهيز الموتى للدفن عمل النساء، تمامًا مثل الولادة، والاعتناء بالرُضّع، نحن السَدَنة. في الأيام العاديّة، كانت نساء بيت بريام ليجهزن جسده للدفن، لكن الأمور مختلفة الآن، وبدا أنها ليست مستوعبةً البتة كم تغيرت حياتها جوهريًّا!

«انظري يا أمينا، إذا ما كنتِ تريدين النجاة، فعليكِ البدء بالعيش في العالم الواقعيّ؛ طروادة زالت، وفي هذا المجمع يحصل بيروس على ما يرغب به». ما أردتُ قوله فعلًا كان: «أنتِ أَمَة، تعلَّمي أن تفكري مثل أَمَة!»، لكنني عجزتُ عن ذلك. كانت صغيرة جدًا، وشجاعةً جدًا، وكنتُ جبانة -على ما أعتقد-، لذا تغاضيتُ عن الأمر، آملةً أن يظهر واقع حالها واضحًا أمامها دون الحاجة إلى تفهيمها بالقوة.

«فلنُعدكِ إلى الكوخ، ولتأكلي شيئًا»، أومأتْ برأسها في كُره، وانطلقتُ بأقصى سرعتي، رغم أن العشب والحشائش في هذه الأرض المحجوبة خلف الكثبان تنمو حتى مستوى الخصر تقريبًا، لذا كان المرور عبرها جهادًا. كان أمامنا ممر الرماد الواصلُ بين الإسطبلات، ومروج المراعي على الرأس البحريّ، وكان ثمة سائس يقود فحلًا أسود قادمًا ناحيتنا. لانزعاجه من الريح العاتية، كان الحصان يقلّب رأسه، ويمشي مُجانبةً، لذا غالبًا ما كان الرجل الماشي على جانبه الآخر بالكاد مرئيًا. إنه إيبوني، تعرفتُه، لأنه نصف فريق عربة بيروس. وقفتُ على حاشية الممر، ورفعتُ خماري، مدركةً أن أمينا واقفة شامخة، مستقيمة الظهر بجواري. في البداية، كنتُ مستغرقةً في مشاهدة رقص إيبوني المتواصل إلى درجة أنني لم أرَ من كان السائس، لكن من ثم لمحتُ شَعرًا أحمر تذروه الريح، يتطاير على عنق الحصان الأملس الأسود.. إنه بيروس!

ما الذي يفعله بحق السماء؟ يعيد حصانه من المرعى، في حين لديه دزينة، أو نحو ذلك من الساسة ليعملوا عنه؟ لكنني تذكرتُ حينئذ أنه وقتما وصل بيروس إلى المعسكر، بعد عشرة أيام من موت أخيل، عقّب ألكيموس

غير مرة على عدد الساعات التي كان يقضيها في الإسطبلات؛ كان يقول: «بارع في التعامل مع الخيول»، بنبرة تُلمح إلى أن بيروس في الواقع أقل براعة مع الرجال. «شاب غريب»، كان هذا أقرب ما خرج من شفتيه إلى الشكوك التي عرفتُ أنها تساوره. كنت أتساءل أحيانًا عمّا إذا بقيَ أيّ من تلك الشكوك الأوليّة بصرف النظر عن إحسان بيروس الصُنعَ في طروادة. حرب قصيرة، لكنها جيدة؛ بدا أن هذا كان الرأي العام («الإحسان صنعًا في طروادة»، و«حرب جيدة» هما العبارتان اللتان تُقرّحان لساني).

وهكذا، كنا واقفتَين هناك، كلتانا مستترة برصانة، منتظرة حصانًا، ورجلًا ليمرّا. ربما تمكّن إيبوني من شم رائحة الموت، أو ربما لم ترُق له الطيور السوداء الضخمة التي ما زالت تحوّم فوق رأسه، وظلالها الحادة العجفاء تُشرّح الأرض من تحت أقدامه وحسب، فتراجع جارًّا الحبل الأمامي، ثم لبطَ في الجو ثلاث أو أربع مرات في تعاقب سريع، مُطلِقًا سلسلة من الضُراط المتفجر. أحسن بيروس تثبيته، فقد كان ما بين يديه صراعًا حقيقيًّا، لكنه ظل رصينًا؛ يتكلم بهدوء ولطف وطمأنة، حتى صار الحصان مستتبًّا أخيرًا، وإن كان يتعرق بغزارة، وتحرك بيروس إلى الجانب الآخر منه مبقيًا رأسه مُدارًا حتى لا يرى الطيور الرهيبة. وقد كانت رهيبة –بدت كذلك حتى بالنسبة لي، وأنا التي لا سبب عندي لأخافها– تنعق بصحَل في الضوء الآخذ بالتلاشي، والريش على حواف أجنحتها مثل أصابع مبسوطة تدعو الليل. لم يُرخِ بيروس قبضته على الحبل، بينما ترك إيبوني يحرك رأسه بحريّة مجددًا بعدما تجاوزا جثة بريام بمسافة لا بأس بها.

زفرتُ، رغم أنني لم أعرف حتى تلك اللحظة أنني كنتُ حابسةً أنفاسي، وانتظرتُ حتى سبقنا بيروس كثيرًا قبل أن أخرج إلى الطريق، ومن ثم، بعد إلقائي نظرةً حرصتُ على خلوها من التعابير ناحية أمينا، انطلقتُ إلى المعسكر، مدركةً طوال الوقت أنها تسير في أثري على مضض.

4

عند دخولي المجمع عن طريق فناء الإسطبل، لاحظتُ أنه قد سُمِح للنساء الطرواديّات بالخروج من كوخهن. كُنّ جالسات في صفَّين على درجات الشرفة، ويبدون في أروابهن الطويلة السوداء أشبه بسنونوات على وشك الهجرة، بطريقة تراصفها على الطُّنُوف والتصوينات في الأيام السابقة لطيرانها، إلا أن السنونوات تبقى على تغريد متواصل، في حين كانت النسوة صامتات. أقول «نسوة»، لكنهن فتيات في حقيقة الأمر، ليست فيهن من تتجاوز السابعة عشرة، وبعضهن أصغر من ذلك بكثير. كُنّ متلاصقات معًا، يمنعهن فزعهن حتى من الهمس، ويحدِّقن إلى طروادة، حيث تعلقت أعمدة من الدخان الأسود فوق القلعة، تثقبها بين الحين والآخر نفثات من لهيب أحمر وبرتقاليّ. أسرعت أمينا لتنضم إليهن، فأفسَحنَ لها مكانًا على الدرجة، لكنه كان إفساحًا صامتًا بلا ترحيب.

تابعتُ سيري إلى كوخ ألكيموس، وعندما رفعتُ المزلاج، قذفتْ نفخة ريح وقحة البابَ ليرتطم بالجدار. صارعتُ لأوصده خلفي، ووقفتُ صامتةً للحظة، أحدِّق حولي إلى ما صار الآن منزلي. طاولة، وأربعة كراسي، وسرير محشور في الحائط، وعدة بُسُط، وفي الركن صندوق منقوش يضم ملابس ألكيموس. غرفة مريحة، فيها وسائد على الكراسي، وبساط مزخرف على الحائط، ومصابيح وشموع، لكن لم أشعر بأن أيّ شيء فيها يخصني. قدِمتُ هذا الكوخ في اليوم التالي لوفاة أخيل، كان ألكيموس طريح الأسى، والمعسكر في هياج عارم. كان هذا منذ خمسة أشهر، وما زلتُ -رغم ذلك- أحس الغرفة غريبة. أجبرتُ نفسي على الحركة، على فعل شيء.. أيّ شيء، قبل أن أقرر الخروج، ومتابعة سير تجهيزات العشاء.

كان موقد الطهي خلف الكوخ، حيث توجد مساحة صغيرة مُسيَّجة حجبَت الريح بعض الشيء، وكان عندي نساء يخدمنني الآن؛ إماء. ثمة مثل يقول: «إن أسوأ سيدة يمكن أن تحظى بها أَمَة، هي أَمَة سابقة». حاولتُ ألا يكون ذلك صحيحًا في حالتي على الأقل، فحظيتْ إماء ألكيموس بمنامَة آمنة ومأكل حسن.

حالما تأكدتُ من جري الطبخ على قدم وساق، عدتُ إلى الداخل، وانتقيتُ سلةً من صوف خام، أسود رماديّ، فيه كتل من البعر تُسمِّك النسيج. لا أخال نَدف الصوف عملًا مفضلًا لأيّ شخص، وبكل تأكيد ليس لي. في غضون دقائق، صارت يداي ملطخةً بالدُهن، لكنني واظبتُ، وإن كان التكرار الرتيب للمهمة يشدني إلى مستنقع من المخاوف الشنيعة. ومرةً أخرى سمعتُ أمينا تقول: «ستكون سهلة الحفر»، وتحركتُ قليلًا لأمطَّ ظهري الموجوع. بالطبع لم تعنِ ذلك، فهي لن تكون مخبولةً بالحد الكافي لفعل أيّ شيء بتلك الخطورة، وبأيّ حال، ثمة حرس على كوخ النساء في الليل. لا، كل شيء على ما يرام، لا يوجد ما يستدعي القلق، لكن آنذاك، وأنا عائمة بين الصوف، رأيتُ يد بريام، وخاتم إبهامه الذي طالما ارتداه يلمع في الشمس. رجعتُ إلى زمان بعيد، منقولة بلا حول ولا قوة إلى ماضٍ سحيق. وقتما كنتُ في الثانية عشرة من عمري، بعد وفاة أمي بفترة قصيرة؛ كان والدي قد أرسلني لأعيش مع أختي المتزوجة في طروادة، وأولِعت بي هيلين، التي كانت –ولأسباب مجهولة– أعز صديقات أختي البدينة القصيرة. علّق الجميع على ذلك، وكنتُ دائمًا صديقة هيلين الصغيرة. اعتادَت أخذي معها عند ذهابها إلى القلعة؛ ما كان يحدث كل يوم تقريبًا. كانت تتكئ على التصوينة، وتراقب بِشَرَه –وكان ثمة شيء بغيض في نظرتها الثابتة– المعركة المحتدمة في الأسفل البعيد. كان بريام موجودًا في أول مرة ذهبنا، وفي خضم كل متاعبه (الحرب تسير على نحو سيئ، والأبناء يتنازعون، والخزائن تفرغ، وجيل من الشبان يموت) وجد متسعًا من الوقت ليعاملني بلطف. أخرج عُملةً فضيّة، ووضعها على راحة يده، وبينما غمغم ببعض الكلمات السحريّة، مرَّر يده الأخرى فوقها بسرعة، واختفت العملة. حدَّقتُ إلى يده الخالية، ميالة إلى التصرّف كما تملي عليَّ كرامتي ذات الاثني عشر عامًا، فقد كنتُ كبيرة على الخدع السحريّة، لكن مسحورة أيضًا؛ ذلك أنني لم أرَ كيف أُنجزَت! راح بريام يربّت على نفسه

في كل مكان، متظاهرًا بالبحث داخل أرديته. «أين ذهبَت؟ أوه! آمل أنني لم أضيّعها. أهي معكِ؟»، هززتُ رأسي بعنف، ثم بالطبع مد يده، وأكتشف العملة خلف أذني، فضحكتُ رغمًا عني. قدَّم لي العملة، وهو منحنٍ بكياسة، وأذكر أنه من ثم استدار ليشاهد المعركة، واستقر وجهه على خطوط حزنه المعتاد.

والآن، بعد سنوات، تذكرتُ تلك اليد، ورأيتُ اليد نفسها راقدةً مخزيةً على الأرض الوسِخة. حشرتُ إصبعيّ بقوة في عينيّ، وطردتُ الصورة، تاركةً رأسي يسقط على الكرسي. قررتُ ألا مزيد من ندف الصوف، فقد كان ذلك مكئِبًا أشد ما يكون، ثم أغمضتُ عينيّ معتصرةً إياهما، وجلستُ مكتفيةً بالإنصات إلى الريح.

وقتما عاد ألكيموس إلى المنزل في آخر الأمر، كان أوتوميدون برفقته، ولم يكن ذلك مفاجئًا، فغالبًا ما كانا يتعشيان معًا، لكن تبعهما رجل ثالث بعد ذلك؛ بيروس. انحنيتُ مليًّا، وذهبتُ لأحضر الكؤوس والنبيذ، لأنني عرفتُ أنه سيكون مُرتقبًا، اخترتُ النبيذ الأفضل، وقدمتُه من غير مزج، مع خبز وزيتون إلى جانبه فقط. جلسوا إلى الطاولة، وأخذوا يتكلمون، وجارى ألكيموس شُرب بيروس، لكنه ظل واعيًا، ولم يثقُل لسانه إلا قليلًا، أما أوتوميدون، وإن بدا أنه شرب بقدر البقية، فقد ظهر أنه صاحٍ تمامًا، وبدَت ثمالة بيروس واضحة. أحضرتُ إبريقًا ثانيًا، ووضعتُه على الطاولة بجوار ألكيموس، ثم تراجعتُ إلى الظلال عند السرير. لم يُلقِ أحد إليَّ حتى بنظرة!

كانوا يتكلمون عن خطة ألكيموس لتنظيم ألعاب ضد فِرق من المجمعات الأخرى. قال ألكيموس إنه لا بد من إيجاد شيء ما للرجال ليفعلوه، فالخمول لن يستولد إلا تبرُّمًا، وكانت ثمة شائعات تتطاير في المعسكر بالفعل، فحواها أن الطقس غير طبيعيّ، ولا بد أن أجاممنون أو واحدًا من بقية الملوك قد أهان الآلهة. بدأت الصراعات تندلع بين القبائل والفصائل المتنافسة، وهذا خطير، فللممالك الإغريقيّة تاريخ مديد من نزاعات حدوديّة متقرحة، وثارات تتناقلها الأجيال، واختصام لا ينقطع، والآن وقد هُزِم الطرواديّون، لم يبقَ ما يُوحِّد هذه الأحزاب المتحاربة. كان الاتحاد الذي انتصر في الحرب يتفتّت، وكل الممالك المستقلة تتنافس من أجل المكانة. تقاتل الملكان الأخوان:

أجاممنون ومينيلاوس اللذان قادا الحملة، لأن مينيلاوس -ومن غير اعتبار للشرف والذوق، والإدراك السليم- أعاد تلك الفاجرة «هيلين» إلى سريره، آلاف من الشبان ماتوا، كي يتمكن مينيلاوس من العودة إلى نكاح عاهرته. وهكذا، تابع ألكيموس كلامه، كان عليهم السيطرة على الوضع بطريقة ما، وجَمْع شمل الفصائل المتفرقة. ظل بيروس يقول: «نعم»، و«لا»، ويشرب، وطرح رأيًا مفاده أن ما يحتاجه الرجال في الحقيقة هو شيء من المرح، فأصرّ ألكيموس على أن الألعاب ستكون مرحةً، وقال أوتوميدون: «إلى أن يبدؤوا بقتل بعضهم بعضًا بسبب النتائج!».

كانوا قد شربوا قدرًا لا بأس به من الإبريق الثاني، وما زلتُ لا أدري ما إذا كان بيروس سيبقى ليتعشّى. بدأ، وقد أمعن في الثمالة، الكلام –بل التبجُح بالأحرى– عن الدور الذي لعبه في سقوط طروادة، ورأيتُ ألكيموس وأوتوميدون يتبادلان النظرات. كان المرميديّون –ولا يزالون– عِرقًا دحداحًا داكن الشعر والجلد، ورشيقًا رشاقة ماعِزهم الجبليّ، وعميق الشك، وبطيء الثقة، وصَمُوتًا صمتًا مبالغًا فيه. لم يبدُ ألكيموس، ولا أوتوميدون مرتاحَين خلال تشدُق بيروس المخمور، ولا سيما أوتوميدون، الذي راح يحدِّق إلى كأسه، ووجهه الشاحب العُقابيّ، صفْر التعابير. لم أستمتع بذلك أيضًا، إذ لم أرغب بالاستغراق في التفكير فيما حصل داخل طروادة، ولم أرغب بمعرفة ما فعله ألكيموس بكل تأكيد. كان عليَّ قضاء بقية حياتي مع هذا الرجل، وسيكون الأمر أسهل إن لم أعرف، لكن لم يكُن عليَّ أن أقلق، فبيروس البطل الوحيد لحكايته.

كان يصف.. يستحضر اللحظة التي شق فيها طريقه عبر أبواب قصر بريام. لم أرَ بيروس رجلًا مفوّهًا قط، لكن الكلمات تدفقت من فمه في هذا الصدد، وأُجبِرتُ على رؤية كل شيء عبر عينيه؛ الرواق الطويل، الأبواب التي تُفتح على بعضها بعضًا في كلا الجانبين، لمحات على السجاد، وبُسُط الجدران والفوانيس الذهبية (كل ثروة طروادة الأسطوريّة)، رغم أنه لم يُطِل النظر إلا بما يكفي ليتأكد من غياب المقاتلين المختبئين هناك. ثم ركض قدمًا –وهو يشعر بدماء أخيل تعدو في عروقه بحسب قوله– تجاه الباب في الطرف القصيّ، وعندما وجده محروسًا بشدة، حاد عنه باحثًا عن الممر

السريّ الذي يربط منزل هيكتور بجناح بريام. كان وجود هذا الممر إحدى المعلومات الحاسمة التي كشف عنها هيلينوس بن بريام تحت التعذيب، وقد وصل بيروس إليه بأقل قدر من البحث. آنذاك، كان قد ترك بقية المقاتلين الإغريق خلفه، لذا وقتما اندفع إلى غرفة العرش أخيرًا، ورأى بريام متسربلًا بدرعه، وواقفًا على درجات المذبح؛ كان الاثنان وحدهما.

كان كل ذلك مفجعًا بالنسبة لي، وإن لم يختلف عن تخيلاتي اللاإراديّة. حاولتُ ألا أسمع ما قيل بعد ذلك، لكن بلا جدوى، فقد كان لزامًا عليَّ متابعة الإنصات. تكلم عن حجم الفخار الذي أعلن به هويته؛ بيروس بن أخيل، وكيف ابيضّ وجه بريام رعبًا بمجرد ذكر ذاك الاسم، وكيف قفز على درجات المذبح، وشد رأس العجوز إلى الخلف، وحز عنقه بسرعة وبراعة، ورشاقة ويسر! ضربة واحدة -حسب قوله- مثل طعن خنزير.

نظرتُ إليه، وقلتُ في قرارتي: «أنتَ تكذب». لستُ أدري كيف عرفتُ، لكنني عرفتُ. لم يشبه موت بريام ذلك في شيء، ولن يَقدِر أيّ شخص على تكذيب رواية بيروس، لأن لا أحد غيره كان حاضرًا. انكفأ إلى الصمت في نهاية الأمر، وراح يحدِّق إلى كأسه، كما لو أنه يعجز عن تذكُّر الغرض منها. راقبتُه، وهو يبحث -كما أفترض- عن بعض التشابه بينه وبين أخيل، مَن تسبب غضبه الذي لا يمكن إرضاؤه بمئات الوفَيات، إن لم تكن ألوفًا! دأب الناس على إخبار بيروس بأنه نسخة طِبق الأصل من أبيه، لكنني لم أرَ ذلك، وبالنسبة لي، كان مثله مثل تمثال لأخيل، أنجَزه نحّات مختصّ، لكنه عاديّ المهارة، بصلصال أحمر جاف. إذن؟ نعم، كان ثمة تشابه، ولا، لم يشبه أخيل في شيء.

كما لو أنّ نظرتي أزعجَته، استقام بيروس، ونظر حوله، ثم قال:

- أتعرفان علامَ أندم حقًا؟ على إعطاء ترس هيكتور تلك المرأة اللعينة لتدفن طفلها المزعج فيه. أنت... (ووكز أوتوميديون بإصبعه) كان يجب أن تمنعني.

فقال أوتوميدون، بتصنع:

- كان أمرًا في غاية السماحة.

- بل أمرًا لعينًا في غاية الغباء!

قال أوتوميدون:

- لقد حصلتَ على الخوذة. حصلتَ على كل ما تبقى!

- لكن هذا ليس بيت القصيد، صحيح؟ لقد جرّد أبي جثة هيكتور الهامدة من الدرع في لحظة قتله إياه، وينبغي أن أحظى بالمجموعة الكاملة، من غير نتفة نقص.

وفجأةً، ترنح واقفًا على قدميه، فمد ألكيموس يدًا ليثبته، لكن بيروس تجاهله، وأخذ بطرف الطاولة، ثم انطلق قاصدًا الباب. تبعه ألكيموس إلى الشرفة، وسمعتُهما يتكلمان، وإن كسّرت هبّات الريح كلماتهما، وبعد بضع دقائق، عاد ألكيموس إلى الطاولة جالبًا هواء الليل البارد فوق جلده، وجذب كرسيه، ثم جلس. قال: «إذن»، فهز أوتوميدون كتفيه. اعتاد هذان الاثنان الانتظار في الكمائن، حيث يمكن لهمسة واحدة أن تشي بهما، لذا طوّرا على مرّ السنين أسلوب تواصل بدا بالكاد يعتمد على الكلمات، وشعرتُ أن هذه المحادثة بعينها كانت تجري بينهما غير منطوقة لمعظم الساعة الماضية.

قال ألكيموس:

- إنه صغير جدًا.

- ليس صغيرًا كفاية.

ليس صغيرًا كفاية ليُعذَر تبجُحه الثِمل؟!

- لا يريد إلا إثبات أنه جدير بقدر أخيل، ولا يمكنه ذلك (وأرسل ألكيموس نظرة تجاهي)، لا أحد يمكنه.

عمّ صمت مشحون. لم أخبر أحدًا أن زواجي لم يتم، ولا حتى ريتسا، وإلى تلك اللحظة كنتُ متأكدة أن ألكيموس لم يكن ليتكلم عن الأمر أيضًا، والآن، شعرتُ فجأةً أن أوتوميدون يعرف، أو على الأرجح، خمّن ذلك.

سألتُ:

- المزيد من النبيذ؟

فقال ألكيموس:

- لا يُفضّل، وفي الحقيقة، أظن أن علينا المضيّ.

فأومأتُ برأسي، آسفةً على عشاء آخر لم يُؤكَل. تمهّل عند الباب، وقال: «لا أعرف متى سأعود»، وشعرتُ أنه كان مستاءً حتى من ذلك التنازل الصغير لالتزامات الحياة الأسريّة. كان هذا جذر اضطرابي كله، ذلك أني عرفتُ –أو ظننتُ أني أعرف– أن ألكيموس أحبني فيما سبق، أو شُغِفَ بي على الأقل. وكنتُ قد انتبهتُ إلى نظراته إليَّ كلما اجتمعنا في غرفة، رغم أنه لم يقُل شيئًا بكل تأكيد، فباعتباري جائزة شرف أخيل، كنتُ بعيدةً عن متناوله بُعد إلهة، لكن ربما فضَّل الأمر على ذاك النحو، ربما كان الحب الحقيقيّ لأخيل.

5

بصفتي زوجة ألكيموس، عشتُ حياةً أكثر انعزالًا وتقييدًا منها وقتما كنتُ جائزة شرف أخيل، فلم أعُد أقدم النبيذ للرجال على العشاء في الردهة، وزادت فوضى المعسكر من صعوبة رؤيتي أصدقائي. لم تمر ساعات كثيرة لم أقضِها وحدي. كان ألكيموس يجيء ويروح منشغلًا بتنظيم عمل المجمع، وبالكاد كنا نتكلم. في الأمسيّات التي دائمًا ما قضيتُها وحدي، كنتُ أغزل الصوف تاركةً الخيط يقودني في متاهة من الذكريات. وجدتُ نفسي أفكر كثير التفكير بأختي لانثي؛ بنت زوجة أبي الأولى. لا أذكر شيئًا عنها من طفولتي، فقد كانت امرأة على شفير الزواج بالفعل وقتما وُلِدْتُ، ولم أتعرف إليها إلا في وقت لاحق، بعد أن تُوفيَت أمي، وأُرسلتُ للعيش معها في طروادة. كان هذا القدر الهائل من الوحدة الذي لم أشعر به منذ وصلتُ إلى المعسكر، هو ما قادني للتفكير فيها، إذ إنها نسيبتي الحيّة الوحيدة، إن كانت لا تزال حيّة.

بعد سقوط طروادة، رحتُ أبحث عنها بينما كانت السبايا تُسَقْن إلى الميدان، وبما أنها متزوجة بأحد أبناء بريام، بحثتُ عنها أولًا بين نسوة العائلة الملكيّة اللاتي وُضِعنَ في كوخ مزدحم عند حافة الميدان، في انتظار تخصيصهن جوائز شرف لمختلف الملوك. كانت بعض النسوة قد اندلقن من الكوخ، وانتشرن بين جالسات ومستلقيات على التراب الوسِخ، بشعور دبّقها العرَق، ووجوه مكدومة، وأعين دامية، وغلائل ممزقة، حتى عوائلهن كانت لتعاني مشقة في التعرف إليهن، وبينما مشيتُ عبر الحشد، أمعنتُ التحديق إلى الوجوه واحدًا واحدًا، لكن لانثي لم تكن بينهن.

في وقت لاحق، بحثتُ عنها بين النساء العوام اللاتي رأيتهن يُسَقْن قسرًا عبر الطريق الموحلة إلى المعسكر؛ يتعثرن، ويسقطن في بعض الأوقات مثل مواشٍ تُساق إلى مذبحها! وتُحَثّ الساقطات منهن على العودة واقفات بضربات من أعقاب الرماح. لاحظتُ غياب النساء الحوامل بينهن، وعلى الرغم من أن بعضهن كنّ ممسكات بأيدي بنات صغيرات، لم يكن ثمة صِبية. مرة أخرى، نقّلتُ نظري من وجه مذعور إلى آخر، لكن الخوف قد صيّرها كلها متشابهة، واستغرقتُ وقتًا طويلًا حتى تأكدتُ أن أختي لم تكن بينهن. عرفتُ لاحقًا أن سبعمئة امرأة رمَين أنفسهن من القلعة، وما إن سمعتُ حتى تيقنتُ أن لانثي كانت واحدة منهن، فقد كان فعل ذلك متجذرًا في طبيعتها، مثلما لم يكُن يومًا في طبيعتي.

وبالتدريج، مع تعاقب الأيام المتداخلة، تعلمتُ قبول أنها ميتة، لكنني عجزتُ عن التيقن. والآن، أكثر من أيّ وقت مضى، احتجتُ إلى اليقين. كانت هيلين الشخص الوحيد الذي يمكنني سؤاله؛ هيلين التي كانت صديقة لانثي، وإن لم تكُن صداقة يمكن للكثيرين فهمها، لذا نهضتُ باكرًا ذات صباح، وتسربلتُ بأدكن ثيابي، وانطلقتُ زاحفةً بين الأكواخ بأقصى ما قدرتُ عليه من التواري، متوترةً ووحيدةً. لم يكُن بإمكاني أخذ أمينا معي في هذه الرحلة، لأنها كانت ستخبر بقية الفتيات، ولم أرغب بأن يعرف العموم بهذه الزيارة. لم أكُن واثقة من أنني سأتمكن من الوصول إلى هيلين، فقد كان معروفًا أنها تحت حراسة شديدة، لكن الحرس على بوابة المجمع لوَّحوا لي بأن مُرِّي. لم تُعتَبر النساء تهديدًا.

لم يسبق لي أن دخلتُ مجمع مينيلاوس قبلًا، لذا لم أعرف البتة أيّ باب أطرق، وبعدما أجلتُ نظري في المكان لبعض الوقت، انتبهتُ إلى بنت صغيرة جالسة على درجات أحد الأكواخ تجرش الذرة. كانت مهزولة، وتحت عينيها ظلال غامقة، وثمة قرح مفتوح عند طرف فمها، ومن الواضح إلى حد مؤسف أنها واحدة من النساء اللاتي كنّ يعِشن عيشًا ضنكًا حول نيران الطبخ. وقتما سألتُ عن الاتجاهات، أشارت إلى أحد الأكواخ، وقالت: «أتريدين رؤية هيلين؟»، ثم بصقت لتطهر فمها بعد أن نطقَت الاسم.

صعدتُ الدرجات، وانتظرتُ لحظات متمنيةً لو أنني لم آتِ، ثم طرقتُ الباب. كانت يدي لا تزال مرفوعة، وفمي مفتوح لأسأل الجارية عمّا إذا كان بمقدوري رؤية سيدتها، وقتما رأيتُ ألا حاجة إلى ذلك، فهي أمامي. لم ألحظ أيّ تغير فيها.. لا تغير على الإطلاق، وبدَت بنفس عمري (ربما أصغر قليلًا)، رغم أنها أم لبنت في سن تتيح لها الزواج! كان شعرها مفكوكًا وأشعثَ إلى درجة أنني ظننتُها لا بد قد هبطت من السرير للتو.

- أعتذر على إيقاظك.

- لم تفعلي، كنتُ أعمل.

لاحظتُ وجود نول في الركن القصيّ، ومشاعل مضاءة، حوله هيلين ونساجتها. تذكرتُ قصةً موجعةً سمعتُها وأنا فتاة، مفادها أن الناس كانوا يعتقدون -أو على الأقل يتظاهرون بالاعتقاد- بأنها كلما قصَّت خيطًا من صوفها، مات رجل في أرض المعركة. تساءلتُ الآن عمّا إذا كانت تعرف بأن ذلك ما كان الناس يقولونه، وإن كان كذا، ما إذا أخافها ذلك بالقدر الذي ينبغي له أن يفعل. كل ميتة في الحرب كانت تهجع عند باب هيلين.

كانت تتفرّس فيَّ، دون أن تتنحى لتدخلني الغرفة، فأدركتُ أنها لم تتعرّفني، لذا أبعدتُ خماري عن وجهي:

- بريزيس.

غمرها ابتهاج فوريّ:

- حسنًا، انظري إلى حالك! (وأمسكَت يديّ) لقد صرتِ بطولي (وراحت تخطط الهواء بين رأسينا)، وفي غاية الحُسن. كنتُ أعرف أنك ستصيرين مليحةً.

- إذن، فقد كنتِ الوحيدة. الكل يواظب على إخباري كيف كنتُ فرخ البط القبيح!

هزت رأسها:

- العينان، وعظْمتا الوجنتَين؛ لستِ محتاجةً إلى أيّ شيء آخر.

قالت ذلك المرأة التي حظيَت بكل شيء آخر. شدتني ناحية كرسي، وجلسَت قبالتي. كان ثمة لطختان ورديّتان على خديها، وكانت عاطفيّة وودودة، ومتأثرة. لم يساورني أيّ شك بصدق ترحيبها.

«أنتِ لم تتغيري»، قصدتُ بذلك مديحًا، كما أظن، أو محض ملاحظة. لم يُثنِ أحد في واقع الأمر على مظهر هيلين قط، فما سيكون مغزى ذلك؟ لكن الكلمات تعلقت في الهواء، حاملةً نفَسًا اتهاميًّا إلى حد ما، وبلى، شعرتُ بأن دلالة ما على أسىً أو ندم.. علامة ظاهرية ما ستكون موضع ترحيب؛ ربما بعض الخطوط الباهتة حول العينين والفم؟ أكان هذا أمرًا جللًا لأطلبه؟ لكن لا.. لا يوجد شيء.

إن كان صوتي يحمل نبرة غضب، فبدا أن هيلين لم تلاحظها، إذ انشغلَت بمزج النبيذ وصبه في كؤوس، وقالت بينما ناولتني الكأس:

- الحمْل يلائمكِ. طفل أخيل؟

فأومأتُ برأسي.

- رجل عظيم، عظيم جدًا. دائمًا ما يذكر مينيلاوس محاسنه.

لم أعرف كيف أجيب عن هذا. من الواضح أن الماضي قد مُسِح تمامًا، ورجعَت هيلين إغريقيّة. لم تعُد هيلين الطرواديّة، فقد فُرِغَ من ذلك.. انتهى. عادت لتكون هيلين الأرجوسيّة، ملكة أرجوس، آلافًا كثيرة...

اجتثثتُ الفكرة قائلةً:

- كنتُ أتساءل عما إذا كنتِ تعرفين ما حلّ بأختي؟

تغيّرت هيئة هيلين على الفور:

- رأيتُها في ذلك اليوم، جاءت إلى المنزل، وشربنا كأسَي نبيذ، ونحن جالستان خارجًا في الفناء، في الظل. كانت سعيدة -على ما أعتقد-، أو بقدر سعادتها المعتاد. ومن ثم حدث ذاك الصياح العظيم، والصراخ في الشوارع. لم يسعني تصوُّر ما يجري، ذلك أن كل العبيد كانوا يجرون هنا وهناك، ويهذرون شيئًا عن حصان، فخرجنا لنرى. عرفتُ أنه فخ. أعرف أنه من الهيّن على المرء أن يكون حكيمًا بعد حدوث الحادثة، لكنني عرفتُ حقًا. شعرتُ أن شيئًا ما كان يعيش بداخله، ولا يمكن أن

يكون ذلك الشيء إلا رجالًا. كانت كساندرا هناك بالطبع، تصرخ ملء صوتها: «لا تدعوهم يدخلون!»، حتى قال لها بريام: «اخرسي، واذهبي إلى المنزل». رجعتُ بعد أن حلّ الظلام. مشيتُ كل الطريق، من حوله أغني أغانيَ إغريقية.

- أغانيَ حُب. قُصّت عليَّ هذه القصة، وإن كان ثمة شيء غريب فيها، فبعض الرجال لم يسمعها تغني البتة (أوتوميدون لم يسمعها، ولا بيروس)، وحتى أولئك الذين تذكروا غناءها لم يتمكنوا من الاتفاق على الأغنية، كان الأمر كما لو أن كل رجل سمع الأغنية التي تعنيه أكثر من غيرها.

- لمَ؟

- لمَ غنيتُ؟ أوه! لا أدري، أظنها كانت وسيلةً لطلب المساعدة.

- ألم تكوني تحاولين حملهم على إظهار أنفسهم؟

- لا (كانت تهز رأسها بشدة، كأنها تحاول طرد دبّور عِلق في شعرها!) أردتُ الذهاب إلى المنزل.

تهدّج صوتها مع نطقها الكلمة، ورفعَت يدها، ومست ركن عينها المثاليّة.

- هيلين، كان بوسعك المغادرة في أيّ وقت.

- حقًا؟ لا تملكين أدنى فكرة عن مدى صعوبة الأمر!

غابت أختي عن المحادثة بطريقة ما، لكن هذه هي هيلين. في تلك اللحظة، رأيتُ شيئًا لم أرَه قبلًا؛ لا يمكن تخيُل امرأة أكثر أنوثة من هيلين، ولا رجل أكثر ذكورة من أخيل، ومع ذلك، كانا متماثلَين في كل الجوانب المهمة. هما محور القصة دائمًا.

قلتُ بحزم:

- لانني.

- أوه! بلى. قيل لي -ولستُ أدري إن كان حقًا- إنها قد ألقَت نفسها في بئر. وكما يظهر، نسوة كثيرات فعَلْنَ ذلك. كانت ثمة مجموعة كاملة منهن اعتادَت اللقاء في معبد أرتميس، كلهن أرامل، كما تعلمين... فقد تعلقَت بالدين شديد التعلق بعد مقتل زوجها، ولا يوجد أطفال -كما

أظن-؛ لا شيء تبقى لأجله. أخشى أنها أشبه بفأرة معبد! (ونظرَت إليّ) مثلما قلتُ، لستُ متيقنة.

- حسنًا، أعتقد أن ذلك خير من سوق السبايا.

لأن ذلك كان الاحتمال الآخر الوحيد، فقد كانت أختي أكبر مني بكثير، والنساء الدانيات من نهاية سن الإنجاب يُرسَلن اعتياديًّا إلى سوق السبايا، وهذا مصير أخبث من مناحٍ عديدة، فيمكن أن تُشترَى النساء الأكبر سنًّا بأسعار بخسة، ويعملن حتى الموت، ولمَ لا؟! فبالإمكان شراء واحدة أخرى دائمًا. قررتُ في تلك اللحظة تصديق أن لانثي ميتة.

انتهى غرض زيارتي، لكنني تلبثتُ رغم ذلك. ظللنا صامتتَين لبرهة، لكنه لم يكن صمتًا محرجًا، بل ما أدهشني أن شيئًا من الألفة القديمة قد عاد.

قالت:

- لقد كنتِ شيئًا صغيرًا منعزلًا.

- لم أكُن في غاية السعادة.

- أدركتُ ذلك.

كانت ثمة مودة صادقة بيننا. يا لها من امرأة تعِسة، اضطُرت إلى البحث عن الصداقة أينما وسعها ذلك! كان صديقاها الحقيقيّان هما هيكتور وبريام، اللذين دائمًا ما عاملاها بلطف، ومثل كل النساء، عاشت جل حياتها في معزل عن الرجال، وكرهتها كل امرأة في طروادة (عدا أختي)، وهي كرهتهن. أوه! دائمًا ما كانت موَقّرة في العلن، لكن الخفاء قصة مختلفة، فقد كانت أندروماخي «العروس الطفلة»، وكساندرا «المرأة المخبولة»، وهيكوبا... بماذا نعتت هيكوبا؟ لا أتذكر، ربما صفحَت عنها. أمكنني تصوُّر أن هيكوبا كانت خَصمًا أغرّ داخل أسوار مهاجع النساء؛ خصمًا مفزعًا إلى درجة تمنع حتى هيلين من تحدّيه. انقطعنا إلى الصمت مرة أخرى، وتركنا مد الذاكرة يغمرنا.

أخيرًا، عند سماعي أصواتًا خارج الكوخ (كانت الحياة قد بدأت تدبّ في المجمع)، حمستُها قائلة:

- أيمكنني رؤية نِساجتكِ؟

فأشرق وجهها:

- أجل.. بالطبع.

وثبَت واقفةً، وأمسكَت بذراعي تشدني عبر الغرفة. لم تكُن نساجة هيلين تشبه نساجة غيرها، فمعظم النساء يلجأن إلى موضوعات شائعة في الثقافة، غالبًا ما تكون أزهارًا، وأوراقًا مُنمّطة، أو وقائع من حيوات الآلهة، لكن رسوم هيلين أصيلة أصالة محضة؛ كانت تنسج تأريخًا للحرب؛ تحكي القصة بالصوف والحرير مثلما يغنيها الشعراء بالكلمات والألحان. افترضتُ أنها ما زالت على ذلك، ومن غير ريب، كان ثمة حصان خشبيّ هائل يتشكل على نولها، وفي بطنه صفان طويلان من الأجنّة المنكفئة على نفسها؛ أطفال رجال رابضون في رحم.

وقفتُ مكاني أتمعن في ذلك، وربما كان صمتي ثناءً أعمق من أيّ مدح منطوق.

- أخالها لقصر مينيلاوس، صحيح؟

- ومن يدري؟

حملني شيء ما في صوتها على الالتفات لأنظر إليها، وكان ضوء المشاعل التي تعمل بجوارها قد هبط بملئه على وجهها، لكن لم يكن ذلك الكمال المألوف ما جذب انتباهي؛ بل عِقْد الكدمات الدائريّة حول حلقها. لاحظتُ تدرجات عديدة متفاوتة -لكوني خبيرة في هذه المسائل كما أخشى- من علامات حمراء لأصابع غاضبة، مرورًا بالأزرق والأسود إلى الأصفر، والأرجوانيّ المُبرقع العالق من إصابات قديمة، وكلها على عنقها وحلقها، لم يلمس وجهها، إنما كان يخنقها، وهو يضاجعها.. مثلما كنتم لتفعلوا.

عفويًا، راحت تُحكم لفّ الوشاح الأزرق حول عنقها، لكنها بعد ذلك تركَت يدها تهبط، وقابلت نظرتي بتلك النظرة الجرداء بالغة الثبات، التي رأيتُها مرات عديدة قبلًا، ومذ ذلك الحين. كانت تشعر بالخزي، وهي تعلم أن لا سبب لديها يدفعها إلى ذلك. كانت ترغب بإخفاء الكدمات، وفي الوقت نفسه تريدني أن أراها.

- أوه يا هيلين!

- حسنًا، كما تعلمين، يثمل و... إنها لائحة طويلة من الأسماء.

- أسماء؟

- الذين ماتوا؛ فطرقل، وأخيل، وأجاكس...

- لكن ذلك كان انتحارًا.

- لا يهم، هو يلقي باللوم عليَّ رغم ذلك. ابنا نسطور، ما اسمهما؟ أنتيلوكوس، وأجاممنون...

- أجاممنون؟ آخر مرة رأيتُه كان في ريعان الحياة.

- نعم، لكن علاقتهما تردّت أشد التردّي، يقول إنه قد خسر أخاه، وعلامَ شجارهما؟ عليَّ!

يا لهيلين البائسة؛ كل ذلك الحُسن، وكل ذلك البهاء، ولم تكن في الحقيقة إلا عظْمة عتيقة عفنة، تتقاتل عليها الكلاب البريّة!

- أوه! أعرف، إنه محض أسىً، وهو طبيعيّ، لكنه مستديم، وقاسٍ. وبالطبع، كل هذا خطئي. كل ما حدث، كل وفية خطئي أنا. وقتما أعادوني إليه بعد سقوط طروادة قال إنه سيقتلني، وفي بعض الأوقات أتمنى لو فعل، (وتشردَقت بضحكة) إلا أنني لا أتمنى ذلك، بالطبع.

- آسفة.

- عليَّ الحصول على بعض النباتات.

- ليس سُمًّا، صحيح؟

- لا، لن أنجو بذلك أبدًا، لكن ثمة بعض العقاقير التي تدب النسيان في رؤوس الناس؛ لا يشعرون حتى لو مات لهم حبيب، لا يبكون، ولا يندبون، ولا يغضبون. كل شيء... (ومسحَت بيدها من جانب إلى آخر) يسكن ويختفي فحسب.

- لستُ أدري من أين ستحصلين على شيء كهذا!

- ماذا عن ماخاون؟

- يمكنكِ سؤاله متى تشائين، وسيمنحكِ شربةً منوِّمةً بكل تأكيد.

- لا، لا طائل من ذلك، سيدرك الأمر في الحال. أريده صاحيًا، لكن هادئًا، (ثم ترددَت) ثمة أكوام من المواد في طروادة، في روضة الأعشاب هناك.

عرفتُ ما كانت تطلبه:

- تلك مسافة بعيدة. أظن ماخاون رهانك الأفضل.

لم ألُم هيلين على رغبتها بتخدير مينيلاوس، وعندما نظرتُ إليها، لم أرَ الأفّاكة المُخرِبة التي شاعت حولها القصص والثرثرات، بل رأيت امرأةً تحارب من أجل حياتها.

قالت:

- سيقتلني.

فهززتُ رأسي:

- لو أنه منتوٍ ذلك، لكان قد فعله بحلول الآن.

- إذن، ألن تساعديني؟

- سَلي ماخاون.

كانت هذه خاتمة القصة، فُعِلت كل الفعال، وقيلت كل الأقوال، وفي النهاية لم يبقَ سوى التحديق: راحت تحدق واحدتنا إلى الأخرى وحسب، ومن ثم لمسَت ذراعي بخفة، ومشَت بي إلى الباب. وقتما فتحَته، كشف الضوء عن كامل التكدُّم، الذي امتد حتى بلغ ثدييها، فأحسستُ أنها رغبت بتركي، وتلك الصورة في رأسي، وشعرتُ بنفسي أنفر منها. قالت، وهي توصد الباب حتى لم يعُد يتجاوز الشق: «لا يمكنكِ لومي على محاولة النجاة، فممّا سمعتُ: أنتِ نفسكِ ماهرة بذلك أيّما مهارة».

6

في تلك الليلة، تناولتُ طعامي بمفردي مرةً أخرى، وبعد العشاء، ذهبتُ مباشرةً إلى غرفتي الخاصة بدلًا من السهر، انتظارًا لألكيموس. كانت أصغر غرفة في الكوخ بلا جدال؛ لا تتسع إلا لسرير ومهد مكتسب مؤخرًا من منهوبات طروادة، منحوت نحتًا بالغ الأناقة، ومزركش بالعاج والذهب ببذاخة تشي بأنه لا بد كان ملكًا لعائلة أرستقراطيّة أو ملكيّة. وأنا مستلقية على السرير، رحتُ أحدِّق إلى عمدان السقف، بينما سكن الجنين في جوفي -الذي لم يهدأ طيلة اليوم- إلى صيغته الخاصة من النوم.

وأنا متسطحة على تلك الشاكلة، لم أُضطر إلى رؤية المهد. كان ألكيموس قد أهداني إياه بكل افتخار، وعرفتُ أنني لن أقدر على التخلص منه، أو حتى اقتراح نقله إلى واحد من أكواخ التخزين، لكني احتقرتُه. لم يسعني الكف عن التفكير بابن أندروماخي؛ الصبي الصغير الذي قذفه بيروس إلى حتفه من فوق متاريس طروادة، ولم يكن عندي سبب منطقيّ لأفترض أن هذا مهده، لكنني عرفتُ ذلك، وشعرتُ بشبحه الضئيل في الغرفة.

شق عليَّ النوم، وتلك الفكرة تحوّم في رأسي، لكنني تمكنتُ من الاستسلام للوسن أخيرًا، وبعد ما بدا بضع دقائق فقط -رغم أنها ربما كانت ساعات- خضّني دق على الباب موقِظًا إياي، شعرتُ بالدوار لنهوضي أسرع مما ينبغي، لكنني تمكنتُ من الوصول عبر التخبط على طول الممر. كان الدق قد توقف، لكنه بدأ مجددًا بعد ذلك.

«قادمة!».

وأنا أنظر في الظلمة، رأيتُ واحدةً من الفتيات واقفةً هناك، وإن لم أقدر على تمييزها حتى دنَت خطوة.

- أمينا، ما الخطب؟

- لقد أرسل في طلب أندروماخي.

لم تكن محتاجةً إلى إضافة شيء. جلبتُ عباءتي، وخطوتُ متجاوزةً العتبة، فندّى رذاذ مطر بشرتي وشعري على الفور. تدرجنا على طول السور مترنحتَين بعض الشيء في الفجوة بين الكوخين، حيث كانت الريح تعصف بكامل عزمها قبالة البحر، ثم نقرَت أمينا على الباب، فأدخلتنا واحدة من الفتيات. لم أعرف أيّهن حق المعرفة.. ثلاثًا أو أربعًا بالاسم فقط، والبقية لم أعرف حتى أسماءهن، ولم ينفع أن العديد منهن لا يزلن بكماوات. كُنّ قد جلبن مفارش نومهن من تحت الكوخ، حيث يُبقَى عليها في النهار، ورتبْنَها في صفوف عبر الغرفة، وكان لكل فتاة مشعل أسل صغير بجوار مخدتها، وحين استدرن لينظرن إليّ، أضاءت ألسنة اللهب الباهتة وجوههن من أسفل، فبدَون وكأنهن أطياف ذواتهن. قالت فتاة تُدعى هيلي:

- تأخرتِ كثيرًا، لقد غادرَت.

بنبرة ناقمة وشرِسة، كطفلة فشلَت أمها بحمايتها.

قلتُ:

- لا بأس، أعرف أين أجدها.

وكنتُ أعرف. لا بد أني صادفتُ نصف دزينة من ذواتي الماضية في المسافة القصيرة بين كوخ النساء والردهة.

عند دنوّي، سمعتُ غناءً، ودق قبضات على الطاولات، والضحكات الناهقة لفتية يسرفون في الشرب ليحتفلوا، أو لينسوا، وكان صوت بيروس أعلى من البقية. مشيتُ على طول الشرفة إلى المدخل الجانبيّ، الذي يؤدي إلى غرفته الخاصة مباشرةً. لم يكن ثمة الكثير مما يقي هناك، فدفعَتني الريح إلى الغرفة حالما فتحتُ الباب. نظرتُ حولي، فرأيتُ نارًا تضطرم، وكرسيَين متواجهَين أمام الموقد، رغم أن الحطب الأخضر أرسل دخانًا كثيفًا أحرق عينيّ. كان الكرسي المقابل لي كرسي فطرقل، وكان بوسعي رؤيته -على مثل عادته-، وزوج من الكلاب نائمان على قدميه؛ كلبا صيد، ينتفضان ويزحران، وهما يطاردان أرانب تخيُليّة في حقول الأحلام. عوى واحد منهما، وخدشَت براثنه

الأرضَ، فضحك فطرقل، ورفع الرجل في الكرسي الآخر -الذي لم أقدر على رؤية وجهه- نظره عن قيثارته، وضحك أيضًا. ولوهلة، نسيتُ أن أندروماخي تنتظر في الغرفة الصغيرة، وأن بيروس يشرب بإفراط في الردهة، ورحتُ أحدِّق إلى الكرسيَين الفارغَين، اللذين لم يكونا فارغَين البتة في ذهني. يا لقوة الموتى!

صدحت صيحة أخرى من الردهة، ومزيد من الغناء، الذي صار أكثر صخبًا ومصحوبًا بدَوس أقدام.

«ثبِّتوه، أيها المحاربون الأرجوسيّون! ثبِّتوه أيها الزعماء الأرجوسيّون! أيها الزعماء! الزعماء! الزعماء! الزعماء!».

ثبِّتوه؟ مما كنتُ قد شهدتُه من بيروس، سيكون من الأفضل تسنيده حتى يقف.

عرفتُ أن أندروماخي ستكون في الغرفة التي تُفتح على هذه، التي اعتدتُ تسميتها بالخزانة، فنقرتُ على الباب: «أندروماخي؟ إنها أنا، بريزيس». وعندما دفعتُ الباب، رأيتُ وجهها شاحبًا منفصلًا عن جسدها يطفو في الظلمة كانعكاس القمر على الماء.

- كيف عرفتِ أنني هنا؟

- أمينا أخبرتني، (أدركتُ، وأنا أنطق الكلمات أنني أجبتُ السؤال الخاطئ) أوه! لا تقلقي، أنا خبيرة بهذه الغرفة أيّما خبرة.

في أولى ليلاتي في المعسكر، قدَّم لي فطرقل كأسًا من النبيذ، وعجزتُ عن فهم سبب قيام رجل نافذ مثله، كبير معاوني أخيل، على خدمة أَمَة. لازمني ذلك الفعل الطيب البسيط مذ ذلك الوقت، فاستدرتُ إلى الطاولة على يسار الباب، ملأتُ اثنتين من أكبر الكؤوس التي أمكنني إيجادها، وقدمتُ واحدةً لها.

بدَت قلقة:

- أترين أنه مسموح لنا؟

- لا أرى سببًا يمنع، فالنبيذ نبيذ بريام، ولا أظنه كان ليضنّ علينا بكأس!

في حيرة من أمرها، رفعَت كأسها إلى شفتيها.

- هل أكلتِ شيئًا؟

هزَت رأسها، فرجعتُ إلى الغرفة الأخرى، حملتُ سلةً من الجبن والخبز، ووضعتُها بجوارها. لم أتوقع منها أن تأكل، لكن على الأقل صار بمقدورها ذلك إذا ما شاءت، ثم حشرتُ نفسي على السرير بجانبها، وجلسنا صامتتَين لبرهة، ننصت إلى الغناء في الردهة.

- ستكونين على ما يرام. (بدا ذلك واهيًا، لكن أيّ شيء يقال في هذي الحال سيبدو واهيًا) سينتهي الأمر سريعًا، ثم تعودين إلى سريرك.

- أتعرفين أنه قتل طفلي؟

في بعض الأوقات ليس هنالك ما يُقال، فلففتُ ذراعي حول كتفيها. كانت بالغة النحل، أشبه بطائر، وكدتُ أشعر بقلبها يخفق عبر أضلاعها. لم تستجِب في البداية؛ كل عضلاتها مشدودة، لكنها بعد ذلك انثنَت على جنبي فجأةً، وأرخَت رأسها على حنية عنقي، فأسندتُ شفتيّ على شعرها، وجلسنا هكذا وقتًا طويلًا. استقرت يدي الحرّة على غطاء السرير، وكان نقش الأوراق والورود مألوفًا إلى درجة أنني قدرتُ على تعقبه في ذاكرتي دون الحاجة إلى رؤيته. فكرتُ بصديقتي إيفيس، التي غالبًا ما انتظرَت معي في هذه الغرفة. بعد أول ليلة قضيتُها في سرير أخيل، كانت قد جهزَت حمامًا ساخنًا ينتظرني وقتما عدتُ إلى كوخ النساء؛ ذلك أنها فهمَت كيف تحتاجين إلى الشعور بالنظافة، إلى غمس نفسكِ في ذلك الدفء الذي يستر كل شيء. قررتُ هناك وآنذاك أن حمامًا ساخنًا سينتظر أندروماخي حينما يتركها تذهب.

خمد الصراخ في الردهة إلى قعقعة خفيضة تتخللها موجات من الضحك. أوه! لقد كان أولئك الإغريق معجبين بأنفسهم، وهم يحتفلون بخراب طروادة. وببطونهم المملوءة ثيرانًا منهوبة، وثمالتهم بالنبيذ المنهوب، وأصواتهم الطاغية على هدير الريح، كان من السهل نسيان أنهم محصورون على الشاطئ بلا أمل في تعويم سفنهم السود، لكن الأمسيّة أخذَت تقترب من خاتمتها، وستصفر الريح حول أكواخهم طيلة الليل. شرعوا فجأةً بغناء الأغنية الأخيرة، كنتُ أعرف كل كلمة فيها، فقد سمعتها تُغنَّى مرات كثيرة جلستُ فيها منتظرةً في هذه الغرفة. هي أغنية عن الصداقة، عن أصدقاء يفترقون في آخر أمسيّة كيّسة، احتفالًا بالدفء والحياة، لكن تخالطها الكآبة

أيضًا، وعندما تتلاشى النغمات الأخيرة إلى الصمت، يُلقمون المشاعل ثُفل نبيذهم في إراقة أخيرة للآلهة.

اعتصرتُ كتف أندروماخي: «عليَّ الذهاب». أومأت برأسها، مقويةً نفسها، عارفةً أنه عندما يُفتَح الباب من جديد، سيدخل بيروس. في تلك اللحظة، اختفى كل الخدر الواقي الذي كنتُ قد نمّيتُه على مدى الأشهر الأخيرة، ورجعتُ إلى هذه الغرفة، جالسةً حيث كانت جالسة، منتظرةً أخيل، ومتجشمةً مرة أخرى كل الذعر الذي شعرتُه وقتما فُتِح الباب، ومحَق ظله الهائل الضوء.

7

كان الكوخ خاليًا وقتما عدتُ، ولم أملك أدنى فكرة عن مكان ألكيموس، أو ما إذا كان سيعود إلى المنزل، على الأغلب: لا. لم أعرف أين كان ينام عندما يقضي ليلته خارجًا، ولم أتمتع بحق السؤال. بالطبع لديه نسوة أخريات (كل الرجال لديهم)، لكنني لم أعرف أيّهن على وجه التخصيص.

تأخر الوقت على البدء في ندف الصوف، ومع ذلك عرفتُ أنني سأعجز عن النوم، فرحتُ أذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بدلًا من ذلك، بينما تزبد الذكريات التي صرتُ بارعةً في قمعها تحت السطح مباشرة، ويغلي الطفل داخلي. كان قضاء الوقت مع أندروماخي والفتيات يُجبرني على عَيش أيامي الأولى في المعسكر مجددًا، وعندما أرجع بذاكرتي إلى ذاك الوقت، أظن أنني لا بد كنتُ شبه معتوهة. أوه! كنتُ مما يبدو للناظر طبيعيّة وهادئة ومبتسمة -مبتسمة على الدوام-، لكنني كنتُ أنقّل ذراعيَّ وساقيَّ في الأرجاء بإحساس لا يجاوِز إحساس دمية. مرت أيام بطولها عجزتُ في أمسيّاتها عن تذكُر أيّ من أحداثها، باستثناء.. لا.. ذلك ليس صحيحًا تمامًا. تذكرتُ -وما زلتُ أتذكر- أفعال الإحسان العمليّ البسيطة الجمّة التي تلقيتُها. لم يكن بوسعي سد دين إيفيس، لكن بوسعي نقل إحسانها، وستحظى أندروماخي بحمّامها.

بيدَ أن هذا فيما يخص الصباح، ولا يزال عليَّ اجتياز الليل. ربما يمكنني اجتراع كأس صغيرة من الشربة المنوِّمة التي يُبقيها ألكيموس بجوار سريره، وإن كنتُ منتبهةً إلى بعض آثارها، فقد كانت تعروه الكوابيس؛ كوابيس من الطراز الذي لا ينتهي بفتح العينين. كنتُ أسمعه يئنّ في نومه أحيانًا، ومع ذلك، قلتُ لنفسي: «إن بضع رشفات لن تضر». ازدردتُها ببلعة واحدة، ملوّية فمي لقاء الطعم المرّ، ثم مضيتُ إلى الغرفة الصغيرة في نهاية الممر، لأدرك

وأنا أفعل ذلك أنها المثيل التام للخزانة في مسكن أخيل الشخصي؛ الغرفة التي تجلس النساء فيها منتظرات استدعاءهن. تساءلتُ: «من انتظر ألكيموس هنا في السنوات السابقة لهذا الزواج الجبريّ؟».

كان سريري قاسيًا، وحتى في المشية القصيرة عودةً من ردهة بيروس دكَّ البردُ عظامي، فقد ولّت ليلات الصيف القائظة منذ أمد بعيد، وأخذ العام ينقلب إلى الظلام. أغمضتُ عينيّ، وتركتُهما مغمضتَين، رغم أني بقيتُ طوال الوقت مدركةً المهدَ الخاوي عند رِجل سريري.

«أتعرفين أنه قتل طفلي؟».. كنتُ أعرف، وإن لم أكتشف ذلك إلا مؤخرًا. في البداية، افترضتُ أن أوديسيوس هو من قتل ابن أندروماخي، ذلك ببساطة أني سمعتُه يجادل بحميّة محتدمة أن على كل ذَكر طرواديّ أن يموت، بما فيهم الأجنّة في الأرحام. أصرّ قائلًا: «كلهم»، لكنه أخص نسل بريام بالذِكر، لا ينبغي أن يتبقى أيّ حيٍّ يتمتع بأيّ أحقيّة بالعرش الطرواديّ، أيّ شخص قد يلعب دور بؤرة للمقاومة والانتقام. اكتشفتُ الحقيقة بالصدفة لدى سماعي خلسةً محادثة بين ألكيموس، وواحد من المقاتلين الآخرين، إذ اختير بيروس لقتل الطفل مكافأةً على دوره في سقوط طروادة، ودارت مناقبه على الأفواه من غير أن يخالط الشكُ الحكاية، حتى إني سمعتُ شائعة تقول إنه قد قتل بريام ضربًا حتى الموت بجثة حفيده الرضيع. لم يكن هذا حقيقةً، أو على الأقل أمِلتُ ذلك، رغم أنه قد كذب بشأن موت بريام، وهذا ما كنتُ واثقة منه. مقدار ما حدث من الفظائع داخل المدينة الصريعة يجعل استبعاد أيّ شيء أمرًا شاقًا.

ركل الطفل بداخلي مجددًا، وأرخيتُ أصابعي المنشورة على بطني، لم أعرف ما يُفترَض بالنساء الحوامل أن يشعُرن، ولم يكن لديّ مَن أسأله سوى ريتسا، التي دائمًا ما أجابَت بالبهجة العفويّة لقابلة خبيرة. إذن، ما شعوري تجاه هذا الطفل الذي قتل أبوه زوجي وإخوتي، وأحرَق مدينتي عن بَكرة أبيها؟ شعرتُ أنه ليس طفلي، وفي بعض الأوقات، بدا أقرب إلى اجتياح طُفيليّ من حَمْل؛ اجتياح يستولي عليَّ، يستغلني لأهدافه الشخصية، التي هي أهدافهم هم؛ اقتلوا كل الرجال والصبية، أحبِلوا النساء، فينتهي وجود الطرواديّين. لم تكُن نيتهم قتل الرجال منفردين فحسب، بل أرادوا طمس شعب بأكمله.

لم أختَر هذا الحمل، ولم أُرِده، وعرفتُ رغم ذلك أنه كان خلاصي، فدونه كنتُ لأُعطَى مجانًا، كنتُ لأُمنَحَ هدية مرتبة أولى في ألعاب جنازة أخيل. بدلًا من ذلك، حظيتُ بزيجة وأمان، بل وببعض الاحترام. كنتُ قد لاحظتُ تغيرًا واضحًا حالما بدأت بوادر الحمل بالظهور؛ منذ بضعة أيام فقط، وضع رَجل -بالكاد أعرفه- يده على معدتي، لا بطريقة جنسيّة افتراسيّة، بل إشارة إلى ولائه لنسل أخيل. كنتُ الصندوق الذي يضم جواهر التاج، أو على الأقل هذا ما بدا أن المرميدنيّين يرونني عليه، أما باعتباري شخصًا، فلم أؤخَذ في الحسبان البتة، وإذا ما فكروا بمشاعري قط -وكنتُ واثقة تمامًا أنهم لم يفعلوا-، فعلى الأرجح أنهم افترضوا أنني أشع فخارًا لقاء فكرة حَمْل ابن أخيل، فما الذي قد ترغب به امرأة أكثر من حمل طفل المقاتل الأعظم في عصره، وربما في كل العصور؟!

رحتُ أنصتُ إلى أنين الريح. في الليل، كان الهدير الذي أمضى النهار يُرهب ويُهدد يتلاشى أحيانًا إلى نشيج لا يتعزى عنه، مثل طفل منبوذ يتوسل أن يُفتَح له الباب. وبحلول الآن، صرتُ أعرف كل عيوب الكوخ؛ الفجوة أسفل الباب التي تسمح بدخول الرمل مع الريح، فتظل الأرضيّات مغبّرةً دائمًا مهما تُكنَس، والحاجة إلى وضع الفوانيس بحذر بعيدًا عن التيارات، لأنها إن صادف وطوّحَتها الريح، فستستمر في الاشتعال، أما الشموع فأكثر أمانًا، ذلك أنها يُرجَّح أن تنطفئ بفعل السقطة. كان يسُود إحساس مستمر بأن الريح تنفث ظلمةً عبر كل الشقوق. كنتُ أظن أنني بعد هذا الزمن بتُّ أعرف كل الحيَل التي في جعبة العاصفة، لكن آنذاك، وأنا مستلقية مغمضة عينيَّ، وقد بدأتُ أغط في النوم، سمعتُ صوتًا جديدًا؛ صوتَ طرْق لم ألاحظه قبلًا. عندما جرجرتُ نفسي إلى حافة الصحو، فتحتُ عينيَّ، ورأيتُ أن المهد قد أخِذَ بالتأرجح. لم تمسَسْه يد بشرية، ومع ذلك كان يصرّ مبتعدًا.. يتحرك.. يزحف على مهل عبر الأرضية. راح دماغي يخمش باحثًا عن تفسير، وما إن نفضتُ غشاوة النوم، حتى صار الأمر واضحًا بالقدر الكافي، إذ ثمة فجوة في الجدار على مستوى الأرض (ويمكن للداخل إلى الغرفة الشعور بتيار حول كاحلَيه)، وكون الأرض منحدرة، ما بين الجدار الخارجي والباب؛ كان سهلًا في الواقع على المهد أن يتحرك. ليس في ذلك ما هو خارق للطبيعة ولو قليلًا، لكن قفاي

نِملَ رغم هذا. راقبتُ المهد يتأرجح، وساورني شعور خانق بالرعب، وطال الوقت قبل أن أقدر على العودة إلى النوم.

مشيتُ في الصباح الباكر، وأنا لا أزال مخدّرة جراء الشربة المنوِّمة، إلى كوخ النساء منتويةً انتظار أندروماخي، لأعرف من هيلي التي فتحَت الباب أنها قد عادت بالفعل: «لم تقضِ هناك إلا بضع ساعات». كان ذلك غريبًا بعض الشيء، فعادةً ما يُتوَقع من الفتاة قضاء الليلة هناك إذا ما استُدعيَت، لكن ذلك كان دأب أخيل، ولا خبرة لديّ في بيروس. مشيتُ سويًا عبر الممر إلى غرفة أندروماخي، التي كانت بشكلها وحجمها تحاكي غرفتي بالضبط؛ وجدتُها منطويةً على نفسها تحت بطانيّة، مخضلةً بالدموع وصامتة، ومع هذا استدارت وقتما جلستُ على حافة سريرها، وراحَت تمسح عينيها بطرف يدها.

قالت: «حسنًا، لقد انقضى ذلك، وإني لمسرورة بانتهائه».

قدّمتُ لها منديلًا من الكتان لتنفّ فيه، فخرجَت من بين طياته تتنشّق دامعةً، ورديّة العينين، لكن أروَق مما توقعتُ بكثير، ثم هزت رأسها مشيرةً إلى الباب: «إنهن يواظبن على سؤالي كيف كان الأمر!».

وهذا طبيعيّ، فكلهن لا بد يفكرن في أن دورهن قريب. تذكرتُ كم كان مهمًا لي أن إيفيس لم تطرح أسئلة قط! فقُلت: «انظري، لمَ لا ترجعين معي؟ يمكنك أن تحظَي بحمّام، ثمة فيض من الماء الساخن...».

نقّلت نظرها بعجز في الغرفة، بدا مجرد النهوض من السرير مهمةً أكثر مشقةً من أن تفكر بها، لكنها رغم ذلك أرجحَت ساقيها عن طرف السرير، ووقفَت. كان شعرها متسخًا، وغلالتها مبقعة. سبقتُها عائدةً إلى الكوخ، وأمرتُ بتجهيز حمّام ساخن، ثم رتبتُ الطعام على الطاولة؛ شرائح لحم مبرّدة من عشاء الليلة الماضية، وخبزًا ساخنًا، ومشمشًا ناضجًا، وجبنةً بيضاء لينةً، ولم أفترض ولو للحظة أنها ستكون قادرةً على الأكل، لكنها فاجأتني. لا يمكنني القول إنها أكلت بحماسة، لكنني لستُ واثقة أيضًا من أنها قد فعلَت قبلًا قط. وحين شربت كأسًا من النبيذ، عاد بعض اللون إلى خدّيها.

ما إن فرغَت من طعامها حتى كان الحمّام جاهزًا، فأخذتُها إلى مؤخرة الكوخ، حيث يمكنها الاستحمام في خصوصيّة. بخار يتصاعد من الماء،

أعشاب طيّبة الرائحة تطفو على سطحه، ومناشف بيضاء تتدفأ فوق مِشجَب[1] بجوار الموقد. وأشرق وجهها بعض الشيء بالفعل إزاء المشهد. وقتما خلعَت غلالتها، رأيتُ أنها تلبس خاتمًا معلقًا بسلسلة فضيّة حول عنقها، وتساءلتُ: كيف بحق الجحيم تمكنَت من التمسُّك به؟! فبالعادة تؤخَذ مجوهرات المرأة منها وقتما تؤسَر، وقد وصل العديد من الفتيات إلى المجمع بشحمات أذن مشقوقة، حيث انتُزِعت أقراطهن مَزْقًا. أمكنني تبيُن أنه خاتم إبهام رجل، لكنني لم أشأ النظر من كثب أكثر مما ينبغي، فهي في حاجة إلى الخصوصيّة أكثر من أيّ شيء آخر. كنتُ أعرف كم تشعر بالعُري؛ كل بوصة من جسدها عارية، كما لو أنها سُلِخت!

أدرتُ وجهي، ورحتُ أجهز المناشف، وعندما عدتُ بنظري إليها، كانت مستلقيةً بأطراف منشورة في حوض الاستحمام، عيناها مغمضتان، وظلال السُحب المارة تتحرك بلين فوق وجهها. تركتُها تأخذ ما شاءت من وقت، وعدتُ إلى الكوخ لأختار لها واحدةً من غلالاتي لتلبسها، ومرت عشرون دقيقة كاملة قبل أن أسمعها تناديني. خرجَت من الحمّام إلى حضن المناشف الدافئة، ثم أعنتُها على لبس الغلالة النظيفة، وجلسنا على الدرجة، بينما مشطتُ شعرها وجدلتُه. ثمة ما هو مُطمئِن في تمشيط الشعر لكلا الشخصين المنخرطَين فيه. ظللتُ أحاول تذكُرَها على حالها الذي كانت عليه وقتما كنتُ في طروادة، لم أكُن قد جاوزتُ الثانية عشرة، لذا كنتُ أظنها امرأة ناضجة، ومع هذا، بالنظر إلى الماضي، أدركتُ أنها لا بد كانت صغيرة جدًا؛ ذلك أنها لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة وقتما تزوجَت هيكتور، وهذا يُعتبر سنًّا صغيرةً بحكم العادة، لا سيما وكل الحكايات تتفق على أنها كانت ابنة وحيدة محبوبة حبًا جمًا، لكن أباها أراد تزويجها زيجةً آمنةً، لأنه كان يشك -وصدق شكُّه- بأن المدينة هي التالية على لائحة أهداف أخيل. أمكنني تصوُّر كم كانت شاقة الأيام الأولى من زواجها! فلانهماكه بالاقتتال، أجّل هيكتور الزواج حتى قطع شوطًا لا بأس به من ثلاثينيّاته، وبحلول ذلك الوقت كان قد حظِيَ بعدة محظيّات، فكان على الأقل بعض الأطفال اللاهين حول مائدة الطعام.. أطفاله -لكن ذلك مُتوقَّع ليس إلا-، وزوجة شابة تجلب البؤس على نفسها بسبب محظيّات زوجها..

(1) المِشجَب: ما تُعَلّقُ عليه الثِّياب، ونحوها.

زوجة حمقاء! لا، كانت المشكلة الحقيقيّة هيلين، إذ كان هيكتور مبهورًا بها، رغم كونه رجلًا تمنعه استقامته البالغة من التعبير عن افتتانه بزوجة أخيه قولًا أو فعلًا. أما عن هيلين، فكانت تغازله مغازلة شائنة، لا تكاد تكلف نفسها فيها عناء سَتر شعورها بأنها قد تزوجت الأخ الخاطئ، دون أن تعير أيّ اهتمام لأندروماخي.. «العروس الطفلة». كانت كل النساء تتلاشى في حضور هيلين، لكن أندروماخي (النحيلة، مسطّحة الصدر، والخجولة إلى حد مؤلم) كانت تتلاشى أكثر من معظمهن. دائمًا ما عامَل هيكتور زوجته بفائق الاحترام في المناسبات النادرة، حيث أُلزِما على الظهور معًا على الملأ، وإذا ما حدث وخرجا في مثل هذه المناسبات، كانت عيناه تهيم ناحية هيلين في أغلب الوقت... حسنًا، كان ذلك ينطبق على سائر الرجال في الغرفة.

كانت هيلين مدركةً التأثير الذي تتمتع به خير إدراك، وأذكر إحدى الأمسيّات بالتحديد وقتما -ساخرةً كما العادة- أثنَت على الطرواديّين لشدة تزمُّتِهم في مرافقة الفتيات العازبات، فأصل هيلين من أرجوس، حيث يختلف سير الأمور؛ قالت: «أتعلمون، عندما كنتُ فتاة ناضجة يانعة تصلح للزواج، كنتُ لا أزال أتعرى حتى الخصر، وأسابق إخوتي على طول الشاطئ؟ أعني... (وحدّقت ببراءة حول المائدة) أيمكنكم تصوّر ذلك؟». أوه! يمكنهم، حتمًا يمكنهم. نظر واحد أو اثنان من مستشاري بريام الأكبر سنًّا، وكأن تصوُّر ذلك قد يكون آخر ما يفعلانه، وغمغمت النساء، وتبادلن نظرات الاستنكار، بينما اضطرم وجه بريام في رأس المائدة تسليًا، ولاقى نظرة هيلين، ثم هز رأسه رويدًا.

والآن، بعدما فرغتُ من جَدْل شعر أندروماخي، عجزتُ عن قمع الابتسامة إزاء الذكرى، فبصرف النظر عن كل شيء، لم أقدر على كره هيلين قط، ما يضعني ضمن أقليّة، قوامها شخص واحد حرفيًّا نسبةً إلى نسوة طروادة. عقدتُ شريطةً على الضفيرة الأخيرة، وفتحَت أندروماخي (التي كانت قد انجرفَت إلى حالة تكاد تشبه النشوة) عينيها، ونظرَت حولها.

قالت:

- أشكركِ، لا أظن أنني كنتُ لأتمكن من التحمّل دقيقة إضافيّة في ذلك المكان. إنهن يطرحن السؤال تلو الآخر بلا توقف، وأنا لا أرغب بالحديث عن الأمر.

قلتُ:

- بالطبع لا.

وجلبتُ إبريق نبيذ، وضعتُه على الأرض بجوار أقدامنا. رحنا نتكلم عن هذا وذاك، لكن شيئًا لم يأسر انتباهها طويلًا، وبعد فينة بدأت بإخباري عن بيروس، كما أرادَت أن تفعل منذ وصلَت:

- كان سكران للغاية، لم أرَ في حياتي شخصًا على هذه الدرجة من السُكْر قط. ظل يُسقِط الأغراض، ويقول شيئًا، ثم ينسى أنه قاله، ويقوله مجددًا. أعني.. هيكتور كان يشرب. حسنًا، كلهم يفعلون، أليس كذلك؟ لكن لم يشبه شربه هذا في شيء. (صمتَت لبرهة، وراحت تحدِّق إلى العشب المتناثر حول قدميها) أظن أن ذلك كان نافعًا بطريقة ما، ذلك لمعرفتي أنه لن يتذكر شيئًا، وهذا يعني أنني لستُ مضطرةً إلى تذكُّر شيء أيضًا. بلى، أعرف ذلك، مخبولة، خلاصة قولي هي إن هذا ما شعرتُ به. (رفعَت وجهها) ظننتُ وقتما كنتُ جالسةً في تلك الغرفة -كما تعلمين- بعد أن غادرتِ؛ أنه سيدخل و... ينقضُّ فحسب، لكن لم يكن الأمر كذا البتة، فقد أقعدني، وراح... يحدِّق إليَّ فقط. عجزتُ عن التنفس.. عجزتُ عن النطق، وبعد مدة صب لي كأسًا من النبيذ (أراق معظمه)، ثم وثب واقفًا، وجلب صندوقًا عن الطاولة، قلَبه مُفرِغًا كل ما فيه، وقال: «هلمّي، اختاري»، كانت مجوهرات في أغلبها قلائد وبروشات من طروادة، كما أظن، ولو أنني كنتُ صافية الذهن، لتعرّفتُ إلى الكثير منها. ظل يقول: «تعالي، واختاري»، وكنتُ أعرف أن الشيء الوحيد الذي لم أُرِده هو أن أنتقي شيئًا أتزين به من أجله، لذا انتقيتُ هذا.

مدّت يدها باحثةً تحت عنق غلالتها، وخرجت بالخاتم الذي لاحظتُه في وقت سابق. كان ذهبيًا، وبه حجر أخضر كبير، ليس زمردًا، بل أخضر حليبيًّا باهتًا، بلون بحر رائق. نظرتُ إليه، وبزغَت يد رجل تحمل عملة فضيّة براقة في كفها من ظلمة الماضي.

- خاتم بريام؟

- أجل، لم أُرِده أن يحظى به.

- لكن ألم يسَلكِ عن سبب رغبتكِ في خاتم رجل؟ لن يمكنك لبسه أبدًا!

- إنني ألبسه بالفعل. لا، لم يسَل، أظنه كان يحاول ألا يتقيأ، (ثم ترددَت) ما زلتُ لا أعرف إذا ما... فهمتِني؟ ظل مضطرًا إلى... (وبصورة مزعجة، حاكَت حركة هز بقبضتها المضمومة)، واستمر الأمر وطال، (وأبدَت ضحكة مكبوتة طفيفة)، ثم ألقاني خارجًا.

- لا بد أن تعرفي إذا ما ألقاه بداخلك.

للحظة، ظننتُها لن تجيب، ثم قالت:

- نعم، نعم، لقد فعل.

شحُب لونها مجددًا، وبدا أن الحياة تنسل منها قطرة قطرة، وأنا أتفرّج. جلسنا صامتتَين لبعض الوقت، ننصت إلى الريح، ومن ثم، من بين كل الأصوات الأخرى الأكثر ألفة، سمعتُ تحاتّ الهزّازات على أرضيّة خشبيّة. أمِلتُ ألا تسمعه، لكنها فعلَت، ومن فورها، وثبَت واقفةً، وراحَت تتعثر عبر الباب، كما لو أنها سمعَت طفلها يبكي في منتصف الليل، وحالما دخَلت الكوخ، صار الصوت أعلى، فبدأت بالركض؛ جاريتُها في لحظة وصولها إلى باب غرفة نومي، ورأيتُ من فوق كتفها المهد يهتز. سقطَت على ركبتيها بجواره، وراحَت تحدِّق إلى الخواء تحت واقيته.

قلتُ متلعثمةً.. مستقتلةً لمنعها من التألُّم أكثر مما كانت عليه من ألم بالفعل:

- سأردّه، لا يمكنني فعلها الآن، لأن ألكيموس منحني إياه، لكن لا تقلقي، حالما يسعني ذلك، سأردّه...

كانت يدها القابضة بإحكام على جانب المهد قد أوقفَت الاهتزاز، ووقفنا نتنفس في السكون المباغت، ثم رفعَت نظرها إليَّ، وقالت:

- لماذا سأرغب باستعادته؟ سأضطر إلى وضع طفله فيه وحسب، (وانزلقَت نظرتها من وجهي إلى بطني) كيف يُفترض بنا أن نحب أطفالهم؟!

كانت تحدِّق إليَّ، تقريبًا كما لو أنها تظن أنني قد أمتلك إجابة، ولشعوري بالغثيان، وضعتُ يدي على فمي، وأدرتُ وجهي.

8

يؤلمه حتى تقليب رأسه على الوسادة. فمه جاف؛ لا بد أنه قد قضى الليل كله يشخر مثل سمكة، ولو أنها مقولة غبيّة لعينة، فمَن سمع سمكةً تشخر؟ بعينين مُحكمتَي الإغماض، يبسط يديه، ويجد أن الجانب الآخر خاوٍ. لقد غادرَت إذن، متى غادرَت؟ يتذكر بغباشة ركْله إياها من السرير، لا، لا ركل، لم يكن ليفعل ذلك، فهي أرملة هيكتور رغم كل شيء، جائزة مهمة، مثل خوذته وترسه، غير أنه لم يكن يحوز الترس. كان على أوتوميدون أن يوقف... يفتح عينيه الآن، لكن الضوء يحرقهما، وكأنه حمض، فأغلقهما مجددًا. ثمة ما يضايقه... الخاتم، أوه! اللعنة، نعم، الخاتم. لقد قدم لها القلائد والأساور والبروشات، واختارت خاتم رَجل، لمَ؟ ألأنه خاتم هيكتور؟ ألأنها قد تعرفَت إليه؟ كان عليه منعها من أخذه، وكان ليفعل ذلك، لو أنه لم يشعر بالأسف لحالها، لو أنه لم يكن يحاول ألا يتقيأ. لم يعرف كيف تدبّرا ممارسة الحب، لكنهما فعلا، والملاءة الرطبة تحته دليل ذلك. لم يتمكن من تذكُّر الكثير، لكنه فعلها، هل فعلها؟ نعم.. بالتأكيد، بات قادرًا على تذكُّر الأمر الآن، وإن كان لا يكاد يستحق التذكُّر. لم يجدر به تركها تأخذ الخاتم. المشكلة أنه سخيّ أكثر مما ينبغي، فيحسبه الناس أحمق، وهي ستفعل حتمًا. بيدَ أن ذلك لم ينفعها كثيرًا، أليس كذلك؟ ما يهم أنه انقضى، وفي المرة التالية سيكون أسهل، والتالية لها، التي تليها... اللعنة! إنه حكم سجن مؤبد، يستريح منه إذا ما أحبلها، لكن بخلاف ذلك، عليه التوقف عن التفكير على هذا النحو. المهم أنه فعل ما كان عليه فعله. لقد اختُرِقت أسوار طروادة عن آخرها.

تمكنه دفقة الثقة اللحظيّة من الجلوس والنظر حوله، وكما هو الحال دائمًا، تبدو الغرفة وكأنها تنكمش مبتعدةً عنه. عجيب كم تضج هذه الأشياء

بالحياة! القيثارة القابعة هناك، كما لو أن أخيل قد وضعها للتو، والمرآة التي حملت انعكاسه ذات يوم، لكنها الآن مظلمة، والترس المسنودة إلى الحائط. كل هذه الأغراض ملكه الآن، لكنه لا يشعر بهذا، فهو لا يجيد العزف على القيثارة، وبكل تأكيد لن يسمح لأحد سواه بالعزف عليها، ويستطيع تلميع الترس، ويفعل ذلك. أما المرآة، فتمارس الألاعيب، إذ يلبس في بعض الأحيان درع أخيل، ويقف أمامها، لكن انعكاسه لا يتحرك دائمًا مع حركته؛ يصير منفصلًا عن نفسه.

هذا يكفي، الحل الوحيد هو الخروج. يجذب غلالة نظيفة، ويقحم قدميه في الصندل مندفعًا خارج الكوخ. تخطف الريح أنفاسه، وتصفق الباب خلفه، كما لو أنها تقفل الكوخ دونه. إلى أين يذهب؟ لا أحد مستيقظ، فجلسات الشرب الليليّة المتأخرة في الردهة ستجعل الجميع يتألمون، ويداوون رؤوسهم الموجوعة بقدر ما كان يفعل، وبمعزل عن بعض النسوة اللاتي كُنّ يذكين النيران، ويجرشن الذرة، كان المجمع مهجورًا. إلى البحر إذن. يسلك الطريق بين الكثبان، مدركًا في كل مرة يطأ فيها الأرض أنه يخطو حيث خطا أخيل العظيم. حرفيًّا، لا يوجد مكان على الشاطئ أو في المجمع، حيث يمكنه الوقوف غير عارف أن أخيل قد وقف هناك قبلًا، ولا شيء يمكنه لمسه؛ الطاولة، الكأس، الأطباق على العشاء... لا شيء، وبالطبع، أمر مُعَز أن يكون أبوه على هذا القرب، غير أنه ليس قريبًا، ليس هنا على الإطلاق. لدى خروجه إلى الشاطئ، يشعر بيروس بالامتداد الشاسع للبحر والسماء على أنه غياب واحد مؤلم.. لا يُطاق.

يرغب بالسباحة، مثلما كان أخيل يسبح فيما سبق، كل صباح وكل مساء. بيدَ أن البحر جدار من رمل بنيّ مخضخض، ومجرد فكرة الانغماس في ذلك تُشعِره بالغثيان، لكن عليه فعلها، لا يوجد خيار آخر. لم يكن ثمة خيار قط. لذا راح يخوضه، ويشعر بالماء المثلج يلطم ركبتيه، وينسحب مبتعدًا من بين أصابع قدميه. تصفع الموجة التالية أربيته[1]، ثم صدره، ثم فمه، ثم بدأ يسبح، ورأسه وعنقه المشدود مرفوعان فوق الموج. يحاول أن يرتكز على قدم، لكن لا أرض تحت قدميه، لذا عليه المرور عبر الزبد الفائر إلى الخواء

(1) الأُرْبِيَّة: أصل الفخذ مما يلي البطن أو لحمة فيه.

الأهدأ خلفه، وإن كانت ذُرا العُباب مُقلمةً بالبياض والرغوة هنا. بضع ياردات أخرى من التجديف الكلبيّ المهين، فيزداد هياجه أكثر وأكثر مع تهديد الموج بحمله بعيدًا، ثم يصير جاهزًا للخروج. يخرج نصف ماشٍ، نصف زاحف عبر الأضحال، غير شاعر بأيِّ شيء من الإنجاز. البحر ابتلعه، والبحر تقيأه، هذا كل ما في الأمر.

كان أخيل -كما قيل لبيروس مرارًا وتكرارًا- يسبح مثل سمكة، كما لو أن البحر موطنه الحقيقيّ. ذات مرة، ظل تحت الماء وقتًا طويلًا إلى حد جعل فطرقل يهرع إلى البحر لإنقاذه، ليراه عائمًا على بُعد بضع مئات من الياردات فقط. هذا المشهد واحد من أنقى الصور التي يحوزها لأبيه؛ رجل يسبح بعيدًا في البحر، وآخر ينتظر بقلق على الشاطئ. والآن، يخطر في باله للمرة الأولى أن المشهد لا معنى له، فما الذي كان فطرقل قلقًا بشأنه؟ سباحة السباح الأشد في الجيش الإغريقيّ، في بحر رائق؟ ثمة الكثير من الأمور التي لا يفهمها.

على مهل، يلبس غلالته المبللة، ويزج قدميه في صندله المغطى بالرمل، ويلتفت لينظر إلى المجمع. ثمة ضوء أو اثنان في الأكواخ الآن، لكن لا رغبة لديه بالعودة، هو أحسن حالًا هنا، والريح تجلو ذهنه، وتنقيه من ذكريات الليل الحقيرة. ليس خطأها، تلك البقرة البائسة، ليس خطأها البتة. يا ليت الجو لم يكن بهذه البرودة! يا ليت الريح تتوقف! وفي تلك اللحظة بعينها، مع تشكُّل الفكرة، تحل لحظة سكون.

سكون؛ لا شيء يتحرك، ولا حتى ورقة عشب. في كل أرجاء المجمع، يستيقظ الرجال الذين ناموا بعمق خلال هدير العاصفة، ويحدقون إلى بعضهم بعضًا. هل آن الأوان؟ هل توقفَت؟ أيمكننا الذهاب إلى الديار؟ لكن قبل أن تسنح لهم الفرصة حتى بالكلام، تبدأ الريح بالاشتداد مجددًا. لا تجاوز حركة الأوراق الساقطة والعشب رعشة ذيل قطة في البدء، لكنها من ثم تزداد عزمًا أكثر فأكثر، حتى تجتاح البحر بنفس القدر من القوة والضغينة السابقتَين.

كانت فترات الهدوء هذه العصيّة على التكهن، حينما -لبرهة وجيزة- يبدو الرحيل والذهاب إلى الديار ممكنَين، توهن الروح المعنوية أكثر من أعتى هبّات العاصفة، وفي كل مرة يحدث ذلك، يفقد الرأي العام القائل إن الريح

لا تعني شيئًا (إنما هي -بحسب تعبير ماخاون الهازئ- محض طقس) من اعتباره، ذلك أنه في أعقاب كل من هذه الهَدآت، يبدو الأمر بالفعل كما لو أن الآلهة تلاعبهم، تريهم الأمل على كف مبسوطة، لا لشيء إلا لتخطفه بعيدًا.

يشعر بيروس بشَعره المبلل يرتفع عن قفا عنقه، يشعر بغلالته الرطبة تتقولب بإحكام أشد على معالم جسده، ويمضي متثاقلًا. حمّام ساخن؟ زبدية حساء؟ إنها من بقايا الليلة الماضية، لكن بعض الحساء يصير ألذ في اليوم التالي، أم زيارة إلى الإسطبلات؟ ليرى إيبوني، ويساعد الساسة في إطلاق الخيول إلى المراعي. لا، لا شيء من هذا، ليس الآن.

طوال الوقت الذي كان يتظاهر فيه بالتفكير بالحمّامات الساخنة والطعام، كانت قدماه تسوقانه إلى حيث يحتاج أن يكون. لقد بلغ المكان الآن، وراح بأصابع تعصر أنفه، وتنفّس صاخب عبر فمه، يسير على الممر حتى يرى ما يرقد منبسطًا فوق الرمل الوسِخ. إنه يحتاج إلى هذا، يحتاج إلى التيقن مما يعرفه بالفعل؛ من أن اللسان الذي نطق بتلك الكلمات (التي لن يترك نفسه تكررها، لا، ولا حتى في الفضاء الطنان لذهنه) يتعفن الآن، داخل جمجمة متعفنة. يقف.. يحدِّق.. يتبيّن كل تفصيل دقيق، ويلاحظ كل تغير.

يكفي.. لن يحتاج إلى المجيء هنا مجددًا، ربما لعدة أيام، لكنه سيعود، لأن هذا ما يثبت أنه من يدّعي: الرجل الذي قتل الملك بريام. ابن أخيل العظيم. بطل طروادة.

9

كثيرًا ما فكرتُ في بريام في بضعة الأيام التالية، فقد أعادت رؤية خاتَمه حول عنق أندروماخي كل شيء إلى وجداني. لم يكن ثمة ما يمكنني فعله لإنقاذ جثته من المهانة، لكن يمكنني على الأقل زيارة أرملته هيكوبا، وربما جعل مصابها أهون بطريقة ما. لذا انطلقتُ ذات صباح قاصدة مرآها، وأخذتُ أمينا معي. كان بمقدوري أخذ غيرها من الفتيات، لكنني ظننتُ أن المشوار قد يمنحني فرصة للحديث معها. كنتُ لا أزال قلقةً عليها، إذ بدَت عاجزةً عن قبول واقع حالها، وفي الحقيقة، كانت جموحًا على نحو ثابت وخطِر، لكنني لم أتمكن من الحديث معها في طريقنا إلى الميدان، ذلك أن الريح كانت شديدة حد أنها جعلت الحديث محالًا. وتعيَّن عليَّ المشي خافضة رأسي، متلفعة بخماري، بينما مشَت أمينا خلفي بعناد.

كان ثمة أباشة من الرجال يكنسون الرمل المتناثر على أرض الميدان، ذلك أن فكرة ألكيموس في إقامة ألعاب تنافسيّة قد بدأت تثبت شعبيّتها، وتقرر إقامة العديد من الأحداث هناك. وقفتُ أراقبهم يعملون، ولاحظتُ أكوامًا من الأضاحي عند أقدام تماثيل الآلهة؛ فاكهةً، وقُطوفًا كبيرةً من الأقاحي الأرجوانيّة، بالإضافة إلى غيرها من الهدايا الأغرب؛ طُرُز من التروس والرماح، وزوج صنادل جديدة، ودمية حصان طفولية. وبينما أقلب طرفْي في المحيط، رأيتُ أن نصيب بعض الآلهة -ولا سيما أثينا- كان أحسن من غيرها، وأدركتُ أن هذا دليل مرئيّ على ما كان المقاتلون الإغريق العاديّون يفكرون به. لماذا نحن محتجزون هنا على هذا الشاطئ البغيض اللعين؟ أيّ إله أهَنَّا؟ والإجابة، أو التخمين الأفضل على الأقل: أثينا. ولمَ أثينا؟ لأنه كان في معبدها أن اغتُصبت كساندرا، ولم يُعاقَب المغتصب؛ أجاكس الأصغر (أجاكس الضئيل)

كما ينبغي، ما يُزعم أنه جعل أجاممنون وسائر الملوك مشاركين في الجريمة. بالطبع، لم يكُن الاغتصاب ما ضايقهم، بل تدنيس المعبد، فهذا انتهاك قد تميل أثينا إلى الانتقام له.

راحَت أمينا تحدِّق إلى كَوْمات الأضاحي، وعيناها تندفعان من تمثال إلى آخر. تساءلتُ في قرارتي عن رأيها فيها. لا بد أنها كانت بهيّة وقتما شُيِّدت، لكنها هبطت إلى حالة من الضعضعة عبر السنين، فصارت قواعدها عطِنة، وطلاؤها متقشرًا، وكانت أرتميس، سيّدة الحيوانات، وربة الصيد، في حال رديء رداءةً بارزة؛ ملامحها نصف ممحوّة، وبالكاد ثمة آثار طلاء على أرديتها.

نظرًا لوجودي هناك، فكرتُ بزيارة هيكاميد، جائزة شرف نسطور، وقربى صديقاتي في المعسكر بعد ريتسا. وجدتُها تكنس الردهة، وثمة كدسة من الأسل الغض بجوار الباب تنتظر فرشها، رغم إيضاحها بعد تعانقنا أن الردهة بالكاد محتاجة إلى التنظيف. لم تُقَم موائد احتفاليّة في كوخ نسطور، ذلك أن ابنه الأصغر أنتيلوكوس قُتِل في الهجوم الأخير على طروادة. أنتيلوكوس، الصبي الذي أحبَّ أخيل. غمسَت وفاتُه المجمع بأسره في الحِداد، وكان المرء ليشعر بالجو المنكوب ما إن تطأ قدماه عتبة الردهة، بخسارة حياة شابة واعدة. تلكأَت أمينا عند الباب، وجثمتُ على مقعد رافعةً قدميَّ ريثما فرغَت هيكاميد من الكنس، ثم أعنتُها بفرش الأسل.

سألتُها:

- كيف حال نسطور؟

فلوّت قسمات وجهها:

- ليس جيدًا.

لم يسعني تصديق أن نسطور سقيم حقًا، فقد كان كشجرة عتيقة تميل مع كل حاصب، فتظن أنه منتهٍ في أيّ لحظة، لكن تراه في الصباح التالي لا يزال واقفًا، محاطًا بأفدنة من الشتلات الصحيحة التي اجتُثت من جذورها في الليل. بيدَ أنني فهمتُ لمَ قد ينهش هذا الداء -مهما يكن- دماغ هيكاميد، فما الذي سيحل بها إذا ما مات نسطور؟ إذا كانت سعيدة الحظ، قد يأخذها واحد من أبنائه الأحياء، وإن لم تجرِ العادة على أن يرث الأبناء محظيّات آبائهم،

بل الأرجح أنها ستُمنح جائزة في ألعاب جنازة نسطور، كما كان سيحيق بي تمامًا لو لم يمنحني أخيل لألكيموس.

أنهينا فرش الأسل، وجلسنا على أحد المقاعد. فاحت رائحة سُكّر محروق وقرفة، وبعيدًا على الطاولة، تربّعت صينيّتان من الكعكات الصغيرة، التي بالكاد يجاوز حجم الواحدة منها اللقمة، لكنها لذيذة أشد اللذة. كان الاسم الدارج لها هو «كعكات أَعِد الكرّة»، لأن أحدًا لم ينجح بالتوقف بعد واحدة.

- لا يمكن أن يكون خطبه جللًا إن كان يأكل هاته.

- أوه! إنها ليست له، بل لهيكوبا. كنتُ موشكةً على حملها إليها، أترغبين بالقدوم؟

- نعم، بالطبع. أنا في طريقي لرؤيتها بأيّ حال، إنما عجزتُ عن مقاومة المجيء لرؤيتك أولًا.

- جيد، يمكننا الذهاب معًا، لكن عليَّ الاطمئنان على نسطور أولًا.

على ما يبدو، كان قد تكلم عن الجلوس في الشرفة، لكن عندما أطللنا برأسَينا من الباب وجدناه نائمًا يشخر شخيرًا صاخبًا، وشفته العليا تبرطم مع كل نفَس، وحتى من هذه المسافة أمكنني رؤية أن أنفه وشفتيه زُرق. قالت هيكاميد، وهي تمس رأس أنفها: «إنها اللذعة التي أكرهها. تصيبهم قبل أن يرحلوا».

كانت مغادرة الغرفة برائحتها العابقة باللحم المُسن العليل فرجًا. وفي الخارج، بعد أن رجعنا إلى الردهة، أخذتُ عدة أنفاس عميقة، ثم حمَلت هيكاميد صينيّة، وحملتُ الأخرى، وانطلقنا نعبر الميدان، حيث مالَت الظلال الطويلة التي ألقتها تماثيل الآلهة على الرمل المكنوس حديثًا، وأمينا تتخلف عنا بضع ياردات كالعادة. رحنا ننتقل مبهورات من الضوء إلى الظل، ثم إلى الضوء مجددًا (مشية وجيزة منعشة في الرياح الرمليّة)، ومن ثم غطسنا برؤوسنا، وخرجنا في الظلمة العفنة لكوخ هيكوبا، وقلتُ في رأسي: «من حجرة مرضى إلى أخرى!». ثم انتهى التشابه، فنسطور نائم في سرير ملك محاطًا بكل بهارج الثراء والسلطة، بينما كان كوخ هيكوبا أشبه بمَزجَر كلب من مسكن بشريّ، وإن كان على الأقل لها وحدها، فتلك رفاهيّة نادرة في هذا المعسكر المكتظ. بدا أن أوديسيوس يحسن معاملتها إلى حد معقول، فحينما

تقاسم الملوك نساء الأسرة الملكيّة، مزح الكثيرون على حساب أوديسيوس، إذ حظِي أجاممنون وعدة ملوك آخرين ببنات بريام العذراوات، وبيروس بأرملة شابّة رشيقة، ملأى بالحيويّة في داخلها، لو أنها تبتهج نتفةً فقط. بينما لم يبقَ لأوديسيوس إلا عجوز ضامرة. كان أوديسيوس يهز كتفيه منحيًا الضحكة جانبًا وحسب، فقد كان يعرف أنه آخذ معه إلى المنزل المرأة الوحيدة التي ستقبل زوجته بينيلوبي بها، وإذا ما كان أيّ قَدر من الحظ حليفه، فقد يتمكن من إقناعها أنه كان ينام وحيدًا طيلة السنوات العشرة الماضية دون أيّ شيء يسلي فيه أمسيّاته الموحشة سوى لعبة القناني الخشبيّة مع رجاله بين الحين والآخر. كان حاذقًا بالقدر الكافي ليجعل الأمر يبدو مقنعًا، وكما أجمعَت الحكايات، كانت بينيلوبي حاذقةً بالقدر الكافي تمامًا لتتظاهر بتصديقه. جميع الأطراف المتحادثة كانت تثني على ذكاء بينيلوبي ولطفها، وأمكنني بيُسر تخيل هيكوبا جالسةً في غرفة دافئة، تعمل بعض التطريز الخفيف، لا بِدَعْك الأرضيّات الحجريّة، بينما تُزجَر، لأنها لا تعمل بالسرعة الكافية، مثلما يُجبَر الكثير من النساء الأكبر سنًّا على فعله. أوه! لعلها حياة بائسة أتلفها الأسى، لكنها ستكون على الأقل مرتاحةً جسديًا فيما تبقى لها من أسابيع أو شهور لتعيشها.

كلها هراء هذي التصورات، فمنذ لحظة رؤيتها بريام مقتولًا، لم تنوِ هيكوبا العيش قط. للوهلة الأولى، رأيتُها كيسًا من العظام المتكوّمة تحت بطانيّة وسِخة، والذراع الهاجعة وحيدةً خارج الغطاء، مجعدة ومبقعة ببقع بنيَّة إلى حد بدا معها أقرب إلى فرو حيوان من جلد إنسان. تزحزحَت وقتما سمعَت أصواتنا، وبدأَت محاولة الجلوس، وهي ترمش إزاء الضوء المباغت. هالني حد الهزالة الذي بلغَته، ورغم قِصر المدة مذ وصولها إلى المعسكر، بدا أنها قد تضاءلت، ما دفعني إلى السؤال عن مقدار ما كانت تأكله. لمسَت هيكاميد قدمَيها، وقدمَت لها صينيّة من الكعك، فشكرَتها هيكوبا جزيل الشكر، لكنها نحّتها جانبًا على الفور، ورفعَت نظرها إليَّ، فقالت هيكاميد: «هذه بريزيس».

جثوتُ أيضًا، ولمستُ قدمَي هيكوبا. لم أرتَجِ منها أن تتذكرني، وإن كنا قد التقينا بما فيه الكفاية في السنتين اللتين قضيتُهما في طروادة، غير أني كنتُ

طفلة حينها، ولا بد أن تغيُّري قد جاوز حدود التمييز مذ ذاك، وبالفعل نظرَت إليَّ حائرةً لوهلة، قبل أن ترفع يدها النحيلة، وتُرخيها على جانب وجهي:

- أريدُ أن أشكركِ يا عزيزتي.

- علامَ؟ هيكاميد مَن خبَزت الكعكات.

- كنتِ رؤوفةً ببريام حين مضى لرؤية أخيل. لقد تذكَّرَك، وتذكَّر جَلب هيلين إياكِ إلى القلعة. صديقة هيلين الصغيرة، لا بد أنكِ كنتِ طفلة حقًا آنذاك، أليس كذلك؟

- كنتُ في الثانية عشرة.

- لقد حكى عنكِ وقتما عاد. قال إنكِ كنتِ شفوقةً.

عجزتُ عن الكلام، كنتُ على مشارف البكاء، فربتت هيكوبا على ذراعي: «حسنًا، حسنًا، فلنأكل بعض الكعك». كانت تحدِّق إلى الظلال حيث وقفت أمينا مُلغيةً نفسها بتباهٍ كعادتها. أدركتُ أن بصر هيكوبا لم يكُن سليمًا، فقلتُ: «أمينا؟»، فتقدمَت أمينا حينذاك، ولمسَت قدمَي هيكوبا، ولدهشتي، قالت هيكوبا:

- أمينا، طفلتي البائسة. كيف حالك؟

- لا بأس.

- لقد مُنحتِ لبيروس، صحيح؟

- نعم.. لم أكُن لأختاره لو خُيِّرتُ...

فأطلقَت هيكوبا صوتًا غريبًا لا تميزه إن كان ضحكة أم صوتًا بذيئًا.

- لا، حسنًا، أظن الاختيار صار في طيّات الماضي.

وزّعَت هيكاميد الكعك بينما صببتُ النبيذ. منع اضطراب هيكوبا إياها من الأكل، ولاحظتُ رغم ذلك أنها كانت تشرب بعُجالة. حسنًا، فلتشرب، لو كنتُ مكانها لشربتُ بحرًا ونشّفتُه. في غضون دقائق، ظهرت بقعتان حمراوان على وجنتَيها، وتعارضتا تعارُضًا صارخًا مع الرماديّة العامة لبشرتها وشعرها. ركزَت في البداية على النبيذ وحده، لكنها من ثم أخذت تتكلم عن هيلين: «أكنتُنّ تعلمن أن مينيلاوس عاد لمضاجعتها؟ وحظيَت بكوخ كامل بمفردها، وليس كهذا، بل ثلاث غرف، وخادمات يخدمنها، ويرتّبن وراءها. أوه! ونَول،

كانت هيلين تحوك من جديد، مثل عنكبوت تنتظر الهزة التي ستُعلِمها بأن ذبابة أخرى قد حطَّت، ضحيّة أخرى لتُمَصَّ حتى تجف...».

أوه! يا للكراهية في صوت هيكوبا، وهي تتكلم عن هذي الأمور! عجبتُ كيف عرفَت بشأن النَّول، لكن القيل والقال يطير في أرجاء المعسكر، وخادمات هيلين طرواديّات بكل تأكيد. ربما جاء الأمر برمّته عن طريقهن، فقد كُنّ ليرصصن آذانهن إلى الجدار ليسمعنَ قباع مينيلاوس، وصيحات نشوة هيلين، وكُنّ ليجدن وفرةً من صيحات النشوة، فهيلين ليست حمقاء. اغتاظ المعسكر بأسره من إعادته إياها، واجتمع المقاتلون الإغريق والإماء الطرواديّات على شأن واحد لا غيره؛ بُغض هيلين. كان مينيلاوس قد أقسم مرات كثيرة أنه سيقتلها حالما يلمحها مجددًا، ثم أنه سيعيدها إلى أرجوس، ويجعل النساء يرجُمنها حتى الموت، ولا نقص في المتطوعين؛ الكثير من الأرامل، الكثير من النساء اللاتي فقَدن أبناءهن. وها هو رغم ذلك، في سريرها من جديد. قالت هيكوبا: «طوال الليل.. ما الذي يحاول فعله؟ مضاجعتها حتى الموت؟»

أظنني ربما صُدِمت؛ ذلك أنني لم أعرف هيكوبا جيدًا آنذاك كما عرفتُها لاحقًا.

«أوه! والكذبات التي تطلَع بها! قالت اغتُصبَت، ابني اغتصبها؟ كانت عاجزةً عن الاكتفاء منه! أوه! وقولها إننا أبقيناها أسيرةً في طروادة. لا يقرب أيّ من ذلك من الحقيقة، إذ كان بوسعها الذهاب إلى الديار في أيّ وقت أرادت. من برأيها رغب بوجودها هناك؟ ابني الأبله، ولا سواه! كانت أيّ واحدة من بناتي لتعبُر بها ساح المعركة لو كان خوفها يمنعها من العبور وحدها، أنا كنتُ لآخذها».

وبدا للعيان أن ما قالته صدق، فقد كانت جسورة. ظل فمها يعمل بلا توقف طيلة هذا الوقت، حتى عندما أنهت كلامها، اضطُرَت فعليًّا إلى ضم شفتيها بقرصة لتُبقيهما مطبقتَين. بدَت مثل طائر عجوز مُضنىً مهزول، شحرور عاصفة ربما، نفَّش العصفُ ريشاته، لكنه ما زال يغرد، ما زال يصيح متحديًا من عليائه. جاهدتُ لأفهمها، ففي كل يوم، كنتُ أرى كم اغتال الكدر من أندروماخي! وأظنني توقعتُ أن تكون هيكوبا على نفس الحال، أو أشد

سوءًا، لكنها لم تكُن كذلك في شيء. لقد استنزفها بُغض هيلين. لعلها أحسَّت أن الملوك أكثر بطشًا، وأكثر تخويفًا من أن تكرههم، أو ربما دائمًا ما كانت تذم النساء، وتبرئ الرجال، فبعض النسوة كذا، لكن أثار ذلك ثائري، فقلتُ: «لا يمكنكِ أن تقرّعي هيلين وحسب! لم تكن هيلين مَن قتلت بريام، بل بيروس، ومَن ألقى بابن هيكتور عن المتاريس؟ بيروس، ومن ضحّى ببوليكيسينا؟ ليسَت هيلين، بل بيروس».

سألَت هيكوبا: «وما ستفعلين بهذا الخصوص؟»، سكتُّ.. لم أحمل في جعبتي جوابًا لذلك، إذ كنتُ أعرف أن بيروس أبعد من متناولنا بكثير. أجَلتُ نظري عوضًا عن ذلك بين جدران الكوخ، ولم أُرِد إلا الخروج لأملأ رئتيّ بالهواء النقيّ، إذا ما أمكن تسمية تلك الريح الجارفة بحبّات رملها الخفاقة «نقية». أردتُ الابتعاد عن الرائحة الآسنة المنبعثة من البطانيّات القذرة على سريرها، وقبل كل شيء، لم أرِد أن أكون مضطرة إلى سماع ذاك الصوت المنُهَك الضاج. شعرتُ رغم ذلك بالإشفاق عليها في الآن نفسه، وبشيء من المهابة.

صمتَت في النهاية، وأكلَت إحدى الكعكات بالفعل، ثم لمسَت فمها بأناقة بحاشية خمارها، وقالت، وهي تلوّح بواحدة أخرى:

- إنها لذيذة، أتعرِفن (والتفتَت إليَّ)، لا أظنني قد ذقتُ كعكات كهذه في طروادة قط، وقد كان لدى بريام أمهر الطهاة في العالم. ومع ذلك، لا بد لي من قول إن كعكة الزنجبيل ما زالت المفضلة لديّ. يا لها من نكهة قوية!

بدَت هيكاميد قلقة:

- أهي أقوى مما ينبغي؟

- لا لا، متناغمة تناغمًا مثاليًّا؛ ليست لاذعة زيادة، ولا حلوة زيادة.

والتفتت إليَّ مجددًا:

- وماذا عنكِ عزيزتي؟

لم أكُن واثقة من قصدها:

- هل أخبز؟ حسنًا، نعم، بعض الشيء، لكن لا يقترب من خَبز هيكاميد.

- لكنني على يقين من أنكِ تتمتعين بمواهب أخرى. سمعتُ أنك عليمة بالأعشاب، صحيح؟

- ما كنتُ لأقول عليمة.

- انظري.. (توقفَت قليلًا، مقلبةً نظرها حول الحلقة الصغيرة) لقد كنتُ أفكر فيما يمكننا فعله.

شعرتُ بوخزة جزع، وأنا أنصتُ. بدا أنها تطلب من هيكاميد خَبز كعكة لهيلين. كعكة؟ لهيلين؟

ثم قالت، وهي تنظُر إليَّ: «أعرف أين أجد النباتات».

بالطبع تعرف. فمثل أيّ معشَبَة عظيمة أخرى، كان في حديقة طروادة بقعة معزولة ذات بوابات مخصصة للنباتات السامَّة، ذلك أن النباتات السامَّة -للمفارقة- تنتج بعضًا من أقوى الأدوية، وإذا ما أُعطيَت بجرعات دقيقة، وتحت إشراف حذر، فيمكن أن تنقذ هذه النباتات حيوات بالفعل. سمّ الدجاج، قاتل الذئب، كفّ الثعلب، إكليل الملك، تبدو بريئة جدًا، أليس كذلك؟ جذر الأفعى، نبات الخروَع، شجرة الجوز المُقيء...

لمسَت هيكوبا ذراعي:

- أستعرفين أيّها تقطفين؟

نظرتُ إلى هيكاميد قبالتي، ورأيتُها تدرك ما يُطلَب منا فعله، فمدَّت يدها لامسةً يد هيكوبا:

- لمَ لا تفوّضين أمرها للآلهة؟

- لأن تفويض الأمور للآلهة لا جدوى لعينة له! عليكِ أن تنضجي يا فتاة.

- لا يحكُم إلا الآلهة.

- هه! أتظنين أن الآلهة يهتمون بالعدل؟ أين العدل في ما أصابني؟

ثم أشاحت بوجهها عنا، مكوّرةً كتفَيها مثل صقر تحت المطر. عمّ الصمت لبرهة، ثم قالت:

- أمينا تفهم ذلك، صحيح؟

أومأَت أمينا برأسها:

- أجل.

قلتُ:

- هذا من يُمْن الطالع، فليس مسموحًا لأمينا الخروج من كوخ النساء دوني.

صار الجو بغيضًا، وحدجتُ هيكاميد بنظرة متأججة، أسألها: «ما أقرب وقت يمكننا المغادرة فيه؟»، لكن هيكوبا استدارت آنذاك لتواجهنا، وقد تغير سلوكها تمامًا، تقريبًا كما لو أن خيال تسميم هيلين المُتلِف -والذي أشك أنه كان رفيقها الوحيد في ليلاتها الطويلة الأرِقة- قد تهاوى تاركًا إياها أخفَّ بغتة: «أتعلمن، أظن أنني قد آكل كعكة أخرى». لم يكُن قد تبقى إلا واحدة، وبعدما أنهَتها، رطّبَت إصبعها، والتقطت آخر الفُتات من الصحن: «والآن، أرغب بالتمشّي».

تبادل ثلاثتنا النظرات. كلنا ظن أن ذلك سُخف، فقد كانت الريح لتطيّرها، وراودتني في واقع الأمر رؤىً تُدوِّم فيها، في السماء كواحدة من تلك الأوراق البنيّة المعروقة التي تُرى في الخريف، لكنني أومأتُ برأسي، وأعنتُ هيكوبا على الوقوف، فأسدلَت ذراعيها الهزيلتَين فوق كتفيّ وكتفَي هيكاميد، ومن ثم دلفنا بخُرْق مثل عجل مسخ ذي ستة أرجل تجاه الباب. ما إن صرنا في الشرفة حتى توقفَت هيكوبا فجأةً، وشعرتُ بخضة تسري في جسدها. كانت ترمش تحت الضوء الفظ، كما لو أن اندفاعها أفزعها، توقعتُ بعض الشيء أن تغيِّر رأيها.. أن ترجع أدراجها، وتقول إنها ستحاول في يوم آخر، لكن لا، كانت عازمة. رفعَت امرأة أو اثنتان من المقرفصات على الأرض يجرشن الذرة نظرهن مع انطلاقها في رحلتها المحفوفة بالمخاطر إلى أسفل الدرجات، وذعرتُ من أنها قد تسقط، فحملناها في آخر الأمر إلى الأسفل ببساطة، فلم يكُن وزنها يُذكَر.

سألتُها:

- إلى أين ترغبين بالذهاب؟

فكرَت لبرهة:

- إلى البحر. لم أزُر البحر منذ سنوات.

وهكذا، انطلقنا ملازمات حِمى الأكواخ ما أمكننا. اضُطررنا عدة مرات إلى التوقف، كي يسعها لفّ خمارها حول فمها، فقد كانت الريح تخطف أنفاسها، مثلما تفعل بنا، لكن أنفاسها أقل من أن تستغني عنها. وإن كان سواء لو أنها لم تتكبد العناء، ذلك أننا حالما غادرنا حِمى الأكواخ، راح خمارها يرفرف خلفها، فتعيَّن عليها تَركي لتمنعه من الطيران مبتعدًا. كانت الغربان تحوّم بأجنحتها المتهرئة السوداء قبالة السماء البيضاء، فقالت: «انظرن إلى الملاعين! يُغَذون أحسن منا»، وأصدرَت صوتًا ربما كان ليخرُج ضحكةً في ظروف أخرى.

أنزلناها في مهل شديد إلى الشاطئ، وصرنا بحلول هذا الوقت نحملها تقريبًا، وذراعانا معقودتان خلف ظهرها المحنيّ بينما تترنح تجاه البحر. طار خمارها كله مرة، فطاردَته أمينا عبر الرمل وأعادَته، ثم عقدَته بإحكام حول عنق هيكوبا. عند حافة الشاطئ، توقفنا، ورحنا نرقب الأمواج في هجومها العنيد على اليابسة، حيث تفشل كل هجمة، فتنكفئ لافظةً الحصى التي توشّح المُنحدر وراءها، ومن ثم تند تنهيدة هزيمتها الطويلة الصارّة، لكن في الآن نفسه، يقوّس البحر كتفَيه الجبارَين خلف الموجات تجهُزًا لهجمته التالية. راحت هيكوبا تحدِّق إلى السفن السوداء العقفاء التي كانت مصطفةً على الشاطئ، مثل سرب من الطيور الكاسرة، رائيةً للمرة الأولى على الأرجح القوات التي دمرَت حياتها. خشيتُ أن تنظر على طول الشاطئ، حيث كانت الغربان والنوارس لا تزال تتنازع على جثة بريام، لكنها شدَّت نفَسًا مُرتجفًا بدلًا من ذلك، واستدارت لتواجه الداخل.

كانت طائفة من النساء قد احتشدت على مسافة قصيرة، إماء جِئن ركضًا من أكواخ أوديسيوس ليرين ملكتهن السابقة، لكنها طفقَت تنظر من فوق رؤوسهن إلى المدينة اليَباب. تتبعتُ نظرتها، ورأيتُ عبر عينيها أبراج طروادة السوداء الكسيرة، مثل أصابع يد نصف مدفونة، تشير مُتّهمةً إلى السماء، انتظرتُ أن تتكلم، لكنها لم تقُل شيئًا. ربما شعرَت أن الكلمات أمام هذا المشهد عُملة حطيطة، لا يمكنها تجشُّم عناء استخدامها بعد الآن، وفي بقعة ما في أعماق حلقها، كان صوتٌ خلوٌ من الكلام يتشكل، لم أسمَعه، بل شعرتُ به يفيض نزولًا من عنقها وكتفَيها إلى ذراعي، وقبل أن أدرك ما كان يجري،

انسلَّت من قبضتي، وجثَت على ركبتيها. جثمَت على الرمل القاسي، وطفح الأسى منها بغتة، فرفعَت وجهها إلى السماء، وصرخت مناديةً على بريام، ثم هيكتور، ثم كل أولادها الموتى، ثم على بريام مجددًا: «بريام.. بريام». جعلَت تجتثُّ كُتلًا من شعرها، وتخمش خدَيها، وتضرب الأرض، كما لو أن بوسعها إيصال صرخاتها إلى أروقة هاديس[1] الجهماء، كما لو أن بوسعها إيقاظ الموتى.

ركعتُ بجوارها، وحاولتُ إحاطة كتفَيها بذراعي، وأصدرتُ أصواتًا مسكّنة لا معنى لها، مستقتلة لتهدئتها من أجلي بقدر ما هو من أجلها، كما أخشى، فلم أقدر على تحمُل ذلك. ثم ألقَت برأسها إلى الخلف، وراحَت تعوي، واستمر العواء متواصلًا حتى بدا أن لا نهاية له. تحركَت النسوة المراقبات مقتربات، وتجمعن حولها، حيث ركعن على الرمل الوسِخ، ضامّات صرخاتهن إلى صرختها، حتى تحوّلن من نساء إلى ذئاب، وصار العواء المريع نفسه يخرج من مئات الحلوق، فوجدتُني أعوي معهن، مذعورةً من الأصوات التي أصدرها، لكنني مع ذلك عاجزة عن التوقف. هيكاميد عوَت، وأمينا، وكلنا، لخسارة موطننا، لخسارة آبائنا، وأزواجنا، وإخوتنا، وأبنائنا، ولخسارة كل مَن أحببناه، لكل الرجال الذين جرفهم ذاك المد الداكن دكنة الدم.

لو أن أصوات أحياء قد قدرت على اختراق عالم الموتى، فقد كان ذلك وقتئذ دون شك، لكن أحدًا لم يُجِبنا. وبعد فينة، خرج أوديسيوس من ردهته ليرى لمَ الهوشة. ثم ظهر زوج من الحراس بعد بضع دقائق، وأعادا النسوة بخشونة إلى العمل.

---

(1) هاديس: اسم إله العالم السفليّ في الميثولوجيا الإغريقيّة، الذي صار مترادفًا مع العالم السفليّ نفسه (المترجِم).

10

في مكان ما على امتداد الشاطئ، بدأت جماعة من الكلاب بالنباح. يتوقف كالخاس، وينصت بينما يتلاشى النباح إلى نشيج في البداية، ثم إلى صمت. بالنظر حوله، يدرك أن شيئًا ما قد تغير.. ما هو؟ ما زالت السماء تضطرم باللون الأحمر القبيح نفسه، وما زال مذاق الهواء حديديًا، والأمواج تتكسر بتلك الرتابة المميتة على الشاطئ. يشعر أن رئتيه تكافحان لمجاراة الصعود والهبوط الأبديَين، ويبدو صدره ممتلئًا بمياه مدوّمة. يُرخي يدًا على الجانب المُثألل من إحدى السفن، ويحاول التنفس بعمق. يشعر بالدوار للحظة، ويغشًى بصره، قبل أن يطفو مجددًا على الشاطئ عائدًا إلى الوضوح ببطء شديد. تتطاير أبخرة حبوب مليحة عبر الرمل الخشن، وبينما يراقب، تعبره متدحرجةً عدة كرات من العشب الجاف.

كثيرًا ما رأى ذلك كله قبل الآن، إذن لمَ يبدو غريبًا فجأةً؟ يمص سبابته ويرفعها، أجل، هذا ما في الأمر. لقد تبدلت الريح، لم تتبدل كثيرًا؛ ما زالت تعصف من البحر، لكن من زاوية مختلفة بعض الشيء. ربما سيسهّل هذا المشي، وربما سيدرج بسلامة ورشاقة، مثل واحدة من كرات العشب تلك. ينطلق بثقة مغادرًا كنف السفينة، فلم يعُد الفتى الأخرق الذي ركع عند قدمَي بريام ذات مرة، بل كاهن أبولو الأعلى، كبير عرّافي الجيش الإغريقيّ، رجلًا يتمتع بثقة الملوك. وإن كان عند التفاته ناظرًا خلفه، يرى دعسات قدمَيه المخربشة على الرمل المخضّل زائغة مثل دعسات سرطان، فلا يثنيه ذلك عن مواصلة مسيره بإصرار ناويًا بلوغ كوخه قبل أن يرخي الظلام سدوله. يقرر أنه سيسمح لنفسه الليلة بكأس من النبيذ القوي، ربما برفقة كعكة صغيرة يغمّسها فيها. لا يمكن للرجل أن يحرم نفسه على الدوام من طيّبات الحياة،

وقد أنحلته التضحية. يفكر ببعض الاستياء بماخاون، الذي لم يمنع شيئًا عن نفسه قط، ورغم ذلك يرى أجاممنون متى ما أراد (قيل كل يوم)، بينما هو الذي قدّم للملك سنوات من الخدمة المخلصة.. سنوات يمضي أيامه منتظرًا دعوةً لا تأتي أبدًا.

يتلاشى الضوء بسرعة الآن، لكن ليست الظلال الزرقاء لأمسيّة اعتياديّة ما تمتد على الأرض، ليس الغسق الزحّاف الذي يجعل ألسنة اللهب والمشاعل تتأجج بنور أشد سطوعًا، وأكثر إغراء، لا، هذه الظلال صفراء اصفرارًا سقيمًا، مثل لون العاج العظميّ لجلد مُسِنّ. يتذكر عنق هيكوبا المغضّن، كما رآه وقتما سيقَت إلى المعسكر، ويمس عنقه باضطراب. يدرك الرجال تقدّمهم في السن في أجساد النساء، حتى الرجال مثله الذين اختاروا حياة التبتُّل (ليس أنه قد اختار التبتُّل فعلًا، ولا تمسك به أيضًا) يخلصون إلى ذلك. يتابع سيره، لكنه عاد إلى طروادة الآن طفلًا من جديد؛ بيوت بيضاء، وظلال سوداء، وصبي صغير يجلس على عتبة باب، يحدِّق إلى الشمس خازرًا. بغباشة، يدرك إعتام السماء، ووميض قدمَيه الهزيلتَين داخلةً الأضحال، وخارجةً منها، لكنه تائه في ذكريات الماضي...

وحين يرفع نظره مجددًا، يرى أجاممنون هناك. يشك في البداية بشاهِدِ عينيه، فأجاممنون لا يغادر ردهته أبدًا، ولم يُرَ في الخارج مذ تبدلت الريح، وسمّرت السفن الإغريقيّة على الشاطئ، وهو الذي كان يقيم الولائم على الدوام، ويحضُر ولائم بقية الملوك، لكن ها هو، متدثرًا بعباءة زرقاء داكنة، وحُلَيقة ذهبيّة حول رأسه لتمنع الشعر المسترسل الفضيّ من العصف بوجهه. لم ينتبه إلى كالخاس، فهو مرسل طرفه إلى البحر. ينظر كالخاس حوله، لكن لا يرى غيره في مرمى بصره. هذه هي الساعة التي يلف الرجال أنفسهم فيها بعباءات دافئة، ويتحلقون حول نيران الطبخ، ساعة بدء الشرب الفاحش.

إذًا، هما وحدهما، والريح تخلق أفاعي من رمل رخو، وترسلها تتلوّى في عرض الشاطئ. ما العمل؟ لا يجرؤ على الدنو من أجاممنون، الذي بدا خارجًا بلا مُرافِق رغبةً في الاختلاء بنفسه، لكن لا يمكنه تجاوزه متجاهلًا إياه فحسب أيضًا. يكشف الضوء المائل عن قوالب دوديّة، كدسات ضئيلة من الرمل الملتف، ولكلٍّ منها ظِله المميز، فيتظاهر بأنه مهتم بها أيّما اهتمام،

بل يركع حتى كأنه يعاينها من كثب، ثم يقضي بضع لحظات يراقب البحر، حيث يؤكد كل انكسار وهدير للموجات المتلاطمة على الجروف، كما لو أن ثمة حاجة للتأكيد على استحالة مغادرة أيّ سفينة كنفَ الخليج. أهذا سبب وجود أجاممنون هنا، للتأكيد على يأسة الحال، كمَن يلكز سنًّا مكسورةً ليرى ما إذا كانت لا تزال تؤلم؟

يشعر كالخاس بحبيبات رمل وخّازة تلسع كاحلَيه المكشوفَين. صارت الريح أبرد الآن، وما برِح عاجزًا عن الحركة. يكسر سكونه صوت جديد بين آهة وزمجرة، ويبدو صادرًا من الأرض بين قدمَيه. الرمل المغنّي ظاهرة معروفة يألفها كل من يعيش على طول هذا الساحل. الكلمتان «معروفة»، و«يألفها» مريحتان، لأنهما تسعيان إلى ترويض التجربة، إلى إخراجها من عوالم الغرابة، وإرساء أنها مجرد جزء من الحياة الطبيعيّة. رغم أنه حقيقة، ليس غناءً البتة، بل هو صوت أكثر تهديدًا بكثير، ويبدو قادمًا من أعماق الأرض. كما لو أن الموتى قد وجدوا صوتًا في آخر المطاف، أو ربما استعادوا الأصوات التي ملكوها ذات يوم.

يحدِّق أجاممنون حوله إلى كل مكان، وأخيرًا، يركع ويضع كلتا يديه في الأرض، كما لو كان يحتاج إلى اللمس ليتحقق مما تخبره به أذناه. يجتمع كل ما في الموقف؛ الضوء الآخذ بالخبو، الرمل العاوي، والملك القهار العاجز لإسراء هجمة ذعر فيه. كان كالخاس ليفر هاربًا لو ثمة وجهة يفر إليها، لكن الزمجرة في كل مكان. أصوات مرتفعة في كل أصقاع المعسكر، لذا لا بد أن الرجال المتحلقين حول المواقد يسمعونها أيضًا، لكنها ستكون أقل حدة هناك، وأقل تخويفًا بوجود صحبة من رجال آخرين. هناك، سيكون بمقدورهم صَلب اللغز بالنكات والضحك، لكن هنا في الخارج، مكشوفان على الشاطئ الآخذ بالإظلام، يستدير رجلان ليحدِّق واحدهما إلى خوف الآخر، وكلاهما عاجز عن مداراة ذلك.

وحينئذ، تتوقف الزمجرة بغتة مثلما بدَأت. يستقيم أجاممنون، ناظرًا ناحية كالخاس، ويبدو على وشك الكلام، قبل أن يستدير على عجل متجهًا إلى مجمعه بخُطى واسعة. يتبعه كالخاس بخُطى أبطأ، ريقه ناشف، وقلبه يضرب أضلاعه، لكنه مغتبط تحت كل هذا، ذلك أن أجاممنون عاجز عن

تجاهل الأمر، فهو رجل يتوق إلى الإشارات والنُذُر، رجل يرى عمل الآلهة حتى في أكثر الأحداث دنيويّةً، وبالطبع يفترض أن أيّ رسالة من الآلهة ستكون موجهةً له حصريًا. أجل! يجب أن يرسل في طلبي الآن. ورغم ذلك، بعد لحظة من التفكر الإضافيّ، يرجع كالخاس إلى حالته القلقة السابقة. نعم، سيرسل أجاممنون في طلبه، وسيُطلب منه تفسير سبب منع الآلهة لليونانيّين من مغادرة محل نصرهم الأعظم، وهو لا يملك أدنى فكرة بتاتًا، ولا فكرة على الإطلاق عمّا سيقوله.

11

بعد ليلة عاصفة، وضعتُ خبزًا وجبنًا، وإبريقًا من النبيذ الخفيف على الطاولة في حال جاء ألكيموس إلى المنزل ليفطر، ثم نزلتُ إلى الشاطئ، حيث الهلاك الذي تركه المد العالي ليلة البارحة منثور في كل مكان حولي، كنتُ قد اعتدتُ إيجاد أعداد كبيرة من الكائنات النافقة على الشاطئ، لكنني لم أرَ مثل تلك المذبحة التي رأيتُها يومذاك قط، إذ فُرِش الرمل بسرطانات وقناديل بحر رماديّة مخضرة شاحبة، وربما مئة نجمة بحر بيّضها الموت، والأخيرة حسرة خاصة في قلبي، لأنني أحبها حبًّا جمًّا. رحتُ أتصيد في المكان بحثًا عن أيّ شيء لا يزال حيًّا، لكنني لم أجِد شيئًا. وأنا أرسم طريقي عبر الدمار، شعرتُ أنني في ميدان معركة عقب واحدة من ثائرات أخيل الحمراء، لكن البحر كان الفاعل؛ البحر الذي قذف هذه المخلوقات الضئيلة الهشة بعيدًا جدًا إلى البرّ، حيث لا فرصة لها بالنجاة.

كنتُ قد أمضيتُ عشر، أو ربما خمس عشرة دقيقة أمشي جيئةً وذهابًا على حافة المياه وقتما لمحتُ رجلًا طويلًا نحيلًا يقف على بُعد نحو عشرين ياردة أمامي يحدِّق إلى البحر؛ إنه كالخاس، وبمراقبته هكذا، ونحن وحدنا على الشاطئ المقفر، شعرتُ أنني أراه بوضوح أكثر من أيّ وقت مضى؛ كان سامق القامة (ست أقدام، وخمس بوصات ربما، أو ما يقارب ذلك)، رغم أن الكلمة التي قد يختارها المرء لوصفه ليست «طويل» بقدر ما هي «مَديد». قدمان مديدتان، ويدان مديدتان، وأصابع مديدة، حتى عنقه كان مديدًا، وحنجرته شديدة البروز إلى حد أنها في زوايا إضاءة معينة تلقي ظلًّا خاصًا بها، ومثل كل الكهنة الطرواديّين، كان قد طلا وجهه باللون الأبيض، وأطّر عينيه بالأسْود، ما يعطي نفس تأثير لبسِ قناع يحصن أفكاره خلفه، وإذا

ما أضيفت إلى ما سبق لثغة طفيفة تحولَت أيّ كلمة تبدأ بحرف «س» إلى هسيس، يصير مفهومًا لمَ كان الإغريق يجدونه مخيفًا وسخيفًا في الوقت نفسه. كانوا يشعرون أنه مخنّث، وأزعجهم ذلك، لذا كانوا يسخرون منه، لكنهم يخشونه في الوقت نفسه.

صرتُ لا أبعد عنه أكثر من بضع أقدام الآن، وما زال لم يتحرك، فحملني الفضول على التوقف، وإرسال نظري في الخليج، محاولةً حل لغز ما كان يجده ساحرًا إلى هذا الحد، ولم أستغرق وقتًا طويلًا. كان ثمة طير أسود عملاق -وإن كان ممكنًا أنه بدا أسود قبالة وهج السماء البرونزيّ فقط- يحلّق عاليًا فوق الموجات. على امتداد الشاطئ، كانت النوارس تتجمع وتنشق متفرقةً مثل زخّات الرذاذ، لكن هذا الطير ظل يحلّق بدقة وقصد، مثل بومة تمشط مرجًا بحثًا عن فريسة، وفجأةً انقضّ مادًّا في اللحظة الأخيرة رجلَيه الصفراوَين كثيرتَي العقد. اندفع رَشَاش، وبدَت لمعة من فضة، ومن ثم راح يكافح ليعلو، وجناحاه القويان يفشلان في الفرار من جرجرة الماء. للحظة، ظننتُ أن الماء ربما ابتلعه، لكن لا، فقد حارب ببطء شديد، شاقًّا طريقه إلى الجو. كان قد بلغ مقصده تقريبًا وقتما قبضَت نفخةُ ريح عليه، وعصفَت به بعيدًا عن مساره، ليقع مرتطمًا بالرمل البليل على بُعد بضع ياردات مني فقط، وبوخزة إشفاق، راقبتُه يحاول التقاط أنفاسه. لا شيء آخر يبعث على الإشفاق، فالكتفان عضلتان محدبتان صِرفيّتان، والمنقار مُصَمم لتمزيق اللحم الحيّ عن العظام، والعينان الذهبيّتان الباهتتان البرّاقتان والعازمتان، كانتا عينَي أجاممنون.

راح يجمع شتات نفسه بينما راقبتُه، فبدأ الجناحان الجباران بالرفرفة، وأقلع في آخر الأمر، وهو لا يزال قابضًا على السمكة الخفاقة بين مخالبه، وبعد أقل من دقيقة، صار محض نقطة سوداء في فُرن السماء الأحمر. استدرتُ متحمسةً إلى كالخاس: «ألم يكن ذلك مذهلًا؟». لم أقصد العُقاب البحريّ بعينه فحسب رغم أنه كان مذهلًا، إنما قصدتُ الزلّة التي عصفت به بعيدًا عن مساره. كان ثمة شيء صادم في ذلك، مثل رؤية أخيل يرمي رمحًا، ويخطئ هدفه.

حدّق كالخاس إليَّ. توقعتُ منه أن يشاركني حماستي، لكنني لم أرَ إلا الحذر في العينين المُحاطتَين بحلقتَين سوداوين. كان عرّاف طيور، لذا قضى بطبيعة الحال حصةً كبيرةً من وقته في مراقبتها، وإن كنتُ أشك أن حصةً أكبر كانت تنقضي على مراقبة الرجال. من الأنفذُ حاليًّا؟ من يصعد السُلم المتقلقل؟ من ينبغي استرضاؤه؟ من يُؤمَن تجاهله؟ وقبل كل شيء، ما الذي أرادت هذه المرأة التي تسأل هذا السؤال بعينه في هذا الوقت بعينه أن تسمعه؟ أمكنني رؤيته يحاول استنتاج من أكون، وما إذا كنتُ جديرة بإزعاجه، إذ لا ينبغي نسيان أني كنتُ أَمَة حتى عهد حديث، بعيدةً عن اكتراثه بُعد بزّاقة. في آخر الأمر، وبعد وقفة مُسهبة، أومأ برأسه: «أجل، في غاية الغرابة». جامد، مُتكلِّف، مختال، كلها على العموم صفات قياسيّة للرجل. كنتُ مسيئة الحكم عليه.. مسيئة للغاية، لكن هذا ما ظننتُه حينها.

- ما معنى ذلك برأيك؟

سؤال عابث بعض الشيء.

- آه! إن تفسير النُذُر يتطلب ساعات من التفكير والصلاة.

أكرر قولي: «إنه جامد!»، فكيف له ألا يتأثر بالتجربة التي تشاركناها للتو؟! لكن ذلك لم يمنعني من الانحناء اعترافًا بحكمته الفائقة، ثم راقبته يسير شطر مجمع أجاممنون، منتبهةً إلى تباطؤ خطواته مع دنوّه من البوابة. تقول الشائعة إنه قد فقد حظوته، وإن أجاممنون لم يعُد يكلف نفسه عناء استشارته، وعند رؤيته يتهادى على تلك الشاكلة، يكاد يجرّ قدمَيه حرفيًّا، لم أجِد صعوبةً في تصديق ذلك.

منذ سقوط طروادة، عشتُ الساعات التي تمر طويلةً، دون طاقة ولا أمل. والآن على حين غرة، شعرتُ أنني أضج بالحياة مجددًا، كنتُ أكثر من متحمسة، كنتُ نشوانة. بطريقة ما، غيّر التقائي العُقابَ كل شيء. لقد تلاقيتُ وجهًا لوجه مع واحد من أسياد الحياة، ونهضَت التجربة بحالتي المزاجيّة نهضةً لا تُصدَّق، وإن كان الأثر الذي خرجتُ به أثر وحشيّة صِرفة. بصفتي امرأةً تعيش في هذا المعسكر، كنتُ أبحر في عالم عسير وخطِر، لكن العُقاب مالك لكل ما يراه بالحق، لأنه محض كمال؛ كل ريشة، كل حنية في ذلك المنقار الأعقف، كل التِماعة من عينيه المُنارتَين بضوء الشمس، كلها تمامًا

كما ينبغي لها أن تكون. كان أكبر سنًا من الآلهة، ولوهلة، لوهلة فقط، علوتُ محلقةً هناك في الأعالي معه، أرنو إلى البحر المُغضّن، والمخلوقات المغلولة إلى الأرض تكدح في الأسفل البعيد. وقتما نظر إلى الأسفل، رأى... طعام العشاء، لا شيء آخر، لا شيء معقد، لا شيء عسير، ولا شيء من الممكن أن يشكل تهديدًا، إنما مجرد عشاء. ثمة جلال في بساطة الأمر، وكرهتُ فكرة أن يحشر كالخاس أصابعه الملوّثة في حشاياه محاولًا استخلاص معنىً. كان العُقاب نفسه معنى!

في تلك الليلة، رقدتُ صاحيةً أفكر في هيلين وهيكوبا، في أختي، التي كنتُ مضطرةً إلى ترجّي أنها ميتة، وفي إخوتي الهالكين. الأفكار نفسها التي تشغلني كل ليلة. لكن حينما نمتُ في آخر الأمر، حلمتُ بالعُقاب، مثلما فعلتُ في كثير من الليلات اللاحقة. وقتما صحوتُ قبل الفجر بقليل، استلقيتُ في الظلمة أنصتُ إلى الريح، وفكرتُ في كالخاس، الذي شعرتُ يقينًا أنه مستلقٍ صاحٍ يحدِّق إلى الظلمة نفسها، يتذكر العُقاب، ويحاول يائسًا استنتاج ما قد تعنيه هذه «الإشارة».. هذا النذير.. «رسالة الآلهة» هذه.

12

ظل اضطرام الطاقة الذي شعرتُ به بعد رؤية العُقاب مرافقي، وظللتُ أبحث عن سُبُل لتحسين أمور الفتيات الحبيسات. إلى حد الآن، لم يكُنّ قادرات على استخدام الفناء خلف كوخهن، لأن قسمًا من السياج قد سُطّح بفعل العصف، أما الآن، وبقدر كبير من عَون ألكيموس، تدبرتُ أمر إصلاح السياج، وتنظيف الأرض. لم يكن ذلك سهلًا، لأن الإغريق يستاؤون من بذل الوقت والجهد على أكواخ، هم دائمًا موشكون على مغادرتها، لكن حالما بدؤوا العمل، أنهوه في أقل من ساعة. في تلك الظهيرة، خبزتُ كعكات، وصينيّتَين واسعتَين من الحلويات، ونحّيتُها جانبًا لتبرد. كنتُ سئِمةً من وحشة كوخي، وأتطلع إلى أمسيّة مع النسوة الأُخَر.

لم يكَد يحل الليل حتى ساعدتني ثلاث من الفتيات في حمل صينيّات من الطعام، وأباريق من الخمر إلى الفناء، وفرشناها على بُسُط حول النار. خرجت الفتيات الأخريات من الكوخ محتاطات في بادئ الأمر، مثل حيوانات أُخرِجت من حظيرة، وأخذَت تتشمّم الهواء. نظرَت واحدة أو اثنتان منهن خلفها بالفعل إلى الكوخ، كما لو أنهما شعرَتا بأمان أكثر في الداخل، لكن بدا أن معظمهن يستمتِعن بالحريّة الإضافيّة. كانت النار كالحةً، لكنهن جثَونَ حولها، ينفخن على العساليج، ويطعمن اللهبَ حفنات من العشب الناشف، ليزعقن نصرًا في آخر الأمر وقتما بدأَت حطبة كبيرة بالاحتراق.

أمِلتُ أن تنضم أندروماخي إلينا، لكنها ظلت في غرفتها، فنقرتُ على بابها، وسألتُها ما إذا كانت على ما يرام، لكنني لم أنَل إلا نخرةً ردًا على سؤالي. وعندما عدتُ إلى الخارج، رأيتُ أن النار باتت تُلعلِع الآن، والشرر يتطاير مدوّمًا في السماء، والظلال تترجرج على وجوه الفتيات. كان الهواء نقيًا، لكنه

بارد، فاحتشدنا حول ألسنة اللهب، وأصابع أقدامنا لا تبعد إلا إنشات عن حجارة الموقد. كنتُ قد جلبتُ طبولًا ومزامير، فقد احتفظ ألكيموس بمجموعة هائلة من الآلات الموسيقيّة في كوخه. قلتُ لنفسي: «ربما تجيد فتاة أو اثنتان العزف على المزمار، وبوسع البقية تدبُر ضرب الإيقاع على الطبول بالتأكيد». جلبتُ قيثارة ألكيموس أيضًا -بإذنه طبعًا-، وإن تحتّم عليَّ معاملتها بحرص، ومسحُ أيّ آثار أصابع دبقة عنها، ذلك أنها آلة كيّسة وثمينة. ليست ندًا لقيثارة أخيل، لكنها أفضل من الغالبية، وكان لطفًا منه أن أعارنا إياها. تبيّن أن أمينا تجيد العزف على القيثارة، بل بارعة في الحقيقة، لكن اللُقية الحقيقيّة كانت هيلي، التي ليست تجيد العزف على القيثارة فحسب، بل على المزمار أيضًا. في حياتها السابقة، كانت فنانة ترفيهيّة شعبيّة، راقصة وعازفة وبهلوانًا، وتجربتها بعيدة عن المعيشة المحميّة للفتيات الأخريات بقدر ما يمكن للخيال أن يشط. كانت أَمَة، كما تكون الفنانات المشابهات في الغالب، رغم أن أفضلهن مشهورات في جميع أرجاء المدينة.

وأخيرًا، استقررنا جميعًا، وأومأت أمينا وهيلي برأسَيهما إشارةً إلى استعدادهما، فقلتُ: «بِلا أشياء حزينة». بدأت الفتيات بطلب مفضلاتهن، وكان الكثير منها أغاني سعيدة، بل مبهجة، لكن حالما بدأ الغناء، بدا أن الحزن متغلغل فيهن؛ أصواتهن جميعًا حزينة، بل منقوعة في الكآبة. ربما تبدو كل الأغاني كذلك حينما تُغنَّى في الغربة. سرعان ما انهمرت دموع العديد من الفتيات، وناحت مايري (وهي فتاة بليدة، يلتقي حاجباها في المنتصف) بالطبع، لكنهن واصلن الغناء رغم هذا، وحتى البنتان اللتان لا تزالان عاجزتَين عن الكلام تمامًا غنّتا، وقد أذهلني ذلك. لم أدرك حتى آنذاك أن الذين بكَمَتهم الصدمة لا يزالون قادرين على الغناء.

حدّقت هيلي، التي كانت بعيدةً كل البعد عن التعاطف، تحديقةً مرتابةً إلى الفتيات الناحبات، وبدأت بعزف لحن سريع وحانق إلى حد أنهن عانَينَ ليجارينه، فرُحْنَ يصفّقن، ويبربرن حتى انهَرنَ مع المقطع الختاميّ من الطبول إلى قهقهات واهنة.

«مرة أخرى!»، وقفتُ رافعةً ذراعيَّ لأحثهن على فعل المثل، ونهَضنَ واقفات الواحدة تلو الأخرى. بدأت الموسيقى مجددًا، إلا أن خبط أقدام بات

يرافقها الآن أيضًا، ووثبت ظلالنا التي ألقتها النار من فوق الأسوار التي سيّجتنا، وهربَت في الليل.

عندما قعدنا كلنا مجددًا، لمحتُ أمينا في الجهة المقابلة، غير أنها كانت منشغلةً بضبط أوتار القيثارة، وتلافَت نظرتي بعناية. بدأ هذا يتحوّل إلى وتيرة برعَت في الحفاظ عليها، فلم يبدُ عليها أنها تتلافاني قط، لكن بطريقة ما، صادف أن تكون دائمًا في الطرف الآخر من الغرفة، أو كما في هذي الحال، من النار. أزعجني ذلك، لكنني دفعتُه جانبًا، لم أرِد أن يفسِد أيّ شيء هذه الأمسيّة.

عندما فرغَت من معابثة الأوتار، بدأَتْ بغناء أغنية حُب. كانت تتمتع بصوت عالٍ ونقيّ، مثل صوت صبي قبل أن يتغير، وهذه ميزة قليلة الوجود في صوت امرأة، وهي ساحقة للقلب وقتما توجَد. عاد الكثير من الفتيات إلى البكاء، وتساءلتُ: كم منهنّ كنّ موعودات بالزواج بشبان ترقد جثثهم متعفنةً داخل أسوار طروادة الآن؟ إنهن في حاجة إلى الحزن، لكنني بعد فينة بدأتُ أشعر أن النواح قد طال بما فيه الكفاية، فنظرتُ إلى هيلي، التي لوّت قسمات وجهها، وهزت كتفيها: «ما الذي يسعكِ فعله معهن؟»، لكن بعد لحظة من ذلك، وثبَت واقفةً على قدميها ترقص، وتصفق بيديها فوق رأسها بالتزامن مع ضربها الأرض برجلها، فالتقطتُ طبلًا، مثلما فعل العديد غيري، وراح البقية يصفِقن، وسرعان ما صرنا جميعًا نسيّر الإيقاع بطرق شتى.

لم أرَ قبلًا فتاةً ترقص مثلما رقصَت هيلي في تلك الليلة، فالفتيات يرقصن في الأعراس والمهرجانات الدينيّة، لكن دائمًا باعتدال، مغطّيات من الترقوتَين إلى الكاحلَين بأثواب فضفاضة، حذرات ألا يتركن بصرهن يسرح أبعد من حركات أقدامهن. أما هيلي، فكانت ترتدي غلالة بلا أكمام، وحَرفها فوق ركبتَيها: أي غلالة رجل فعليًا! أخذ جلدها المُزيّت يتلألأ في ضوء النار، وشعرها المضفور بإتقان يتهادى حول كتفَيها، بينما استقام الضرب والتصفيق، واسترسل.

من بين كل الفتيات -حسنًا، بمعزل عن أمينا- هيلي هي الوحيدة التي قاومَت. لم يكن ثمة الكثير في المعسكر ممن لم يخسرن جميع أقربائهن الذكور، وبما أن النسوة المتقدمات في السن أُرسِلن إلى أسواق النخاسة،

خسرَت الفتيات الصغيرات أمهاتهن أيضًا، وهيلي الوحيدة التي لم تُبدِ أيّ دليل أسى. كانت قد رأت مالكها يتلقى رمحًا في حلقه، ويتخبط على الأرض مثل سمكة مَصِيدة، ثم يختنق لافظًا روحه أمام عينيها، وعندما غمغمتُ بعض كلمات التعاطف المترددة، ضحكَت بصوت عالٍ، وقالت: «أوه! لا عليكِ، كنتُ راغبةً بفعل ذلك منذ سنوات».

اشتُرِيَت، وهي صغيرة جدًا؛ لا تزيد على ست أو سبع سنوات، ولا تحفظ أيّ ذكرى عن حياتها قبل ذلك اليوم في سوق النخاسة، لذا فقد وُلِدَت في الواقع في حياة من الألم الجسمانيّ. اختارها مالكها عبر طيّ إبهامَيها بالقوّة خلفًا حتى لمسا معصمَيها، ثم جعلها تستلقي على ظهرها، بينما راح يلوي ساقَيها ليًّا دائريًّا في منبتَيهما. درّبها لتكون بهلوانًا ومغنيةً، وراقصةً وعازفةً، وكانت المؤدية النجمة في الجوقة التي دام حضورها في بلاط بريام. بالطبع، أتاحها مالكها لخدمات أخرى أيضًا، لكن لأرفع الزبائن مستوىً فقط، وبثمن فاحش حتى آنذاك. يا لهيلي البائسة! هي في بعض النواحي أكثر من يرثى لها من بين كل الفتيات -رغم أنها لم تكُن لتقول ذلك بكل تأكيد!- أجل، كانت خاليةً من الحزن، لكن ذلك، لأن حياتها السابقة كانت خاليةً من الحب فقط.

تزايدَت سرعة ضربات الطبول والتصفيق لتواكب قدمَي هيلي الراقصتَين، فتساءلتُ: لمَ تسكب كل هذا الجهد في عرض لجمهور أنثويّ بالكامل، في حين كانت تعامل بقية الفتيات بازدراء كبير على الدوام؟ للمتعة المحضة ربما؟ استحالَت رقصتها مغازلةً مع النار، فراحَت تقترب منها بالقدر الكافي لتستدرّ آهات دهشة من الفتيات، ثم تتراجع قليلًا، لتنتفض مجددًا مثل عثة يجتذبها اللهب. تهلّل ضوء النار على ذراعَيها وساقَيها، التي كانت هيفاء، لكنها قوية العضلات، وبدَت مثل صبي رشيق جميل غير أنه لا يزال صبيًّا. وكانت رقصتها رقصةَ محارب.

خارج دائرة الضوء، ظل ظلها رفيقها، مترجرجًا على طول السياج، وأنارَت النارُ وجوه الفتيات المتفرّجات المستغرقات في الموسيقى أتم الاستغراق. حتى إن واحدة أو اثنتين منهن وقفَتا، وأخذتا تضربان بأقدامهما أيضًا، وإن لم يُفِد ذلك إلا زج رشاقة هيلي وقوتها في ارتياح أكثر أناقةً. أجَلتُ نظري حول الدائرة، ثم رجعتُ به إلى ظِل هيلي الراقص. أدركتُ وجود شيء عند

حدود بصري، في البداية، عجزتُ عن تصوّر ماهيته، لكن بعدئذ جذبَت حركة من داخل الكوخ انتباهي. أمِلتُ أنها أندروماخي، وأنها قررت الانضمام إلينا في النهاية، لكن بعد لحظة، ميزتُ بيروس يحدِّق عبر الظلام، كان يتمتع بكل الحق في الوجود هناك، فهو مالك الكوخ، وكل مَن فيه.. إلاي. داريتُ تلك الفكرة، محتضنةً إياها قبالة الظلام.. إلاي.

بدأت الطبول تقصف الآن، وعندما رأيتُ هيلي تقيس ارتفاع النار، حاولتُ أن أصرخ: «لا!»، لكنها جعلَت تعدو بالفعل، وقبل أن أتمكن من قول أيّ شيء، كانت قد وثبَت عاليًا في الجو، وحطّت بخفة في الجهة المقابلة. دوّمت ألسنة اللهب في ريح عبورها، كما لو كانت تمتد لتقبض عليها، لكنها وقفَت هناك فحسب، تضحك وتلكم الهواء مثلما يفعل الرجال بعد أن يكسبوا سباقًا. سألتُها: «هل أنتِ بخير؟»، فمدَّت -من قبيل الرد- ساقًا مليحةً ناحيتي. لم أتمكن من رؤية شيء في بادئ الأمر، لكنني من ثم لاحظتُ رقعة حمراء فوق كاحلها.

«قُبلة نار»، لا بد أني بدوتُ قلقةً، لأنها ضحكَت مجددًا، وقالت: «ليست مؤلمة».

انسلّ نظرها إلى باب الكوخ، لكن بيروس قد انكفأ إلى الظلال. إذن، هي تعرف أنه هناك، كانت تعرف طوال الوقت.

فاحَت نشقَة دخان من شعرها المجدول، بينما قعدَت من أجل الأنخاب وكأس من النبيذ. بدَت أمينا وحدها غير متأثرة، بل مستنكرةً قطعًا في الحقيقة. حدَّقت هيلي إليها مباشرةً، ورفعت كأسها في نخب هازئ. توجستُ أن واحدتهما تكره الأخرى، وكان هذا مؤسفًا، ذلك أن كلتيهما شخصية قوية، قائدتان بالفطرة، ويمكنهما معًا فعل الكثير، لكن لم تبدُ أيٌّ منهما ميّالة إلى تولّي الدور الذي ينبغي أن يكون لأندروماخي شرعًا. أمينا، لأنها تتبع درب النقاء الدينيّ المباشر والضيّق. وهيلي، لأنها مركزة حصريًا على نجاتها الشخصيّة، أما بقية الفتيات، فكُنّ تائهات فحسب.. كلهن تائهات. لذا، أخال أن الأمر آلَ إليَّ. كنتُ أعرف أنهن يُجلِلنني، ويثِقن بي، وذلك ببساطة، لأنني نجوتُ في هذا المكان الكابوسيّ الذي جلبتهم خسارة منازلهم وعائلاتهم إليه.

بعد وقت غير طويل، أرسل بيروس في طلب هيلي، بل على الفور تقريبًا، وفي الحقيقة، بينما كنا لا نزال جالسات في الفناء، بالكاد أسعفه الوقت ليرجع إلى الردهة. صاحت هيلي: «مرحى!»، رافعةً كلتا يديها فوق رأسها. ظننتُ أن هذا آخر ما سنراه منها حتى الصباح، لكن حينما تفرقنا عن النار أخيرًا، وجدناها منطويةً على نفسها في تختها، والبطانيّة مشدودة حتى ذقنها. سألتُها:

- ماذا حدث؟

- لا شيء حدث. أرادني أن أتفرّج عليه، وهو يُسعد نفسه فحسب.

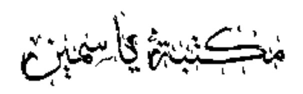
نظرت الفتيات واحدتهن إلى الأخرى، وأدركتُ أن ولا واحدة منهن تعرف معنى الكلمة. كان ذلك شاذًّا! وليست هذه المرة الأولى التي أدرك فيها الشذوذ، فبيروس شاب لمّا يبلغ أشده، ولم يُظهر رغم ذلك إلا اهتمامًا طفيفًا بهذي الفتيات، وحتى إرساله في طلب هيلي، لم يكن قد أظهر أيّ اهتمام البتة. وبدا أنه ينظر إلى نومه مع أندروماخي على أنه عقاب أكثر منه متعة. لم يقل ألكيموس شيئًا عن الأمر، ربما لم يكُن مدركًا له وحسب، رغم أني تساءلتُ ما إذا كان جزءًا من تلك المحادثة الصامتة التي يضطلع وأوتوميدون فيها معظم الوقت.

بعد نصف ساعة، وأنا آمنة ومطمئنة في سريري، عدتُ بذاكرتي إلى الأمسيّة، وفكرتُ في أنها كانت نجاحًا باهرًا. من البيّن أنها كانت لتصير أفضل بكثير لو انضمت أندروماخي إلينا، لكن حتى دونها، تحزّبت الفتيات في مجموعة بطريقة لم يفعلنها قبلًا قط. كنتُ مسرورة، وظللتُ أخبر نفسي كم أنا مسرورة! ذلك أنني أدركتُ انزعاجًا ينمو، وعجزتُ عن تحديد موضعه، لأن بيروس استدعى هيلي؟ لا، ليس هذا، فاختياره إياها خير من اختياره غيرها من الفتيات، وبأيّ حال، لم تُطِق صبرًا حتى تدخل الردهة، وكانت شدة توقها عارية. لا، لا جدوى من ذلك، عجزتُ عن تحديد سبب شعوري بأن شيئًا ما ليس على ما يرام، لكنني لم أنتِ الاستلقاء صاحية والقلق حياله.

بعد أن نفختُ الشمعة، جذبتُ الأغطية، ورحتُ أحدِّق إلى الظلام، وعيناي تتحرّقان من دخان النار. كان بمقدوري شم رائحتها على جلدي وفي شعري. حمّام.. غدًا.. أول الصباح. طوال الوقت، ظل دماغي -لا إراديًّا- يمضي ممحّصًا

أحداث المساء. ما الخطب؟ شيء ما ليس في مكانه! ومن ثم أدركتُ وأنا على شفا النوم، في تلك اللحظة، عند النهاية تمامًا، وقتما تحلّقت الفتيات حول تخت هيلي ووجوههن ملأى بالفضول والخوف، نقّلت نظري حول الدائرة ملاحظةً كم كنّ حيارى وجاهلات. أغمضتُ عيني الآن، محاولةً إعادة خلق ذاك المشهد، لأنني محتاجة إلى التيقن، وعلى مهل، واحدًا واحدًا، راحت الوجوه تعوم إلى ضفة الوضوح، وحتى البنتان البكماوان اللتان ما زلتُ لا أعرف أسماءهما. كلهن، إلا أمينا.. أمينا لم تكن هناك!

قلتُ لنفسي: «إن ذلك غير مهم، وإنها على الأرجح تخلفَت في الفناء لتجمع الكؤوس، وتخمد النار ليس إلا». كان ذلك ليشبه طباعها، فدائمًا ما ترتب الفوضى في الكوخ بالغ الازدحام، وتصير نزقةً ومحبطةً حينما لا تحافظ بقية الفتيات عليه كما تركَته. ومع ذلك، قلقتُ بعض الشيء، حتى إني تساءلتُ عما إذا كان ينبغي لي النهوض لأطمئن، وأرى ما إن كانت بخير، لكنهن سيكُنّ نائمات الآن. لا، يمكن للأمر الانتظار حتى الصباح. رحتُ أتقلب من جانب إلى جانب، بينما راح الجنين يتشقلب مثلما يفعل دائمًا إذا ما كنتُ مستاءة. وجدتُ في آخر الأمر وضعيّةً ناسبت كلَينا، لكن رغم ذلك، مر وقت طويل قبل أن أغط في النوم.



13

يحلُم كالخاس -مثلما بات يفعل في غالب الأحيان- بطفولته في طروادة، قبل وقت طويل من صيرورته كاهنًا، يرجع إلى أيام كان فيها مُتدرّب أبيه، اسميًّا على أقل تقدير، في ورشة الحدادة. صبي ناحل البدن، شاحب الوجه، أخرق، وبطيء الاستجابة لأوامر أبيه الجِلفة، ولا يقترب من حدود السرعة الكافية لمراوغة قبضتَيه. وميّال إلى الانسلال إلى المنزل، حيث تخبز أمه في المطبخ، وإلى روائح الخبز والقرفة، ولفحة الحر، وهي تُخرج الأرغفة من الفرن، وتُبرز شفتها السفلى لتنفخ خصلات شعرها عن وجهها المتوَرد. تتوقف لحظة عندما يدخل بغتة، ويرص وجهه المتورّم على جنبها الساخن، لكنها لا تجرؤ على قول الكثير، فهي مذعورة من والده حتى أكثر منه. يضطرب كالخاس، ويصحو صحوةً وجيزةً متذكرًا أمه، تبدو له الآن امرأة ضئيلة، فأريّة الطلعة، كانت فيما مضى عالمه بأسره. تصلّي على الدوام، في كل عيد في المعبد، أعساها واقعة في حب الكاهن بعض الشيء؟ كدمة هنا وكدمة هناك، وإن لم يكن بينها ما لا يملك زوجها كامل الحق في إنزاله، ولم تتذمر، غير أنها تمنّت فقط لو لم يكن بهذه القسوة على الصبي. ومن ثم، ذات يوم، أبرز الحل البديهيّ نفسه. يتذكره كالخاس على أنه يوم من كلام خلف الأبواب المغلقة، زمجرة أبيه تهدر بلا توقف، ثم يعلو صوت الكاهن هزيلًا، لكنه سلطويّ فوقه، وفجأةً يحزم ممتلكاته القليلة معًا، ويتبع الكاهن متخلفًا عنه ثلاث خطوات (دليل احترام) على طول الأزقّة الضيقة المتعرجة، والشوارع المكتظة التي هي كل ما عرفه حتى اليوم، إلى الميادين التي تنيرها الشمس والمعابد البهيّة بجوار القلعة. الروائح مختلفة هنا؛ ورود وبخور، والرائحة الحديديّة لدم الأضاحي، واللحم، لحم كثير طوال الوقت. يترك خلفه الروائح البغيضة لمدبغة الجلود، ومصنع الغراء، ومسلخ الخيول، رغم أنها

ظلت عالقةً على جلده حتى حظيَ بالحمام الشعائريّ، ومن ثم اختفَت، آخذةً معها رائحة الخبز والقرفة.

يُسمح له بزيارة المنزل مرةً كل شهر، ويتوق في بادئ الأمر إلى هذا اليوم، محصيًا الأيام على الأرض بقطعة من الحجر الطباشيريّ، لكنه بعد ذلك ومع كل زيارة، يتوقف تصاعديًّا عن الانتماء إلى الحيّ وحتى إلى منزله، كما لو كان على متن سفينة تمخر البحر مسرعة، وأمه محض جسد ضئيل، يلوّح له عن الشاطئ.

بعد ليلة من الأحلام المشوّشة، يستيقظ بفم جاف، وجفنَين ملتصقَين، ذلك أنه لا يشرب الخمر القويّة كثيرًا، لكنه شرب ليلة البارحة، ورأسه يقصف. كان قد قضى الأيام والليلات المنصرمة منتظرًا دعوةً من أجاممنون يعرف أنها لا بد قادمة عاجلًا، لكن حينما طُرِق على بابه بعد طول انتظار، لم يكن القوام المهيب لمنادي الملك ما يراه واقفًا هناك، بل أَمَة السيد نسطور، «جائزة شرفه» كما يقول الإغريق. يتذكر هذه الفتاة بصورة مبهمة من المرات التي تعشّى فيها في ردهة نسطور، رغم أنه استغرق بضع ثوانٍ ليستذكر اسمها. هيكاميد، هذا هو. أول فكرة في باله هي أن نسطور مات (فقد شاعت الشائعات حول صحته منذ قُتل أصغر أبنائه)، فشعر كالخاس بمخه ينتفخ جراء مجهود حساب ما سيعنيه موت نسطور بالنسبة لميزان القُوى الهش أصلًا داخل المعسكر، لكنه يدرك بعد برهة أن كل هذا هراء، فأخبار وفاة الملوك يُعلنها المنادون، لا تحملها الإماء. ما زال يجاهد ليصحو، لينفض عنه بواقي النوم الأخيرة، وعندما تنطق الفتاة أخيرًا، تقول بصيغة حلوة ومحتشمة على نحو استثنائيّ:

- هيكوبا ترغب برؤيتك.

- هيكوبا؟

تغمره حنقة مباشرة. أحقًا حَقُر مقامه إلى حد يمكن معه أن تستدعيه أَمَة لرؤية أَمَة؟! لأن هذا واقع هيكوبا الآن، ولا فرق يشكله أنها كانت ملكة طروادة فيما سبق، لكنه يبدأ بعدئذ في تذكُّرها على سابق حالها. دائمًا ما كانت تحضر -وبريام أيضًا بالتأكيد- في المعبد في الأيام المقدسة خِصِّيصَى لأبولو. عندما رآها أول مرة، لا بد أنه كان يبلغ... كم؟ أربع عشرة.. خمس

عشرة سنة؟ ربما أكثر قليلًا، وعندما ركع ليقدم لبريام الشقف الأولى من لحم الأضحية، اختلس نظرةً إليها، حيث جلست في روب موشّى بالذهب، وماسات تومض في شعرها. ترى كم كان عمرها؟ لم تكن شابة، حتى منذ زمن بذاك البُعد، ليس ممكنًا أنها كانت شابة، ولم تكن جميلة، ليست كما كانت كثيرات من محظيّات بريام؛ جميلات، لكنها امتلكت صوتًا استثنائيًّا أشد ما يكون؛ صوتًا أعمق من أصوات النساء عمومًا، مع بحّة قد تكون غير سارّة، بيدَ أنها لم تكن. فكر بها في وقت لاحق، وهو مستلقٍ في تخته يحاول النوم، بينما كل مشاهد العيد، وأصواته تحوم داخل رأسه، وصوتها يحثه على تصوُّر أظافر امرأة تُجرّ على ظهر رجل نزولًا من قفا عنقه إلى شق عُجيزته، لكن بلطف.. بلطف شديد، غير تاركة إلا أوهى علامات الخمش على الجلد. كان في السادسة عشرة؛ سن يكون فيها الجنس كل ما يشغل بالك فعلًا.

- ما الذي تريده؟

- لا أعرف يا سيدي، لم تقُل.

- حسنًا، قولي لها... (يعض على شفتيه لاجمًا الكلمات).

وقفت الفتاة، تتنفس برفق.

- قولي لها إنني سآتي حينما أستطيع.

لا يوجد شأن يستبقيه في مجمع أجاممنون، لكنه لا يُطيق المغادرة. ينتظر في كوخه طوال اليوم، ولا تأتي الدعوة، لذا ينطلق في آخر الظهيرة إلى مجمع أوديسيوس، وظِله يمتد بعيدًا أمامه على طول الشاطئ. مُحبَط وفي مزاج شكِس، بلى، لكن الفضول يستحثه أيضًا. يذهله إدراك أن موجةً تحتيّة واهية من الإغواء لا تزال موجودة، لكنها عجوز الآن، وتبلغ من كِبر السن ما يمنعها من استثارة مشاعر من هذا الصنف.

يجدها مستلقيةً على تخت، ورأسها محمول على مخدتَين، ما يثبت أن بعض الجهد قد بُذِل لإراحتها، وإن كانت البطانيّات التي تضطجع تحتها بعيدةً كل البعد عن النظافة، وحين دفعتْها جانبًا، نسّمَت ريح سقم ولحم مُسِنّ. يتمنى لو أنه تذكر إحضار نصف الليمونة المحشوّة بالقرنفل التي دائمًا ما يحملها متى ما اضطُر إلى زيارة الأقسام الأنتن من المعسكر.

- هيكوبا..

دون ألقاب، فما جدوى التظاهر؟

ترفع نظرها إليه:

- اقعد بربك يا رجل. لطالما كنتَ حطيط القدر والقيمة.

الصوت الحميميّ الكالح الكاشط نفسه، يخصّه مخرِجًا إياه عن ردود أفعاله المقررة سابقًا، فيجول بنظره حول الشرذمة الصغيرة الرجسة المسماة كوخًا، ويلحس شفتَيه مثل كلب حائر، ومن ثم، على نحو غير متوقع وغير إراديّ، يقعد. فاجأ نفسه، لكنه لم يفاجئها، فقد كانت معتبرةً إذعانه أمرًا بديهيًّا. ينظر إليها، يرى عنقها المتجعّد، وبُقع التقدم في السن على جلدها، يرى كل شيء، لكن لا شيء منه يهم. تدير رأسها، ويعود صبيًّا من جديد.. راكعًا عند قدمَي بريام، يرنو إليها جانبيًّا.

تمد يدها، وتتناول إبريقًا:

- صُبّ كأسًا لنفسك. إنه زبالة، لكن إن كنتُ قادرةً على شربه، فإنني -والجحيم- واثقة أنك قادر.

- لا، أشكركِ.. ليس الآن.

يسمع نفسه: «متكلف، ومتحفظ، ومتبلد!»، وتشرد عيناه إلى الكعكة الجالسة على الصحفة بجوار تختها. تدفع الصحفة ناحيته:

- تفضّل، اخدم نفسك، أنا لن أقدر على أكلها. إنها من صنع هيكاميد، ولن تحظى بأحسن منها في أيّ مكان.

- لقد رأيتُها هذا الصباح.

- بالطبع فعَلْت، فأنا أرسلتُها.

إنها مسبتدة، كما كان شأنها دائمًا. يتذكرها مثلما كانت وقتما رآها أول مرة؛ امرأة قصيرة نحيلة، ذات بشرة سمراء، وعظمَي خدَين مرتفعَين، وعادة طريفة في مص جوف خدَيها، كما لو أنها قد تذوقت للتو شيئًا حامضًا حموضةً مفاجئة. أعساه في سن متقدمة، ينفع المرأة حقًا ألا تكون بارعة الجمال؟ أبقَت هيكوبا بريام راغبًا، ومبتهجًا، ومغتاظًا، ومحبطًا، ومُضلَّلًا تمامًا خلال خمسين عامًا من الزواج. الله وحده يعلم كيف فعلتها! إنها لا تملك

حتى نهدَين جديرَين بالذكر! وقد كانت بذيئة، ويا لقذاعة بعض ما خرجَت به! حطيط القدر والقيمة؟ حقًا؟ أيّ لسان هذا لملكة؟! وقد كانت على نفس القدر من الجرأة في طروادة. ما زال يحتفظ بذكرى واضحة لبريام، وهو يقول: «هيكوبا!»، ورأسه بين يديه، لا يمكنه تذكُّر المناسبة، ربما كان حفل استقبال لسفير أجنبيّ ما.

يسألها، وهو يستخدم سبابته ليغرف كتلة قشدة، ويضعها على لسانه:

- أيحسنون معاملتك؟

- آه، نعم، لا ينقصني شيء.

ليس واضحًا كيف تريد أن يُفهم ذلك، فمقارنةً مع قصرها في طروادة، جليّ أن هذه التخشيبة (لا يمكنكِ إطلاق أيّ اسم آخر عليها) تفتقر إلى الكثير.

- أنال طعامًا، أنال نبيذًا.. نبيذًا شنيعًا لعينًا، لكن... (وهزت كتفَيها) أوديسيوس يريدني أن أظل حيّة. يريدني هدية رَجعة لزوجته تلك.

- لبينيلوبي سمعة ممتازة بالفعل.

يا الله! يبدو في غاية الغرور، كيف تحول إلى هذا الشخص؟

- أعتقد أنها ستعاملكِ بلطف.

- أوه! أجل، أعرف ذلك، أعرف. بينيلوبي الوفيّة، بينيلوبي المخلصة، بينيلوبي الحكيمة... كنتُ كل هذي الأشياء، ولم تُسدِني أيّ خير البتة!

وفيّة، نعم، مخلصة، نعم، لكن حكيمة؟ يصير فجأةً متلهفًا للمغادرة، للعودة إلى كوخه، وانتظار الدعوة الحقيقيّة؛ تلك التي تهم فعلًا، لكنها تحتجزه هناك، بقوة الإرادة المحضة على ما يبدو، وقد سئم ذلك؛ سئم غطرسة هؤلاء الناس الذين يؤمنون بأنهم مولودون ليحكموا، وعندما ينقلب القدر عليهم، لا يمكنهم -أو لا يريدون- التكيُّف. وهي راقدة هناك في أطمارها الوسِخة على سرير أَمَة، لا تزال في مخها الخاص ملكة. لعله وجد ذلك مثيرًا للإعجاب فيما سبق، لكن ليس الآن، فالحكماء يعدّلون أشرعتهم وقتما تتبدل الريح، لا يبحرون بطيش إلى النوّ. يتحرك لينهض، لكنه بعدئذ ينظر إليها مرة أخرى، ويميّز نوعًا مختلفًا من السلطة في عظْمَتي الوجنتَين الواضحَتين، والصدغَين الأجوفَين. يرى أنها تحتضر، وأنها تعرف أنها تحتضر، وهذا ما يمنحها القوة،

لا تقودها تلك الفكرة الواهمة بأنها لا تزال ملكة. يرى أنها لا تخشى أحدًا، إذ لم يعُد لديها ما تخسره، ولا حتى حياتها.

«حسنًا، لقد استمتعتَ بذلك من كل بد».

يخفض نظره إلى الصحفة، وترعبه رؤية أن الكعكة قد اختفت.. كلها.

تقول هيكوبا بِوَرَع: «الاعتدال في كل شيء. تذكّر، لم تكن دائمًا بارعًا في الاعتدال، أليس كذلك؟».

يشعر بنفسه يحمرّ خجلًا تحت الطلاء. هو يعرف تمامًا إلامَ تشير، إلى واقعة واحدة محددة، وفي الواقع مؤسفة. لمَ تشير إليها؟ هذا هو السؤال. ما زالت لم تقُل ما تريد، ويتساءل الآن عمّا إذا كانت قادرةً على الابتزاز. حسنًا، إن كان كذا، فلن يُبلغها هذا أيّ مبلغ، ذلك أن وقتًا طويلًا جدًا قد انقضى، ولا أحد يهتم، وبأيّ حال، مَن سيستمع إلى أَمَة؟ يبدأ دماغه بالطنين، وهو يحسب تلقائيًا المخاطر والاحتمالات، ويخطط لخطوته التالية. لا ينطوي الأمر على أيّ عاطفة الآن (لا يمكنه تحمُل كلفة العاطفة)، لكنه حينئذ ينظر إلى هيكوبا مجددًا، فيسقط الضوء على وجهها، ويرجع إلى طروادة في كل مرة. كل السنوات في المنتصف، سنوات التآمر، والتظاهر، والصمت وقتما قيلَت أقوال انتهكت كل ما يؤمن به، طُمست كلها، تاركةً إياه محصورًا، عاريًا مثل سرطان ناسك بلا قوقعته.

تقول هيكوبا:

- لكننا استمتعنا، أليس كذلك؟
- ليس تمامًا.
- أوه! بربك، تعرف أننا فعلنا.

بلى، كانت متعة.. متعة عظيمة. يتذكر أمسيّات الصيف الحارة في بساتين بريام، والليلات غير المقمرة حينما بالكاد يتمكن المرء من رؤية الشخص الذي يصطدم به. كان الأمر جذابًا في وقته، لكن منصبه في البلاط أخذ يزداد تقلقُلًا، وبعد الحادث المؤسف بوقت غير طويل، اقترُح بلطف أن كهانة مُتبتّلة قد لا تكون نداءه الباطنيّ الحقيقيّ. فهِم التلميح، وحزم حقائبه، مقنعًا نفسه أنه مرحب بتغيير في المشهد، رغم أنه في الحقيقة مجروح جرحًا بليغًا. خَالَ

أنهم ربما محقون، وها هو بعد عشرين عامًا لا يزال كاهنًا، لا يزال متبتلًا، وإن كان التبتُّل مُراقَبًا بصرامة أشد باعتراف الجميع الآن.

تسأل هيكوبا:

- كيف حال أجاممنون؟

- ما الذي يدفعكِ إلى الظن أنني أعرف؟ لم أرَه منذ...

- منذ أن أديتَ مراسم وفاة ابنتي.

- لم أكُن وحدي، كنا...

كلنا، كل كاهن في المعسكر حضر يومها. كان قد أغمض عينَيه وقتما رفع بيروس السيف، وأبقاهما مغمضتَين إلى أن انتهى الأمر. جبن محض، ورغم ذلك، فشلَت محاولته في إعفاء نفسه، ولا يزال الصمت ذاته يزوره في أحلامه، تشقُّه شهقة الحشد وقتما نزل النصل.

- لقد ماتت بشجاعة.

يبلع ريقه ليزيح الكتلة من حلقه.

- أتعرف أن الرجال يضعون ورودًا على ضريحها؟

- الإغريق؟

- أجل، كانت شجاعة، وهم يحترمون ذلك. وعليك أن تتذكر أن الأمر انقضى بسرعة، خلال ثوانٍ. ماتت قبل أن ترتطم بالأرض.

- أحسب أن عليَّ شكر بيروس على ذلك. حسنًا، أجل، أظن أن عليَّ ذلك، إذ كان من الممكن أن يجعل الأمر فوضى. يعلم الله أنه افتعل خبيصة كبيرة بما يكفي مع بريام. ما كنتِ لتقتلي كلبًا بتلك الطريقة!

- كنتَ هناك؟

- أجل، رأيتُ كل شيء.

تلقي رأسها خلفًا، كاشفةً عنقها وحلقها المتغضّنين، ويخرج صوت جديد من فمها؛ زحار، مثل كلب يوشك أن ينبح. لا يمكنه تحمُل ذلك، عليه أن يشيح بنظره، وعندما يعود به يراها واضعةً أصابعها على فمها، مطبقةً شفتَيها

بالفعل لتمنع الصوت المريع من الخروج. ينتظر ريثما تعيد السيطرة على نفسها، وتستقيم أخيرًا.

- كانت فتاةً طيبةً، بوليكسينا، كانت لتعتني بي (سحبَت نفَسًا مخلتجًا) كنا لتعتني واحدتنا بالأخرى.

- يقولون إن هوسًا قد أصابه!

- أجاممنون؟

- نعم، هو يرسل في طلب ماخاون كل ليلة على ما يبدو. إنه عاجز عن النوم، يجرع كأسًا كاملةً من شربة ماخاون المنوِّمة، ويظل عاجزًا عن النوم. تعرفين أنه لا ينبغي لك شربها مع النبيذ القوي، لكن جربي أن تقولي ذلك لأجاممنون! أوه! ويبدو أنه قد بدأ يرى أشياء.

- أيّ نوع من الأشياء؟

- أخيل.

- أوه! أعرف بشأن ذلك. لهذا السبب تحتّم على بوليكسينا الموت. أعطِه فتاة، فقد يبقيه ذلك تحت الأرض.

- إنه غاضب على مينيلاوس، ويبدو أنهما لا يتكلمان. أتعرفين أنه عاد ينام مع هيلين؟

- أجل، ولستُ متفاجئة. لقد حذرتُه... قلت: لا تُقرّبها منك أبدًا، وأرسلها إلى الديار على متن سفينة أخرى. عرفتُ أنها ستحفر طريق عودتها تلوّيًا، عرفت. أوه! حسنًا، ها أنت ذا، أمسِك بشهوة رجل، ويمكنك سوقه إلى أيّ مكان.

يميل بعض الشيء إلى تفنيد ذلك الكلام الذي يبدو أنه يضمر تحقيرًا لا حق فيه لجنسه. فقد كانت متزوجةً ببريام، بحق السماوات، ما لديها لتتذمر منه؟! ليست مثل والدته البائسة، التي كانت معلّقة برجل مقتّر بماله، وسخيّ بقبضتَيه.

تسأل:

- هل أرسل في طلب كساندرا؟

- أما هذا، فلا يمكنني إخبارك به.

- لا يمكنك، أم لا تريد؟

- حســنًا، لقد تنبأت بموته فعلًا...

- هه، يظنون أنها ستضرم النار في السرير، أليس كذلك؟ تذكَّر، لقد فعلت ذلك مرةً بالفعل. أضرمت النار في السرير، (يرقّ صوتها) كيف حالها؟

- قيل لي إنها أهدأ، لم أرَها بنفسي.

- كان بوسعك طلب رؤيتها بالطبع، أليس كذلك؟

- لا. لستُ أدري لمَن ينصت أجاممنون هذي الأيام، لكن بالتأكيد ليس لي.

- ما برأيك سبب هذا؟

- لا أعرف.

- أوه! بالله عليك، لا بد أن رجلًا ألمعيًّا مثلك يعرف، صحيح؟

- لقد تشاجر مع أخيل مرة، وكانت نصيحتي للمجلس ضده.

- اخترتَ الحصان الخاطئ، أليس كذلك؟

يقول بتصنُّع:

- كنتُ أقول الحقيقة.

- أريد رؤية عزيزتي كساندرا. لقد خسرتُ ابنة، ولا أريد خسارة الثانية.

فجأةً، تبدو منهكة تمامًا. استثنائيّة سرعة انسلال اللون من وجهها، حتى شفتَيها صارتا بيضاوين.

- لا يمكنني مساعدتكِ.

يكره قولها، وإن لم تكن إلا الحقيقة، فنساء أجاممنون يبقين في حبس شديد، ونفوذه في ذاك المجمع أقرب إلى الصفر.

- حسنًا، إذن.. (تضع إبريق النبيذ جانبًا) مع السلامة.

مصروفًا، يقف، وينحني، وبقوة العادة المحضة يبدأ بالتراجع خارجًا من الغرفة، لكنه حينئذ يدرك نفسه بعنف. قد تعاني هي من الأوهام فيما يخص مكانتها، لكن ذلك ليس مبررًا ليشاركها أوهامها. ينقلب على عقبيه، ويسير باستقامة خارجًا من الباب، محاولًا ألا يسمع القوقأة التي تطارده على الدرجات.

14

وقتما ذهبتُ لرؤية هيكوبا مرة أخرى، كان الميدان يُعدُّ لمباراة رماية، فتوقفتُ لحظةً لأرقب تعليق الدرايا، وهي وجوه مطليّة بفجاجة لمحاربين طرواديّين، خلّفتها دورات التدريب في الحرب. كانت تُجرَى مناسبات بقدر الإمكان في الميدان، لأنه محميٌّ نسبيًّا، فبعض الألعاب -ومن بينها الرماية ورمي الرمح- يستحيل إقامتها في أراضي التمرين عند الرأس، حيث تعصفُ الريح عصفًا أعتى من هنا. كنتُ قد استدرتُ، ورحتُ أقترب عبر أطراف الحشد تجاه كوخ هيكوبا، وقتما فُتح الباب، وخرج كالخاس. انحنى واحدنا للآخر، وذهلتُ من تجشمه عناء زيارة هيكوبا، فقد بدا مركزًا تمامًا طوال الوقت على مصادقة الرجال النافذين. لوهلة، حسبتُ أنه بدا راغبًا بالتوقف والحديث، لكن اتضح حينئذ أنه غيَّر رأيه، ووسّع خطاه مبتعدًا.

ما إن دخلتُ الكوخ حتى بان لي أن هيكوبا بدَت أكثر إشراقًا. كانت بطانيّاتها مطويةً بأناقة أسفل سريرها، وهي آخذة بالمشي، رغم أنها مشية متقلِّقة، إقبالًا وإدبارًا في الكوخ.

قلتُ:

- حسنًا، انظُري إلى حالكِ.

ابتسمَت حقًا:

- سيسرني أن أقعد رغم ذلك.

فأعنتُها على العودة إلى سريرها. لكرهي أن أجيئها خالية اليدَين، جلبتُ تينًا وعنبًا، وجبنًا أبيض، وسرّني مرأى هيكوبا تجبر نفسها على ابتلاع القليل. كان ثمة إبريق نبيذ بالفعل على الأرض بجوارها، وكانت معتادةً على

الأنبذة الفاخرة من بلاط بريام، لكنني لاحظتُ من ناحية ثانية أن هذا الشراب الفلاحيّ الفج يعبر حلقها بسهولة كافية، جالبًا بعض التوَرد على خدَيها.

- ما كانت حاجة كالخاس؟

- أوه! وما حاجته أبدًا؟ لا يمكنكِ المعرفة دائمًا، أليس كذلك؟ (بدَت تدرس ما إذا أرادَت قول المزيد) هذه زيارته الثانية. ضحكنا كثيرًا، حسنًا، أنا فعلت. لن تصدقي ذلك، لكنه في شبابه كان مليحًا حقًا، ولا أقصد وسيمًا بعض الشيء فقط، بل فاتنًا بكل معنى الكلمة. (وتنهّدَت) آه! أحسب أنه ينبغي لبعض الناس أن يموتوا شبابًا.

أظنني صُدمتُ بعض الشيء من صفاقتها، والحقيقة أني لم أستطِع مجاراة أمزجتها المتبدّلة، فذات يوم كانت على الشاطئ تعوي على بريام، وفي اليوم التالي ذكرَته ذكرًا عابرًا تمامًا، كما لو أنه قد سبقها إلى الغرفة التالية وحسب. كنتُ في التاسعة عشرة، لا أعرف شيئًا، وقد استغرقتُ قرابة خمسة عشر عامًا لأتمكن من قول: «إنني أفهم هيكوبا».

لكن أمكنني رؤية أنها تقضي وقتًا طيبًا؛ شرب النبيذ، وأكل الجبن، والنميمة...

- كان الجميع يطارده؛ رجالًا ونساءً. وليس ذلك أنه كان سريع العَدو! (وغاص صوتها إلى همس) ذات ليلة، كنتُ وبريام عائدَين من العشاء، ولمح بريام أمامنا شخصًا لم يرغب برؤيته؛ واحدًا من مستشاريه. أوه! لا يمكنني تذكُّر اسمه، لا عليكِ، رجل دمث، لكن يا إلهي، كم كان يثرثر! لذا اتخذنا منعطفًا عبر غرف النوم، وأنتِ تعرفين كيف تفتح واحدتها على الأخرى، صحيح؟ حسنًا، فُتح باب واحدة منها على مصراعيه، وكان كالخاس هناك على أربعتِه بين سيّدَين... وقهقهَت قائلةً: مسدودَ الطرَفين.

- وماذا فعلتما؟

- أوه! أمِلَت سرعة بديهة أحدهم أن عليه أن يصفق الباب، وضحك بريام على الأمر، لكنه كان غير معقول حقًا، أعني، يُفترض بكالخاس أن يكون متبتّلًا. يا إلهي! لقد كان بلوى... لكن انظري إليه الآن... أسبق ورأيتِ مثل هذه العصا قبلًا؟

قضَت وقتًا طيبًا بإمتاعي بنميمة البلاط الطرواديّ. كانت طروادة تُدعى «إليوم المقدسة» فيما سبق، بسبب غزارة المعابد فيها، لكن كان لها جانب آخر، وأدركتُ ذلك بكامل تفاصيله حتى في صغري، وهكذا، أكلتُ وهيكوبا، وضحكنا، لكنني شعرتُ طوال الوقت أن ثمة أمرًا آخر؛ أمرًا لم تخلُص إليه. غرقنا في الصمت للحظة، ومن ثم قالت:

- أريد أن أرى كساندرا.

ربما لأنني خسرتُ أمي في سن مبكرة، لم أكن قادرةً على تحمُل فكرة التفريق بين أمهات وبناتهن قط، فقلتُ بحذر:

- حسن، رغم أن هذا لن يكون سهلًا، وأشك أنه يُسمح لها بالخروج من كوخها.

لم تُجِب. كانت جالسة، ورأسها ملتفت بعيدًا بحِدّة، على طريقتها الأشبه بالطير الجارح الشكِس الذي يبدّل ريشه. استذكرتُ نبوءة كساندرا في أن زواجها بأجاممنون سيفضي إلى موته مباشرة، إلى سقوط أسرة أتريوس الملكيّة، وهلاك المملكة التي دمرت طروادة.

- أتصدقينها؟ أقصد بخصوص مقتل أجاممنون؟

هزت هيكوبا كتفَيها:

- إنها تنساق خلف حماستها. دائمًا ما يقول الناس إنه مس إلهي، لكنني لم أقدر على رؤية ذلك قط. أظن أنها تختلق الأشياء لترضي نفسها فقط.

من العسير تصديق أن ابنتكِ رسولة؛ الفتاة الصغيرة التي علمتِها استخدام المبولة، وغنيتِ لها في الليلات حتى تنام.

- لكنّها شديدة العناية بالتفاصيل، أليس كذلك؟ تقول إن زوجته ستلقي بشبكة فوقه، وهو في الحمّام، ثم تقطّعه إربًا بفأس. لمَ قد تفعل ذلك؟

- لأنه ضحّى بابنتهما ليحصل على ريح تسوقهم إلى طروادة. كانوا جميعًا عالقين هناك ينتظرون، وقد بدؤوا بالاقتتال بين بعضهم بعضًا -كما هم الآن-، وأخذ الأمر برمّته بالانهيار... لذا ضحّى بها. (كانت تحدّق إلى

الفراغ، لكنها حينئذ استدارت بغتة، ونظرت في عيني مباشرة) كنتُ لأقتل ابن الحرام، أما كنتِ لتفعلي ذلك؟

- تقول إنها ستموت أيضًا.

- أعرف ما تقوله. (ورقّت سيماؤها) لطالما ارتاعَت من الشِباك في صغرها، إذ اعتدنا تثبيت شِباك حول أسرّة الأطفال في الليل لمنع الحشرات من بلوغهم، لكنها لم تسمح لي البتّة بتعليق واحدة حول سريرها، كانت تصرخ وتنقضها، فاستسلمتُ في آخر الأمر، وبالطبع، لُدِغت لدغًا مبرّحًا. أمضَت اليوم التالي تمزّق نفسها، فلم أقُل إلا: «لقد نِلتِ ما تستحقين»، وفي الحقيقة أقعدتُها، وجعلتُها تحصي اللدغات (سبعًا وأربعين، سبعًا وأربعين)، لكن ذلك لم يشكل أيّ فرق، ظلت رافضة إياها!

طفا مزيج هائل من المشاعر على صفحة وجهها؛ الندم، والحب، والذنب، والسُخط. للأمهات والبنات معاركهن، كنتُ أعرف ذلك، وإن توفيَت أمي قبل أن أبلغ السن السمِجَة، وليس بجعبتي إلا ذكريات بهيجة عنها، لكن الانطباع الذي تلقيتُه من هيكوبا كان ينمّ عن علاقة مرتبكة حقًا لم يُسوّ فيها أيّ شيء قط.

- أحتاج إلى رؤيتها.

ما عساي أقول؟

- حسنًا، سأبذل قصارى جهدي.

كانت مباراة الرماية على قدم وساق الآن، وقطّعَت زمجرات الرجال في الخارج وتأوهاتهم محادثتنا.

وقتما غادرتُ، واجهني جدار أصم من الظهور، وساد صمت موتور، بينما يسدد أحد المتبارين، ثم سمِعت خبطة إصابة السهم للدريئة، وأعقبها دويّ المتفرّجين، وبينما نظرتُ من بين صفوف الظهور، رأيتُ الدرايا منتصبةً في سطر، والوجوه المطليّة للمقاتلين الطرواديّين ممزقة إلى أشلاء. ضغينة جمّة إلى درجة تجعل المرء يحس أنها لا بد قد نقعت الأرض من تحت أقدامنا. فاستدرتُ ومضيتُ قدمًا.

15

في طريقي عبر المعسكر، عاهدتُ نفسي أني لن أُثقل على ريتسا بمتاعبي، لكن عندما غصتُ تحت السديلة، ووقفتُ أرمش في العتمة الخضراء، لم أستطِع إلا تذكُّر أنني في آخر مرة جئتُ إلى هنا كانت أمينا معي، وصحّى ذلك القلق القاضم الذي لم يطُل غيابه عن ذهني قط، ولم تكن الخيمة مكانًا مُرحِّبًا. ظل إحساس أنني داخل رئة سقيمة تكافح لتتنفس يراودني، لكن حالما عانقتُ ريتسا، وجلستُ على الدكة بجوارها، بدأتُ أشعر بالتحسن.

- لا خادمة اليوم؟

قلتُ:

- إنها منشغلة، وهي ليست خادمتي.

- من باب السؤال فقط.

تناولتُ مهباجًا وهاونًا، ورحتُ أطحن بعضًا من الأعشاب التي جهَّزَتها أمامها. لم تُبدِ أيّ تعليق، وعملنا في صمت بضع دقائق.

- في الحقيقة، كنتُ أتساءل عمّا إذا كان بوسعي رؤية كساندرا؟

- لستُ أرى مانعًا، لكن عساكِ تؤجلين ذلك قليلًا، فقد كانت نائمةً وقتما غادرت.

قلّبتُ طرفي في الخيمة:

- أزاد انشغالكِ قليلًا؟

- هه، شبان حُمق سخاف، يمزّق بعضهم بعضًا شققًا من بعض، متقاتلين بشأن الألعاب، جاءنا غلام في تلك الليلة، أذنه شبه مُنتزعة، كان يقول:

«أوه! أوَتظنين هذه إصابة بليغة؟». كما تعلمين، مزهوّ بنفسه، «يجدر بكِ رؤيته هو»، فأعطاه ماخاون حقه من التوبيخ.

قلتُ في نفسي: «يا لألكيموس التعِس! فحتى الآن، ثبت أن أوتوميدون كان محقًا، فكل نتيجة موضع خلاف، وكل منافسة وديّة تنتهي إلى عراك».

سألت:

- كيف حال كساندرا؟
- أوه! كما تعرفين؛ متقلبة. لا تزال الليلات كريهة.
- ليست أحسن إذن؟
- أحسن بعض الشيء، يمكنكِ محادثتها الآن، بينما قبلًا...
- تريد هيكوبا رؤيتها.
- حسنًا، بالطبع تريد، يا لها من مسكينة! لكنني أخشى أن فرصة حدوث ذلك ضئيلة، فالخروج من الكوخ ممنوع على كساندرا. أنتِ تعرفين طباعه.
- هذا ما ظننتُه، وهيكوبا أوهن من أن تمشي كل المسافة إلى هنا...
- وقد لا يكون مرحّبًا بها حتى لو فعلَت. سمعتُ أن كساندرا تقول أشياء في غاية القباحة عن أمها. لا حب باقٍ هناك.

كان قد مرّ نحو نصف ساعة على بدئنا العمل وقتما حدث اهتياج عند المدخل، ودلَف رجلان، بينهما ثالث نصفُ مجرور، ونصفُ محمول. أسقطاه بفظاظة على الأرض، ورحلا، فنهضنا، ومضينا لنرى من كان، وإذا به ثيرسيتيس. ظننتُ في البداية أنه مُثخن ضربًا، لكن من ثم لاحظتُ أن عينَيه غير مركزتَين، أو بالأحرى مركزتان على نقطة لا تبعد إلا بضعة إنشات عن وجهه، وظل يفعل حركات اختطاف بسيطة غريبة في الجو، كما لو أنه يحاول الإمساك بشيء لا يمكن لغيره أن يراه. أتراه ثمِلًا؟ كان نفَسُه نتنًا، لكنني لم أتبيّن نبيذًا على وجه التحديد، أو لم يكن أكثر من المعتاد.

قالت ريتسا: «خير لنا أن نُخلده إلى السرير، فلنترك النوم يشفيه».

كان هناك عدة أَسرّة من جلود البقر المدبوغة مُعدّة سابقًا وشاغرة، لذا فالمسألة في معظمها تكمُن في جرّه إلى أقربها، وإقناعه بالزحف عليه. كان

مُغطىً من رأسه إلى أخمص قدميه بما بدا أشبه بذَرْق إوز، والله أعلم أين كان. قالت ريتسا: «سيجب غسله، فسيُجنّ ماخاون إن رأى هذا». بدَت مرهقة، حتى إنها تشبثَت بذراعي، وهي تتكلم.

- اذهبي واقعدي، أنا سأتولى الأمر.

- بريزيس، لا يمكنك.

عرفتُ ما قصدَته: «أنتِ زوجة السيّد ألكيموس». كان مفهومًا، ومعقولًا أن تُحمّم سيدة المرضى في بيتها الخاص -وهذا قويم وصائب بالكامل-، لكن أن تؤدي نفس المهمة الدونيّة في مستشفى، أن تختار.. أن تختار واقعًا، عمل أَمَة؟ لم يكُن هذا إلا ما رغِبَت بقوله منذ جذبتُ المهباج والهاون ناحيتي. فقلتُ:

- أكملي.. هش.

جلبتُ دلوًا، وبعض الخِرَق، وشرعتُ في العمل، فرحتُ أنزع الغلالة والمئزر الآسنَين، وأمرّر الخرقة المبللة في مسحات واسعة عبر جسده. تغير لون الماء في الدلو بسرعة بينما أعمل، وكانت القماشة تخفق، وتتوتر من فوقي، لكنني اعتدتُ ذلك، ولم أعد أخشى أن الخيمة بأسرها توشك على التحليق. صاح ثيرسيتيس مرة أو اثنتين، وفكرتُ في خلدي أن هذا مردّه إلى الإحباط الناجم من عجزه عن إمساك الأجسام الخفيّة أمامه أكثر منه من الألم الفعليّ. كان جسده مرصّعًا بالكدمات، بعضها أرجوانيّ، وبعضها أصفر، وبعضها ذو حواف زرقاء، ومركز قشديّ شاحب، وشكلت جَمعًا تأريخًا مرئيًّا للأسابيع القليلة المنصرمة من حياة ثيرسيتيس. ظل يهذر على وتيرة ثابتة، والمقتطفات القلّة التي فهمتُها من خطابه كانت طَبعيّة للرجل، فهو بذيء اللسان، وعدوانيّ، ومهووس بالقذارة والدم والصديد. كان كمُّ شتائمه التي تنطوي على دمامل استثنائيًّا؛ دمامل وبثرات، ونِفاطًا، وكيسات شعرية، وحبًا وقرحًا وخرّاجات. تساءلتُ: «ما مصدر هذا الإمعان في الجلد السقيم؟»، لكني حينئذ قلبتُه على قفاه، وما إن ألقيتُ نظرة واحدة على مقعدته حتى بطل تساؤلي.

استويتُ، وأشرتُ لريتسا أن تأتي، أردتُ طلب نصيحتها في لبخة أطبّقها بعد أن أنظف الدمامل، فمسحَت يديها بجانبَي مئزرها، وانضمّت إليَّ أسفل السرير.

سألتُها: «ما برأيكِ يجب أن نفعل؟».

وهو لا يزال منكبًا على وجهه، لفّ ثيرسيتيس، ونظر من فوق كتفه: «أوه! أنتِ. لقد طردكِ، أليس كذلك؟».

تجاهلتُه بينما فكرتُ وريتسا بأفضل وسيلة لإبراز رؤوس الدمامل.

«هيه، أنتِ! (يا لعنجهيّة المخمور، يتحيّن فرصة للشجار!) إنني أكلمكِ. هل طردكِ؟».

كان الانزعاج من أيّ شيء يقوله ثيرسيتيس مضيعةً للوقت، إذ كان يكره النساء، ولا سيما الشابّات الحسناوات اللاتي حجزهن الملوك لاستعمالهم الشخصيّ، وقد احتقر النساء أمثالي على وجه الخصوص (جوائز الشرف)، لأننا بعيدات عن مناله بُعد الربّات. رغم أنه حتى مع النسوة العوام حول المواقد غالبًا ما كان يجد نفسه مدفوعًا جانبًا بأكواع الرجال الأقوى. تساءلتُ كم من كدماته ناجمة عن هذه الصدامات؟ لكن أيّ تعاطف شعرتُ به ناحيته كان قد اختفى منذ أمد بعيد. فأضفتُ الملح إلى الماء، ومنحتُ مخرجَهُ دعكةً كيّسة.

- آه! أيتها الفاجرة الحقيرة!

- هذا لصالحك.

- إنّه يصيبني بألم ناكح، ولا يمكنني الاستلقاء على قفايَ.

- استلقِ على بطنكَ إذن.

وقتما رجعتُ بعد ساعة، كان منطويًا على جنبه غافيًا، لكنه انتفض مستيقظًا عندما وضعتُ الصحيفة بجواره. تجاهل الطعام، ومضى مباشرة إلى النبيذ، ليبصق أول رشفة فقط:

- أهذا أفضل ما أمكنكِ تدبُره؟ بَول عذارى!

- إن لم تُرِده، فثمة الكثير ممن سيفعلون.

راح يتأفف ويتأفف، لكنه انكبّ في النهاية على تناول الطعام. كان الطعام طيبًا، لقد شدد ماخاون على ذلك. دخل ماخاون بنفسه بعد بضع دقائق،

فحص الدمامل، وسأل عن حركات الاختطاف، فقال ثيرسيتيس: «أشياء بيضاء، أشياء بيضاء صغيرة ترفرف في الأجواء».

التفتَ ماخاون إلى ريتسا، وسرد لائحةً من التعليمات لمعالجة الدمامل، ثم خفض بصره إلى ثيرسيتيس:

- ولا نبيذ قويّ.

- يكاد احتمال وجود ذلك هنا ينعدم. بَقَر!

- عليكَ أن تحسّن ملافظك!

بعد بضعة إرشادات إضافيّة حول غسلات الماء المالح، واللبخات المختلفة التي يمكن لريتسا تجربتها، انحنى لي وغادر. أضحكتني الانحناءة، فعندما التقيتُ ماخاون أول مرة، كنتُ أَمَة في مجمع أجاممنون أُرسِلَت إلى المستشفى، لأنه كان مكتظًا، وبالكاد قدرَت الممرضات على مواجهة التدفق اليوميّ للمصابين. في غضون دقائق من لقائي -وقد كان ترحيبًا حارًا-، شمّر ماخاون غلالته من غير استحياء البتة، وهرش هرشةً كيّسة، كما قد يفعل بالضبط لو أنه وحده، لأنه وحده، فالأَمَة لا تُعتَبر أكثر من سرير أو كرسي! لكنه الآن.. انحنى.

بعد أن تبِعتُ ريتسا إلى الدكّة، ارتأيتُ أنه ربما آن أن أمضي لرؤية كساندرا، فقالت ريتسا:

- أجل، بالطبع. دعيني أنهي هذه فقط. (كانت تعمل على لبخة صلصال صينيّ) ستتمّين رؤية النساء الطرواديّات جميعًا عاجلًا.

فأومأتُ برأسي:

- نعم، أحسب ذلك.

- بما فيهن هيلين.

- ومن أخبركِ بهذا؟

- أوه! إحدى الفتيات.

بذلت ريتسا جهدًا خاصًا في مساعدة النساء العوام، فكان برطمان دهن الإوز خاصتها نافعًا بعد الكثير من الليلات القاسيات، ولا شك عندي في أنها ساعدت بطرق أخرى أيضًا. لاحظتُ أن المستشفى يحتفظ بمخزن ضخم من

النعناع البرّي، وثمة أحواض كاملة منه تنمو في رقع من الأرض الوعرة خلف الأكواخ، وإن كان على حد علمي لا فائدة له البتة في علاج الرجال الجرحى، لكن إن حُضِّر كما يجب، فبمقدوره إنهاء حمل غير مرغوب به.

قلتُ:

- أنتِ لا تستحسنين لقائي هيلين.

- ليس شأني.

حكيتُ لها عن أختي، ثم أتيتُ إلى ذكر كدمات هيلين.

فقالت ريتسا:

- إنها ليست مسؤوليتكِ، وبأيّ حال، دعيه يقتلها، فليس هذا أكثر مما تستحق!

ريتسا، أرَقّ النساء سريرة، وهي مع ذلك مشاركة في البغض الشموليّ لهيلين.

- عاملتني بطيبة بعد وفاة أمي، وقتما كنتُ في طروادة، ولم تكوني بجواري.

أومأت برأسها، رغم أن فمها ظل متيبسًا. لم ترغب أيّنا في أن ينتهي هذا اللقاء بجدل عقيم حول هيلين، لذا دردشنا، وضحكنا، ومزحنا، بينما أنهَت تحضير اللبخة لمقعدة ثيرسيتيس. «هاكِ، يمكن لهذا دخول الفرن الآن»، ومسحَت الصلصال الصيني عن يدَيها بقماشة الخيش المعلقة على خصرها:

- فلنتركه يقضي نومه أولًا.

- ما تظنين خطبه؟

- الخباثة!

لا توجد إجابة عن ذلك. تحققنا لنطمئن أنه لا يزال نائمًا، ثم تبعتُ ريتسا عبر الفناء الصغير على جانب ردهة أجاممنون. فيما سبق، كان هذا الحيّز مليئًا بالحيوانات المقيّدة المنتظرة ذبحها؛ دجاج، وإوز، وبط أيضًا. تذكرتُ بوضوح جماعة من الدجاج، يحكمها دُيَيْك أبيض له عرف أحمر قانٍ، كان صياحه يوقظ المجمع بأكمله كل صباح، قبل الفجر بساعة. والآن غابت الدجاجات، وراحت نصف دزينة من الغربان تتبختر مكانها بأعين مجردة

تتلألأ مع دنوّنا. رحنا نمشي بسرعة، ونتكلم في سيرنا، لكنها بالكاد كلّفت نفسها عناء رفع أجنحتها والرفرفة بعيدًا عن الطريق. صارت الغربان منتشرة في كل مكان الآن، وبدَت في غاية الغطرسة... في غاية الازدهار، كما لو أنها تتولّى زمام السلطة.

كان كوخ كساندرا ضخمًا ضخامة مدهشة، ومؤثثًا برفاهيّة مفرطة، كما رأيتُ وقتما فتحت ريتسا الباب، وقادتني إلى الداخل. سجّاد وطراريح وسُرُج، وعلى الحائط المقابل للباب بساط جداريّ بارع الإتقان. أرتميس، سيدة الحيوانات، تصطاد بصحبة الكلاب، لكنني لم أرَ كساندرا، فرمَقتُ ريتسا، التي وضعت إصبعًا على شفتَيها، وقادتني عبر الممر إلى غرفة في المؤخرة، وهناك رأيتُ كساندرا مستغرقة في نوم عميق على السرير، وشعرها المحلول مفروش على المخدة، وثمة شاب وسيم بحق مستلقٍ بجوارها، ورأسه على صدرها. خبط قلبي لهول الصدمة، لكنني أدركتُ بعدئذ أن هذا لا بد أخوها التوءم، هيلينوس؛ الرجل الذي أفشى تفاصيل دفاعات طروادة الداخليّة تحت التعذيب. هيلينوس طرواديّ، وذكر، إذن لمَ لا يزال حيًّا؟ ربما لأن حياته جزء من الصفقة التي أبرمها مع أوديسيوس، هذا جائز، أو لعل الإغريق لم يروه رجلًا وحسب. لم يبدُ أن خيانته أباه، والمدينة تثقل كاهله، فقد كان نائمًا بعمق مثل كساندرا، وشفته العليا تصدر صوت فرقعة طفيف مع كل نفَس يزفره.

جذبتني ريتسا للوراء: «إنه هنا طوال الوقت، يستجدي الطعام، لكن ما عساي أفعل؟ لا يمكنني صرفه، إنه أخوها». عندما عدنا إلى غرفة المعيشة، قالت:

- أترغبين بالانتظار؟ لا ينبغي أن تستغرق طويلًا، فهما نائمان منذ ساعات بالفعل.
- سأمنحها نصف ساعة.

جلسنا تحت بساط حائط أرتميس المنتقمة صامتتَين، وبعد برهة، انتبهتُ إلى أن ريتسا قد غلبها النوم، المسكينة مرهقة على الدوام. حطّ بصري على البساط مجددًا، كان يحكي قصة أكتيون، الذي مسخته أرتميس إلى وعل وقتما حاول اغتصابها، أو كما في نسخة أخرى من الرواية، وقتما رآها مصادفةً،

وهي تستحم، وبينما تمايلت القماشة مع تيّار الهواء، بدا أكتيون يفر مذعورًا من كلاب صيده الخاصة، وإن لم يكن ثمة أمل بالفرار، إذ كان يبعد قدمًا فقط عن فكوكها المُريّلة. أخذت ريتسا تشخر برفق، ورأسها هابط على صدرها، فأغمضتُ عينيَّ، واسترخيتُ على كرسيّ، ومن فوري، رأيتُ خلف جفنيَّ المسدلَين كساندرا وهيلينوس مجدولَين على السرير. كانا يبدوان كعاشقين، ولعل هذا ما وجدتُه مُزعجًا، رغم اعتقادي أن قلة فقط من العاشقين قد بلغوا هذه الدرجة من الحميميّة. في كل تلك الأشهر السابقة للولادة، كان واحدهما مدركًا -مهما يكُن الإدراك خافتًا- لوجود الآخر، ولا بد أن هذا عضَّد الكثير من الأواصر، ومع ذلك، باعتبارهما صبيًّا وبنتًا، رجلًا وامرأةً، لا بد أن مسارَي حياتَيهما كانا يشدانهما إلى مفترق.

سمعتُ بعد بضع دقائق الباب الأمامي ينغلق، ودخلت كساندرا الغرفة بعد برهة من ذلك، ترمش وتتثاءب، وشعرها لا يزال أشعث بفعل النوم. تراجعَت خطوةً وقتما رأتني، لكن ريتسا تحاملَت على نفسها، وقدّمَتنا.

«أوه! أجل، أعرف من أنتِ»، كان لكساندرا عينان ساطعتان ومفرطتان في التيقظ على نحو غريب، وعادة في التحديق إلى من تكلمه مباشرةً دون أن ترمش. ودائمًا ما بدَت تتلمس المعاني خلف الكلمات. أضفى ذلك تأثيرًا غريبًا جعلها تبدو خرقاء، وهو ما كان باطلًا بكل تأكيد. وأخيرًا، بعد صمت طويل إلى حد ما، واصلت كلامها:

- لقد حكى لي أبي عنك.
- بريام فعل ذلك؟
- أجل، وقتما عاد إلى طروادة مصطحبًا جثة هيكتور. قال إنكِ كنتِ عطوفة للغاية.

تأثرتُ مرة أخرى لفكرة تذكُّر بريام إياي، ولبرهة، رحتُ أرمش لاجمةً الدموع.

جلسنا إلى الطاولة، وجاءت ريتسا بالخبز وبعض الجبن. أكلَت كساندرا النزر اليسير. كانت تصنع كريّات رماديّة صغيرة من الخبز بتكويرها بين إبهامها وسبابتها. لاحظتُ أن لها يدَين ذكوريّتَين إلى حد ما؛ عظام بارزة، وشبكة من العروق الزرقاء الناتئة كديدان غارقة تحت جلدها. رفعَت نظرها أخيرًا:

- إذن، ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

قلتُ:

- إنني أحاول رؤية كل النساء اللاتي جِئنَ إلى المعسكر من طروادة.

- أوه! أنت لجنة الترحيب، ألستِ كذلك؟

- ليس تمامًا.

- إذن، فعساكِ رأيتِ أمي؟

- نعم، إنها في غاية القلق حيالك.

- تأخر الوقت قليلًا على ذلك.

- إنها ترغب برؤيتك.

- أخشى أن هذا ليس ممكنًا، فلا يُسمَح لأحد بالدخول، وليس الخروج مسموحًا لي... أنا موءودة هنا.

طال الصمت إلى حد ظننتُ معه أني لن أسمع المزيد منها، لكنها قالت بعدئذ:

- لا أريد إلا أن تتوقف هذه الريح البغيضة اللعينة (وضعت رأسها بين يدَيها، وراحت ترنو إليَّ من بين أصابعها مثل طفل فزِع) أتعرفين ما الذي يخيفني حقًا؟ أنهم سيسألونني لمَ لا يمكنهم المغادرة، ولن أعرف ما أقول... لستُ أعرف!

- لن يسألوكِ، بل سيسألون كالخاس.

- أسيفعلون؟

فعلتُ ما في وسعي لأطمئنها، موضحةً أن لأجاممنون كهنته وعرّافيه الخاصّين، وكالخاس الأهم بينهم حتى الآن، لكن ربما كان أفضل لو لم أتكلم، فقد كانت تلك العينان غير الرامشتَين تنظران من خلالي مباشرة.

قالت ريتسا: «بأيّ حال، أليس واضحًا سبب غضب الآلهة؟ انظرا لما حدث؛ معابد دُنِّسَت، وأطفال قُتِلوا، ونساء اغتُصِبن...»

تجاهلَتها كساندرا.

فقلتُ:

- البعض يقول إنه بسبب ما أصابك.

- ماذا عنه؟

صارت عدائيّة الآن.

- حسنًا، ألم يكن ذلك إهانة للآلهة؟

- كان إهانة لي. وبأيّ حال، لا أريد الحديث عن الأمر.

عادت تصنع كريّات من الخبز، لكن بعد دقيقة تدفق كل شيء متفجّرًا منها. كيف كانت تسير عائدة إلى المنزل من القصر وقتما سمعَت صليل أسلحة في الشوارع، والتجأت إلى معبد أثينا، لتختبئ خلف تمثال ضخم مطليّ للربّة، وكيف وجدها أجاكس الضئيل هناك، وجرّها إلى الخارج، وكيف تشبثَت بالتمثال حتى وقع متحطمًا على الأرض بجوارها، وكيف ظلت عبر كل ما حدث تاليًا تحدّق إلى عينَي الربّة البوميَّتين، رافضةً الاعتراف بأن الجسد أسفل عنقها لا يزال ملكًا لها. أتذكر أني فعلتُ ذلك في المرات القليلة الأولى مع أخيل.

قالت: «أتعرفين ما أسوأ ما في الأمر؟ لقد كنتُ في دورتي الشهريّة، ولم يشكل ذلك فرقًا، إذ انتزع الرقعة الدامية، ورماها وحسب... ما كنتُ لأرغب بأن ترى أختي حتى ذلك الشيء».

جاهدتُ نفسي لأجد ما أقوله.

أخذَت كساندرا نفسًا عميقًا: «انظُري، ما أصابني أصاب مئات النساء. ما إن سمعن أصوات القتال حتى ركضن ليختبئن في المعابد، وقد عرف الإغريق أين يبحثون عنهن. لم يبقَ معبد في طروادة لم يُدَنّس».

قلتُ في نفسي: «سُحقًا للمعابد، ماذا عن النساء؟».

بطرف عيني، رأيتُ ريتسا تهز رأسها، فأومأتُ لأُظهِر أني فهمتُ، لكن كساندرا حينئذ مدَت يدَيها ناحيتي، ورفعَتهما بعض الشيء حتى انحسرَت أساورها، وكشفَت عن الجلد المسحوج تحتها.

«لقد ربطوني بالسرير. لم يتعيَّن عليهم أن يقلقوا، فلستُ من ستقتله، بل زوجته من ستفعل. (صار صوتها حالمًا، وتائهًا) تجهز له حمامًا ساخنًا، تقدم له كأسًا من أفخر الأنبذة، تقول للخادمات أن يفركنَ ظهره بالزيت، ومن ثم حينما يكون شبه نائم، حالمًا وهادئًا ومطمئنًا، تُلقي بشبكة فوقه، وترفع الفأس، وتدقّه.. وتدقّه.. وتدقّه...»، وخبطَت الطاولة بقبضتَيها المُحكمتَين.

حاولتُ التفكير بشيء أقوله لأهدئها، لكن مخي صار خواءً، وقد تأخر الوقت زيادةً بأيّ حال. كانت على قدميها تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، ذراعاها تخفقان، وبصاقها يتطاير، وتضرب بالجدران، وترتد عنها، وكانت في جوهرها الجعجعة نفسها التي قد سمعتُها مرةً بالفعل في الميدان، في اليوم الذي جُلبَت النساء الطرواديّات فيه إلى المعسكر.

قالت ريتسا: «اتركيها وشأنها، سوف تُنهك نفسها».

صارت كساندرا أهدأ تدريجيًا، وأخيرًا، مشَت تجاهي شاحبة الوجه:

- لا بد أنكِ رأيتِ أمي، صحيح؟

فكررتُ:

- إنها في غاية القلق.

فالتوى فمها:

- هه. أتعلمين أني كلما نظرتُ إلى أمي، رأيتُ شعرات تنبتُ من قلبها؟

وبقولها ذلك، التفّت على عقبَيها، وغادرت الغرفة. وحين انغلق الباب خلفها، هزت ريتسا كتفَيها، مبديةً ابتسامة طفيفة، وإن شعرتُ أنها كانت حليمةً معي أكثر مما أستحق، فقلتُ:

- إنني آسفة.

- ليس خطأك.

- بلى، كان خطئي.

- حسنًا، كان خطأك. (وربتت على كتفي) أترين، لمَ أغض طرفي وقتما تُدخِل أخاها ذاك خلسة، ما لديها سواه؟

- أتمنى ألا تمنحكِ ليلة سيئة وحسب.

لم تكلف نفسها عناء الرد على ذلك، وعند الباب، تعانقنا، وانطلقتُ أمشي إلى المنزل. وقتما بلغتُ الطرف الآخر من الفناء، التفتُّ أنظر خلفي، لكن ريتسا كانت قد دخلت بالفعل، وأوصدت الباب.

16

كان الوقت قد تأخر أكثر مما يجب على رؤية هيكوبا، وبأيّ حال، ليس في جعبتي أخبار طيبة أبلغها إياها، لذا مضيتُ إلى المنزل مباشرة. حالما دخلتُ المجمع، عرفتُ من فوري أن شيئًا ما ليس على ما يرام، فقد تجمهرت جماعات من الرجال في الفناء، وراح الكثير منهم ينظر من فوق كتفه، وأعينهم راسخة على باب ردهة بيروس. ماذا هناك؟ سمعتُ السؤال يثب من فم إلى آخر، لكن لم يبدُ أن أحدًا يعرف الإجابة.

لم أملك إجابةً أيضًا، كل ما ملكتُه كان عقدةً من الفزع في حفرة معدتي التي كانت تلتوي وتتقلص، بينما أسلك طريقي بين الحشد. عند دخولي الكوخ، وجدتُ ألكيموس وأوتوميدون يواجه واحدهما الآخر عبر الطاولة، فوضعتُ خبزًا وزيتونًا أمامهما، وبدأتُ أصب النبيذ، لكن ألكيموس لوّح لي أن ابتعدي، فذهبتُ وقعدتُ على السرير. لم يقُل أيّهما شيئًا، وإن أحسستُ أنهما كانا يتكلمان قبل أن أدخل الغرفة. بعد لحظات، بدأ طرْق مدوٍ على الباب، ولظنِّي أن كارثة ما لا بد قد حدثت في كوخ النساء (كانت أمينا لا تزال في صدارة ذهني)، ركضتُ لأجيب، لكن ألكيموس وصل قبلي، ودفعني بعيدًا. نفر بيروس إلى الغرفة –لا توجد طريقة أخرى لوصف الأمر–، وما إن صار في الداخل، حتى بدا يتسع، ويستمر في التوسع إلى أن صار يشغل كل بوصة ممكنة من الفضاء.

قال، وهو يجلس: «لا يمكنني التغاضي عن الأمر!».

عرفتُ في عظامي –في مائي كما تقول الزوجات العجائز– ما هو الأمر، لكني أنصتُّ بتوق محتاجةً إلى التأكد من أخبث مخاوفي. ليلة البارحة –لكن لعلها الليلة السابقة، أو حتى التي سبقَتها– حاول أحدهم دفن بريام، وقد

أحسن في ذلك، وفي الواقع، كان القبر رغم سطحيّته كافيًا لإبعاد النوارس والغربان المُغيرة. وُجِد رفش متروكًا بالقرب منه، إلى جانب إبريق من النبيذ، وبضع كسرات من الخبز. كان الإبريق نصف ممتلئ، لذا بدا مرجحًا أن الشعائر الجنائزيّة قد قوطِعت، ربما بواسطة شخص ما يقود خيولًا عبر الممر بين المراعي والفناء. من عساه فعلها؟ كان هذا السؤال. من يجرؤ؟

قال بيروس: «لا أحد في هذا المجمع».

وفي الحقيقة، رفض تصديق أن أيّ مقاتل يونانيّ قد يفعلها.

حاول أوتوميدون التنويه إلى أن لدى بعض الناس اعتراضات دينيّة شديدة على ترك الموتى بلا دفن، على حرمانهم شعيرة المرور إلى العالم الآخر، وقال:

- الكل يستحق دفنًا لائقًا.
- ماذا؟ مقاتلو العدو؟
- أجل.
- لم يدفِن أبي هيكتور. (كان شعوره بأن أيّ إحالة لأخيل كافية لتسوية جدال واضح) لا، إنه شخص طرواديّ، ينبغي ذلك.

أوضح ألكيموس بأناة أنه لا يوجد إلا طرواديّان في المعسكر. كالخاس، وهو كاهن، وعرّاف موقر للغاية، حتى لو كان يتبرج، ويتسكع في تنّورة. أيمكنهم استثناؤه؟ حسنًا، نعم، يمكنهم، تقريبًا. فلمَ قد يجازف بحياته بغتة ليدفن بريام؟ لا شك في أن أيّ ولاء كان يكنّه له في ما مضى قد زال منذ أمد بعيد، إذ عمل لصالح أجاممنون عشر سنوات ماضية على أقل تقدير.

بدا ألكيموس مرتابًا: «بلى، لكنه ليس في حظوة حاليًا، أليس كذلك؟ ولم يكُن منذ فترة».

فقال أوتوميدون: «لا يمكن أن يكون هو. ليس صالحًا».

وقال بيروس: «ليس رجلًا».

نقَل ألكيموس نظره بين الاثنين: «حسنًا إذن، يبقى هيلينوس».

قال بيروس: «ليس هو أيضًا. لقد خان أباه».

فقال أوتوميدون:

- تحت التعذيب.

- وما علاقة ذلك بالأمر؟

- ليس منا من يعلم ما قد يفعله تحت التعذيب.

فقال بيروس: «هه».

وواضح أنه يخال نفسه يعلم.

سأل ألكيموس: «أليس ممكنًا أن هذا بالضبط هو السبب الذي قد يدفعه لفعل ذلك، من قبيل التعويض؟»

تأملوا في الأمر.

قال بيروس: «بلى... أتصوّر ذلك».

فقال أوتوميدون: «حسن إذن، فلنأتِ به. مع أنه سيكون قد ولّى إن كان في رأسه أيّ عقل».

قال ألكيموس:

- إلى أين؟ لا مكان لديه ليذهب إليه.

- يمكنه أن يعيش حياةً بريّة، يصطاد. وفي هذا الخصوص، ثمة الكثير مما يؤكل في حدائق بريام.

فقال ألكيموس: «قد تفعل أنت ذلك، أما هيلينوس فأشكّ. وبأي حال، هو بالكاد قادر على المشي».

كان هذا صحيحًا، فقد رأيتُه يعرج في أرجاء المعسكر بخرق مبقعة بالدم، معقودة حول كاحلَيه. لا بد أن أوديسيوس قد عجن أخمصي قدمَيه ضربًا.

واصلَ ألكيموس: «هل اتفقنا إذن؟ نجلب هيلينوس هنا. حسنًا، ماذا عن كالخاس؟ لا يمكننا جرّه إلى الداخل ببساطة؛ إنه كاهن».

فقال أوتوميدون: «أندعوه إلى العشاء؟».

فأنّ بيروس:

- بحق السماء...

- لكنك موافق على أننا نحتاج إلى نهج مختلف، صحيح؟

- نعم، نعم! لا تُقعده بجانبي وحسب.

كان بيروس قد نهض بالفعل، ومن الجليّ أنه متشوّق للمضي في الأمر. تبعه الآخران إلى الباب، وكلاهما يعرض أن يعثر على هيلينوس، لكن بيروس أصر أن عليه الذهاب بنفسه. في آخر الأمر، انطلق ثلاثتهم معًا. أنصتُّ إلى أصواتهم تتلاشى في المدى، ومن ثم ساد الهدوء مجددًا، إلا من قراع الريح.

نظرتُ من غير إبصار إلى الخبز والزيتون الرابضَين على الطاولة، ودماغي يخمش بحثًا عن طريقة لينكر ما يعرفه. تذكرتُ تلك اللحظة بجوار النار وقتما نظرتُ ناحية أمينا، وكانت قد خفضَت نظرها، وتظاهرَت بتعديل أوتار القيثارة. قلتُ لنفسي آنذاك: «إن هذا لا يعني شيئًا، وعساها لا تحبني وحسب، لكن تلك حادثة واحدة فقط في نسَق طويل من التحاشي». ثم فُقدَت لاحقًا من حلقة الفتيات اللاتي تجمعنَ حول هيلي. على الأقل، كنتُ شبه متأكدة من أنها فُقدَت، ولا أزال غير متيقنة تمامًا. جزء كبير مني لم يصدق إمكانيّة تورطها في الأمر. كان كوخ النساء محروسًا، بلى، لكن بمقدورها تسلق السياج الخلفي. رحتُ أذرع الغرفة إقبالًا وإدبارًا، محتارةً فيما ينبغي فعله، ومدركةً غضبًا متعاظمًا في المحادثة التي سمعتُها للتو. طرواديّان فقط في المعسكر؟! ثمة المئات من الطرواديّين في المعسكر، لكنهن نساء والنساء خفيّات. أعساها مَزيّة؟ لو أن أمينا قد دفنَت بريام، فأفضل فرصها للنجاة بفعلتها هي أن لا أحد سيصدق أن فتاةً قادرة على فعلها. كنتُ محتاجةً إلى التكلم إليها. بصرف النظر عن عدد المرات التي خضخضتُ هذه الأفكار فيها –وقد فعلتُ لأكثر من ساعة– كنتُ أرجع دائمًا إلى ذلك.. إلى أنني محتاجة إلى التحدث إليها، وبعيدًا عن الكوخ، بعيدًا عن بقية الفتيات. أيًّا كان ما يصيب أمينا، لا ينبغي أن تُوَرِّط الأخريات.

مبكرًا في الصباح التالي، جلبتُ أربع سلات خوص من الفناء، ومضيتُ إلى كوخ النساء. كانت الفتيات لا تزلنَ جالسات على تخوتهن، حتى هيلي، التي عادةً ما تفيق مبكرًا، وتتمرن على حركات الرقص في الفناء. عندما دخلتُ، رفعَت أمينا نظرها، ثم أشاحت به سريعًا. حاولتُ تخمين ما إذا كانت أيّهن على علم بالدفن، وبوجه الإجمال، نزعتُ إلى الظن أنهن لا يعلَمن. لم تكُن أمينا لتحاول إشراك أيّ شخص آخر، بل كانت لتشعر بعظيم الفخر إزاء حقيقة

أنها قد تصرّفت بمفردها، بلى، لكن لا بد أنها اختفَت لساعات. كان بعضهن على الأقل ليلاحظن ذلك، وربما عرَفن ما كانت تفعله، أو خَمَّنَّ إذا ما كانت قد فعلت ذلك. ربما كلهن، بما فيهن أمينا، غافلات عن أيّ شيء يجري خارج حدود الكوخ.

قبل أن أكلم أمينا، مضيتُ عبر الممر المؤدي إلى غرفة أندروماخي. كنتُ قلقةً بشأنها، إذ كانت بيضاء ناصعة، ونحيلة هزيلة، وتعيسة، خطَر لي أنها قد تكون واحدة من أولئك النادرين الذين ينقطعون ببساطة عن الأكل، ويعقدون عزمهم على الموت. واحدة من خادمات أمي جوّعت نفسها حتى الموت. أمكنني رؤيتها بوضوح بالغ، كان لها شامَة على شفتها العليا. لم تمر تلك المرأة في بالي منذ سنوات، وعجبتُ لمَ عادَت إلى مخيّلتي بهذا الوضوح الآن.

وجدتُ أندروماخي في السرير نائمةً على ما يبدو.

- أندروماخي؟ (رفّ جفناها عند سماع صوتي) أندروماخي؟ أفيقي.

- ما الخطب؟

- لقد حاول أحدهم دفن بريام.

انفتحَت عيناها على اتساعهما:

- هيلينوس؟

- ربما. في الحقيقة، أظن أنها قد تكون إحدى الفتيات.

- مَن؟ أيّهن؟

بدَت غير مصدّقة بحق، وأيًّا كان ما حدث، فلا بد أنه جرى من غير علمها.

- أمينا.

- أهي التي رقصَت؟

- لا، تلك هيلي.

للمرة الأولى، شعرتُ بضيق الخُلق، بل حتى بالسُخط من أنها قليلة الاهتمام إلى هذا الحد بالفتيات، ورافضة قبول ما ينبغي أن يكون دورها.. دورها هي،

لا أنا. ثم شعرتُ بالخجل، لأنني لم أعرف ما شعور أن يُقتل طفلي، كنتُ فزعةً حتى من تخيُل الأمر، وبالتأكيد لا حق لي في محاكمتها.

- سآخذها خارجًا، وأرى إن كان بوسعي حملها على التحدث معي.
- حسن جدًا. (جلسَت، ولفّت ذراعيها النحيلتَين حول ركبتَيها) سرّني أنه دُفِن.
- وأنا أيضًا، طالما لا يقتل بيروس شخصًا ما لفعله ذلك. سيستجوبون هيلينوس، لكنهم لن يتوقفوا عند هذا الحد...

وجدتُ أمينا تطوي بطانيّتها وقتما عدتُ إلى الغرفة الأخرى، وكان الهواء يعج برائحة الأجساد الشابة غير المغسولة، وأنفاسها الصباحيّة الكريهة بعض الشيء. كنتُ سأرتّب حمّامات لجميعهن بطريقة أو بأخرى، فليس ثمة الكثير مما بوسعي فعله. وفجأةً، صرتُ حانقةً حد الصراخ من هذا الحشر المكتوم في مساحة ضيقة، فرضها بطش الريح والبحر علينا، والبطش الأكثر فتكًا حتى الآن لآسِرينا. لكن آنذاك، ذكرتُ نفسي أنه لم يعد ثمة «نا» الآن.. لا «نحن». لم أعُد أَمَة، وربما هذا سبب اشتباهي بإخفائهم الأشياء عني. رجوتُ أنهن يثِقن بي، لكن لا بد أيضًا أنهن قد نظرن إلى حملي، إلى ملابسي الفاخرة، وإلى زوجي الإغريقيّ، وتساءلن: «أين يكمن ولائي حقًا؟!»، وبالكاد أمكنني لومهن، وأنا نفسي مدركة خير إدراك لكل النزاعات المحتملة. أمّ طروادية، وجنين إغريقيّ، كيف عساه هذا المزيج أن يتكلل بالنجاح؟

«أمينا»، سمعتُ صوتي، أكثر حدةً مما انتويتُ: «إنني ذاهبة لإحضار بعض الأعشاب الطازجة، وأريدك أن تأتي معي». ومددتُ لها سلّتين. كان بوسعها الرفض، لكنها ربما لم تعرف ذلك، أو ربما أغوتها فكرة الهواء النقيّ، بضع ساعات بعيدًا عن الكوخ؛ قالت ببساطة: «نعم»، والتفتَت إلى إحدى الفتيات الأخريات تسألها وَضْع بطانيّتها وتختها في مكانهما. كنتُ قد بلغتُ الباب بالفعل، مسرورة للخروج من الجو العفن، حتى إن اختطاف الريح للباب من قبضتي وصفقها إياه خلفي كان أمرًا مرحبًا به. وبعد بضع دقائق، وقتما أوشكتُ على الدخول لإحضارها، انضمّت أمينا إليَّ، متلفّعة من رأسها حتى أخمصيها بعباءتها السوداء المعهودة.

- لم أعرف أن ثمة روضة أعشاب في المعسكر.

كانت نبرتُها مُحدِّثة، فظننتُ أنها تحاول أن تكون طبيعيّة، متشبثةً بأمل يائس أنني لم أحزِر.

- بلى، واحدة صغيرة فقط، على الرأس البحري الآخر في الأعلى، لكننا لسنا ذاهبتَين إلى هناك، بل إلى طروادة.

اتسعت عيناها. ربما هابَت العودة إلى هناك، ومن يمكنه لومها؟ رغم أنها لم تكُن في حاجة إلى القلق، ذلك أنني لم أنتوِ دخول المدينة، فبساتين بريام، وروضة المطبخ، وروضة الأعشاب، كلها تقبع خارج الأسوار. كانت البساتين ساحة الصيد الفُضلى لأوديسيوس وديوميديس للقبض على السجناء، ذلك أن الناس قد اضطُروا إلى الذهاب هناك، اضطُروا إلى المجازفة بحيواتهم للحصول على الموارد الأساسيّة. أُسِر هيلينوس في بساتين أبيه، ونزل نفس المصير بأكثر من واحد من أبناء بريام.

انطلقنا عبر الفجوة الضيقة في الخندق. كان قد حُفِر للدفاع عن المعسكر في الوقت الآفل، حينما كان نصر الطرواديين في الحرب لا يزال يبدو ممكنًا، قبل أن يرجع أخيل إلى القتال مُزمعًا على الانتقام لمقتل فطرقل. والآن يهجع الخندق مهجورًا، وعربات اليد والمجارف متكوّمة على جانبيه. تساءلتُ عمّا إذا جاءت المجرفة التي استُخدِمَت لدفن بريام من هنا، وألقيتُ نظرةً جانبيةً على أمينا، لكنها كانت تُحدِّق أمامها مباشرة.. إلى طروادة بالطبع.. إلى الأبراج الخرِبة.

كنتُ أعرف بوجود ممر بجوار النهر، لكن بلوغه يستلزم عبور ساحة المعركة، فمشينا في صمت، وأمينا تتلكأ خلفي، ما أزعجني بعض الشيء، لكنني نجحتُ في ألا أقول شيئًا. كانت الأرض وعرةً وعورةً اضطرتني إلى التخطيط لموطئ قدمي. أخاديد عميقة ندّبت السطح، وجروح عتيقة تركتها عجلات العربات، ووقْع الأقدام الزاحفة مثل ذكريات منقوشة على الأرض. كان السهل أرضَ زراعة فيما مضى، وكانت تُربته غزيرة وداكنة، أكثر جودةً مما ينبغي لرعي الماشية، فجُعل لزراعة الحبوب. هذا ما قُدر له أن يكون، وهذا ما كانه لمئات، وربما آلاف السنين، إلى أن جاءت السفن السوداء.

كان النهار مُلبدًا بالغيوم، رغم أننا بحلول هذا الوقت كنا قد انصرفنا عن ترجّي المطر. شق عليَّ المضيّ متعثرةً عبر الأرض المُتلَف سطحها، وشعرتُ

بالعرق ينخز إبطيَّ، وحكّني ظهري وفخذاي، وأخيرًا توقفتُ بالرغم عني، فاصطدَمت بي أمينا التي كانت لا تزال تتبعني من بُعد، ونظرتُها كحال نظرتي؛ مثبتة على الأرض. وقفنا نلتقط أنفاسنا، ونتلفت حولنا. رأيتُ فيما مضى ساحة المعركة هذه من متاريس طروادة حينما أثخنتها الظهور المتصارعة، والرجال المتشاجرون حتى الموت، بينما ركب الملوك عرباتهم اللماعة عاليًا فوقهم. والآن صارت قفرًا خاوية!

ربما كان التوقف لالتقاط الأنفاس غلطةً، ذلك أنني بعد أن رفعتُ نظري مرةً، وجدتُ نفسي عاجزةً عن العودة إلى التحديق إلى قدميَّ. لذا بينما واصلنا المشي، كنتُ منتبهةً إلى كل شيء. كان ثمة شيء مخيف في هذا الصمت، أشبه بالصمت الذي يسود الغرف الخالية وقتما يموت حبيب؛ صمت مسموم. كانت الأشجار قد قُطِعت لبناء المعسكر الإغريقيّ، ودونها بدت الأرض عارية، غير محتشمة، بلا مِزقَة غطاء واحدة تستر فيها تشوهها. في بعض الأماكن نتَح الماء من الأرض، من الأعماق الطينيّة، ليملأ التحدرات والوهدات حتى حافتها. وبين الحين والآخر، انبلجَت فقاعات إلى السطح، الله فقط كان يعرف من أيّ تفسُّخ يجري في الأسفل. اضطُررنا إلى الخوض في عدة من هذه البِرَك المُنمنمة قبل أن نصل إلى الممر الممتد بجوار النهر. وهنا أخيرًا، ندّ صوت؛ ماء يترقرق بين الصخور، لكن هذا لم يُفِد إلا بمضاعفة صمت أرض المعركة.

لدى التفافنا حول منعطف في النهر، صادفتنا جثة ميتة منذ عدة أسابيع، ومنتفخة داخل قميص المعركة، والأجزاء السفليّة منها مكشوفة بطريقة يُرثى لها. لا المياه طالبَت به ولا الأرض، فظل راقدًا هناك، ووجهه من كثير الرحمة مُدار. رأيتُ أمينا ترفع خمارها فوق فمها، كما لو أنها تخشى التقيؤ، لكن وقتما مددتُ يدي لألمس ذراعها، هزت رأسها بشدة، وتحركت مبتعدة.

مع دنوّنا من المدينة، سمعنا أصواتًا تبلغ من الصخب ما يكفي لتمزيق الصمت، كانت الصيحات الصارّة للغربان المحوّمة فوق القلعة الخامدة. الغربان طيور خارقة الذكاء، اعتدتُ مشاهدتها تحتشد بينما ينطلق الرجال إلى يوم آخر من الحرب. الطبول والمزامير والأبواق، وضرب السيوف الموزون على التروس، بالنسبة إلى المقاتلين، كانت هذه الموسيقى تعني الشرف

والمجد، والشجاعة والصحبة. أما للغربان، فلم تعنِ إلا الطعام قط؛ لم تهتم لمَن يظفر أو يخسر، فدائمًا ما انتهى نهارها نهاية طيبة.

توقفنا مجددًا، ورحنا ننظر إلى أبراج المدينة المُدخِنة. تساءلتُ عمّا إذا كانت أمينا تفكر بإخوة أو أبناء عمومة يرقدون موتىً داخل الأسوار. فقدتُ أربعة إخوة وقتما سقطت مدينتي، ليرنيسوس، ولوّعني التفكير في أجسادهم غير المدفونة لأشهر بعد وفاتهم، وما زال يفعل في المناسبات النادرة التي أسمح لنفسي فيها بالتفكير في الأمر برمّته، لكنهم موتى -لا شيء يمكنني فعله لمساعدتهم-، وهي لا تزال حيّة.

قلتُ:

- هيا بنا، ليست بعيدة.
- أعرف أين هي.

ثمة ممر يلف الطريق كلها حول أسوار المدينة، وعندما شرعنا بالمشي عليه، راودتني ذكرى مباغتة من أيامي في طروادة، عن كيف كانت الورود في ظِل الأسوار السامقة تنغلق قبل الليل بوقت طويل. صارت أحواض من الورود الشاحبة نجميّة الشكل تحيط بنا الآن، وقد بدأ بعضها بالانغلاق بالفعل، وراحت بتلاتها تزُمّ مثل الشفاه. رأيتُ أمينا تنظر تكرارًا من فوق كتفها، ربما آملةً أن تظهر عصابة مقاتلين طرواديّين، رجال نجوا بأعجوبة من المذابح، وينقذونها، لكن لم يكُن هناك سوى نعاب الغربان التي مضت تحوّم حول الأبراج السوداء، كما لو أن شُدفًا من الخشب المتفحم قد خُلعَت وحُمِلت في الهواء. في البداية، كانت صيحاتها الصوت الوحيد، لكن من ثم سمعتُ صوتًا آخر؛ أزيز ذباب أهوج من داخل الأسوار، أسوأ من هتاف الغربان بكثير.

أقلقني أننا قد نجد الروضة موصدة، لكن لا، كانت الأبواب منتصبةً مفتوحة على مصراعيها، ومنَحني ذلك إحساسًا غريبًا بأن قدومي مُتوَقع. لا شك أن البستانيّين قد ذهبوا للمساعدة في قَطر الحصان عبر الشوارع، وربما انهمكوا بعدئذ في الاحتفالات، ولم يرجعوا قط. حالما عبرنا البوابات، وقَتْنا الأسوار العالية، وانقطعَت الريح بغتة. كانت قمم شجرات البستان تتمايل، لكن على مستوى الأرض، ما إن ابتعدنا عن البوابة المفتوحة حتى لم يعد ثمة أكثر من نسيم خفيف. شعرتُ أننا مراقَبتان، لا من أعين بشرية، بل من الورود التي

بدَت مجفلةً لوجودنا. رأينا جموع طيور من النوع الصغير الخفّاق متعدد الألوان الذي يفضل البذور والفاكهة الناضجة على الجيَف المتعفنة، تستمتع بوليمة خاصة بها في غياب بستانيّين يطردونها، واصطف صفّان كاملان من الحساسين بوقاحة على ذراعي فزّاعة، وبدَت عارفةً أنه لم يبقَ أحد تهابه.

مشينا على طول الممر بين زريعتَي خضار فسيحتَين إلى روضة الأعشاب في الطرف القصيّ. وعلى الفور، بدأتُ بقطف حفنات من الكُزبرة. لمحتُ بطرف عيني أمينا التي كانت تحدِّق إلى الأبراج المحترقة، تجثو على ركبتيها، وتبدأ بجمع الأعشاب أيضًا، رغم ملاحظتي أنها قد بدأت من عند الطرف الآخر لرتل، على بُعد يجعل المحادثة غير ممكنة. لا مشكلة، يمكنني الانتظار، عرفتُ أنها تتوقع أن تُستجوَب، لكنني لم أنوِ قسرها، ليس بعد.

طنين النحل، والروائح الممتزجة لنعناع التفاح، والصعتر وإكليل الجبل، والبردقوش والغار، والقيظ، أشبه بكف تضغط بشدة على تاج رأسي، والعرَق يخز عينيَّ، رفعتُ يدي لأمسحه، وشعرتُ بنفسي أدوخ، وصارت الروضة تدور من حولي. بحذر، وقفتُ وتدبرتُ الوصول إلى مقعد حيث بمقدوري القعود في الظل. لم يكن هذا من شيَمي، لكن لعل الحمل يجعل المرأة أكثر عرضةً للإغماء؟ أغمضتُ عينيَّ، وتمنيتُ الماء.

عندما فتحتُهما مجددًا، كانت أمينا واقفةً فوقي:

- هل أنتِ بخير؟

- أجل، لا بأس.

شعرتُ بتحسن طفيف، لكنني لم أقدِر على إبداء ذلك، لأنها جلست بجواري: «خُذي أنفاسًا عميقة».

فعلتُ كما قيل لي، مُركِزةً عينيَّ على دغل من قُفّاز الثعلب حتى توقف الدوار تدريجيًّا. شعرتُ بأني منهكة، خاوية، وعندما جُلتُ بنظري، أدركتُ أن كل شيء هنا؛ كل عشبة، كل وردة وخضرة قد زُرعت على أيدي رجال كانوا يأملون شهود الموسم القادم.. الربيع القادم. في كل مكان، ثمة دلائل على نهار عاديّ جرَت مُقاطعته، مجرفةً نصلها، مكسو بقشرة من التربة الجافة، ملقاة عند نهاية رتل محفور حديثًا، وعلى المقعد قطعة من قماشة حمراء وبيضاء ملفوفة حول وجبة غذاء أحدهم، نصف المأكولة؛ كتلة من الخبز،

ولوح من الجبن الأصفر الشاحب المتعفن مقضوم منه قضمة. كائنًا من كان، لا بد أنه كان قد بدأ وجبته للتو وقتما فُتحت البوابات، وجُر الحصان الخشبي إلى الداخل، وغادر هكذا بلا مبالاة، دون أن يفكر مرتين، متوقعًا أن يرجع، واختفى بين الحشود المحتفلة الصارخة...

لم يكسرني شيء عشتُه في ذلك اليوم، لا في ساحة المعركة، ولا رؤية المحارب الميت، ولا حتى سماع أزيز الذباب من داخل الأسوار، لكن هذا كسَرني؛ آثار أسنان رجل مجهول في لوح من الجبن العتيق النتِن. وضعتُ وجهي بين يديَّ، وبكيتُ على دمار طروادة، وعلى موت بريام، وهلاك شعبه.

لم أدرك أمينا إلا قليلًا عبر غشاوة، وفي هيئة غباشة وجه وعينَين محدقتَين، لكن بعدئذ شعرتُ بذراعيها حولي. احتوَتني، وراحت تُهدهدني، وتُمسِّد ظهري، بينما قطرت الدموع والمخاط مني. ظللتُ أردد: «أنا آسفة، أنا آسفة»، حتى صرتُ في آخر الأمر أحزق وأتنشّق، وأمسح أنفي بظهر يدي، وبعد فينة، التقطتُ القماشة الحمراء والبيضاء، واستخدمتُها عوضًا عن ذلك، وقلتُ:

- أوه، يا إلهي! لا أعرف ما حل بي، فأنا لا أبكي، لا أبكي أبدًا.

- اهدئي، لا عليكِ.

خلعَت خمارها، ونشّفَت وجهي به، ثم تابعنا الجلوس في الظل وحسب. كانت الأرض حول المقعد موشّاةً بالتفاح البنيّ الطريّ، وعدد لا حصر له من النحل الدائخ المُحلّق متلويًا بثمالة حول الوليمة. والآن بعد أن انقضَت عاصفة النواح، شعرتُ بالتفاهة مجددًا.. بالخواء، لكن بعد ذلك، بدأ مزاجي بالتحسن تدريجيًا. رحتُ أرنو إلى كل الألوان في الروضة؛ الأرجوانيّ والأزرق، والأحمر والأخضر والأصفر، بدا الكثير منها ساطعًا إلى حد أنها نجَت حتى من غَمرها في الضوء المشوب، ذلك أننا ورغم كوننا في خدر من الريح، فقد تفرقت السُحب الرماديّة لتكشف عن الوهج البرتقاليّ المعهود. حدثتُ نفسي: «يومًا ما، سأحظى بروضة كهذه». وشعرتُ بهياج أمل، يكاد يكون موجعًا، مثل عودة تدفق الدم إلى طرف خَدِر. قعدَت أمينة صامتةً بجواري، تنظر إلى أعلى الشجرة، إلى الأغصان والأوراق المتهزهزة. لم تُبدِ أيّ محاولة لمواساتي فيما خلا تلك الـ «اهدئي، لا عليك»، التافهة، ولم يمنع ذلك امتناني لها رغم ذلك.

ربما كان يجدر بي الحديث آنذاك، وقتما كنا مقربتَين لحظيًا، لكنني شعرتُ بالكثير من الهشاشة. وهكذا، بعد فينة، وما لا يزيد على نظرة تبادلناها، عُدنا ببساطة إلى جمع الأعشاب.

في وسط الروضة، ثمة حوض مُركّب على شكل عجلة، صُمّمت محاورها لتحتوي أكثر النباتات خصوبة، تلك التي لولا ذلك كانت لتنمو بحريّة أكثر خانقةً البقية. شققنا طريقنا حول الدائرة، قادمتَين من اتجاهَين متعاكسَين، وكانت الحميميّة التي بلغناها على المقعد تضمحل بسرعة، والتوتر بيننا يزداد مع اقترابنا، حتى التقينا أخيرًا.

فقلتُ:

- حسنًا، أكنتِ أنتِ؟

ماتت الكذبة التي أوشكت أن تقولها على شفتَيها:

- لمَ تريدين أن تعرفي؟ ألن يكون خير لك ألا تفعلي؟

غضضتُ الطرف عن ذلك:

- الأمر أنه لن يشتبه بالنساء. في الوقت الراهن، هو يفكر بكالخاس، الكاهن، أتعرفينه؟ أو هيلينوس، لأنهما الطرواديّان الوحيدان في المعسكر...

- أنا طرواديّة.

لَسَعَني ذلك:

- وأنا أيضًا.

- أجل، لكن الأمر مختلف في حالتك، أليس كذلك؟ (وهبطَت نظرتها إلى بطني) لقد اتخذتِ خِيارك.

- خيار؟ أيّ خيار تظنينه كان أمامي؟! (أخذتُ نفسًا عميقًا) انظري، أنا أحاول المساعدة. إذا ما بقيتِ متواريةً عن الأنظار، ولم تفعلي شيئًا سخيفًا، فثمة احتمال كبير أن يمر الأمر بسلام. يمكننا اجتياز هذا.

- نا؟

- أجل! نا.

رسمَت لي ابتسامة متكلفةً مُغيظةً، وأردتُ صفعها:

- أتعلمين أنه قد أمر بنبش الجثة من جديد؟

كنتُ أراقبها من كثب، وتمكنتُ من رؤية أن ذلك آلمها.

- إنه كذّاب!

- مَن؟

- بيروس. لقد أخبر أندروماخي أن بريام مات دون ألم، قال إن الأمر جرى سريعًا، وهذا محض كذبة. ما كنتِ لتقتلي خنزيرًا كما قتَل بريام، والمروّع في الأمر أن هيكوبا شاهدَته. لقد توسلَت إلى بريام ألا يلبس درعه، لكنه فعلها، كان من المستحيل ألا يُقاتِل.

- لقد فعل ما وجب عليه فعله.

- أجل، وأنا كذلك.

ما ازداد وضوحًا بثبات بينما أنصتُّ إليها، كان قدْر عنادها، وقدْر مناعتها ضد المنطق. ذكَّرتني بامرأتَين عرفتُهما أول مجيئي إلى المعسكر؛ أختين، كانتا كل يوم عند الغسق تنطلقان في مشوار وجيز، متشابكتَي الذراعَين، مُحكَمتَي الخمارين، لا تنظران لا يمنة ولا يسرة، بل دائمًا وبتواضع للأسفل حيث أقدامهما. ومن ثم، بعد نحو مئتَي ياردة، دون حتى أن تنظر واحدتهما إلى الأخرى، تستديران وترجعان. في ظاهر الأمر، لا أحد يمكنه أن يكون أقل شبهًا بأمينا من تلك المرأتَين الضئيلتَين الرعديدتَين، لكني رأيتُ التعنت نفسه فيها.. التمنع عن قبول أن الحياة قد تغيرت. جعلها ذلك عصيّةً على التواصل، ومع ذلك شعرتُ أن عليَّ مواصلة المحاولة:

- سيقتل أيّ شخص يحاول دفن بريام الآن.

- أعرف.

تعيَّن عليَّ ترك الموضوع عند هذا الحد، فقلتُ:

- تعالي، لا ضير في جلب بعض الفاكهة بما أننا هنا. من العار تركها تروح هدرًا.

كان البستان على الطرف الآخر من الروضة؛ مكان ظليل، وبالأحرى غامض مملوء بالأشجار المنصتة، وكانت شجرات الكرز قد غُطيت بشباك لمنع الطيور الناهبة، لكن بالوقوف على رؤوس أصابعنا، تمكنا من بلوغ

إحدى الشباك ونقضها. تسلقت أمينا الشجرة، وراحت تلقي الكرزات إليَّ. أتذكَّر كيف تشلشلَت على وجهي وذراعيَّ، تاركةً لطخات حمراء مثل بقع الدم. توسلتُ إليها أن تنزل، خشيتُ سقوطها، لكنها واصَلت رشقي بالكرز، وهي تضحك ضاجةً بالمرح. كانت ناضجة، بل مفرطةً في النضج، فعجزنا عن مقاومة أكلها، ووجدناها شهيّة. التفتُّ إليها، ولاحظتُ وجود علامتَين حمراوَين صغيرتَين على زاويتَي فمها، تحركان شفتَيها تجاه ابتسامة. كنّا إذن صديقتَين تقريبًا.

كدحنا في رحلة العودة كدحًا شاقًا، إذ باتت السلال ثقيلة، والريح تعصف في وجهَينا مباشرة. لاحظتُ وأنا أرسل نظري أمامي أن الريح خفيّة في أرض المعركة؛ لا توجد أشجار لتُقتلع، ولا نباتات لتُمهّد. واصلنا الكفاح عبر الأرض البائدة، وكنتُ قد أسأتُ تقدير الوقت الذي سنستغرقه، فبدأ الغسق بالهبوط قبل أن نبلغ منتصف الطريق. كان المِجْثَمُ[1] المسائيّ قد بدأ للتو، وفي الضوء الآخذ بالخبو، بدَت الطيور شبه خفيّة فوق التربة السوداء، وجعلَت تتحرك متقاعسةً وعلى مضض. وضعتُ سلتي أرضًا، ورحتُ ألوّح، وأصفق بيديَّ، لكن لا شيء أخافها، ونعق الغزاة انتصارًا، إذ كانوا الغزاة من غير ريب وغلاتهم طافحة باللحم البشريّ. مشينا بحذائها على اعتبار أن هذا أفضل ما يمكننا فعله، لكن الوصول إلى الخندق، ورؤية الأضواء، وسماع الأصوات كان فرَجًا. كنتُ مستقتلةً للطمأنينة، والأمان النسبيّ للمجمع حد أني كدتُ أركض آخر مئة ياردة.

(1) المِجْثَم: مكان جثوم الحيوان أو الطائر. (المترجم).

17

كان الكوخ مُعتمًا وهاجعًا وقتما رجعتُ، فرحتُ أتلمس طريقي إلى غرفة المعيشة، ظننتُها في البداية خالية، قبل أن يرجفني مستطيل من ظلمة أشد على السرير. بأصابع مرتجفة، أشعلتُ سراج الزيت، فوثب ظِل ألكيموس على عرض الأرض.

- طال غيابك.

- إننا نعاني نقصًا في الأعشاب، وكنتُ...

- ساوَرني القلق.

- آسفة. أثمة ما يمكنني جلبه لك؟

- كأس نبيذ، وصُبّي واحدة لكِ أيضًا، علينا أن نتكلم.

صببتُ كأسين، ووضعتُهما على الطاولة. جلسنا وجهًا لوجه، لكنه لم يتكلم مباشرةً على الرغم مما قاله للتو. كنتُ أعرف أنه لا ينبغي لي طرح الأسئلة عن دفن بريام، فقد يكون ذلك متسرّعًا حتى لغرض إبداء اهتمام، لكنني لم أتمالك نفسي:

- أوجدتم هيلينوس؟

- نعم، كان مع أخته.

حملتُ نفسي على الانتظار.

- نظَر في وجه بيروس مباشرة، وقال إنه يتمنى لو أنه قد دفن بريام. قال إنه يشعر بالخزي، لأن شخصًا آخر اضطُر إلى فعلها، كان ينبغي أن يكون هو.

- هل جرى...؟

.... تعذيبه.

أردتُ أن أسأل، فذلك كان خوفي الأعظم؛ أن يدفع شخص آخر ثمنًا هائلًا لقاء ما فعلته أمينا، فأجبرتُ نفسي على نطق الكلمة.

كان ألكيموس خافضًا نظره إلى كأسه:

- لا، لا حاجة، فهو رجل كسير، وبمجرد أن ينكسر رجل بهذا الشكل، ويخون كل شيء، لا سبيل للعودة.

عمّ الصمت، ورحتُ أراقب الظلال ترسم تجاويف في خدَيه.

- عمّ كنتَ تريد أن تكلمني؟

- أوه! عن أندروماخي. بيروس يريدها أن تقدم النبيذ على العشاء الليلة.

- لا، لا يمكنها.

خرجَت الكلمات قبل أن أتمكن من إيقاف نفسي. كان بيروس ضمن نطاق حقوقه بالكامل، فهي جائزة شرفه، ما يمنعه من التفاخر بها أمام رجاله؟ منذ وقت ليس ببعيد، كان أخيل يستعرضني على العشاء بالطريقة نفسها بالضبط، لكنني اعتدتُ ذلك، حتى إني تعلمتُ تقدير إمكانيّة الوصول إلى المعلومات التي أتاحها لي، لكن أندروماخي، بالحالة التي كانت فيها...؟ عجزتُ عن تصوُّر كيف ستبدأ حتى بمواجهة الأمر.

قال ألكيموس:

- كنتُ أفكر في أنك قد ترغبين بمصاحبتها. (لطالما أبدى دماثةً جمةً مع أندروماخي، كان هو وأتوميدون قد دفنا ابنها الرضيع، لكن مع هذا، فوجئتُ أنه مستعد للسماح بذلك) إن كنتِ لا تمانعين.

- لا يمكنها فعلها بمفردها. (وهممتُ بالوقوف) سأذهب إليها، إلا إن كان ثمة شيء آخر...؟

تردد:

- خذي حذركِ بالقرب من بيروس. قلتُ لكِ إن هيلينوس لم يُعذَّب، صحيح؟ حسنًا، هو لم يُعذَب، لكن بيروس فعل فعلًا غريبًا بعض الشيء؛ لقد غرز خنجره في معدة هيلينوس، ليس عميقًا، مجرد جرح، لكنه بلّل أصابعه بالدم، وأظنه استمتع بمعرفة أن هيلينوس خائف.

بحسب مقياس إراقة الدم في المعسكر، بدا ذلك تافهًا بسُخف، لكن من الجليّ أنه قد عكّر ألكيموس، وهو رجل لا يسهل تعكيره. أردف:

- لم يكن من داعٍ لذلك، إذ كان هيلينوس مستقتلًا ليخبرنا بكل ما يعرفه، الذي كان لا شيء!

انتظرتُ، لكنه لم يزِد:

- أهذا كل شيء...؟

- أجل، أجل، يمكنكِ الذهاب.

ذهبتُ أولًا إلى غرفة المخزن، وجلبتُ غلالة مزركشة من الخزانة التي كنتُ أحفظ ثيابي فيها، ثم إلى غرفتي لأمشط شعري. مرّ وقت طويل مذ فعلتُ هذا، رغم أنه ظل روتيني الليلي لأشهر عديدة في حياة أخيل. وقتما فرغتُ من اللبس وتمشيط شعري، فتحتُ فمي عدة مرات على أقصى اتساعه، سامعةً طقطقة شدقيَّ، ثم مططتُ شفتيَّ في شق ابتسامة. عادت كل النرفزة القديمة.. كل التوتر القديم، فأطلقتُ نفسي، وعبرتُ المسافة الوجيزة إلى كوخ النساء. كان الرجال قد بدؤوا بالتجمع أمام الكوخ بالفعل، وفاحت رائحة اللحم المشويّ عبر الباب المفتوح، فشعرتُ بدفقة لُعاب، لكني عرفتُ أني لن آكل حتى وقت طويل لاحق، هذا إذا ما أكلتُ أصلًا.

في الكوخ، ذهبتُ مباشرةً إلى غرفة أندروماخي، ووجدتها صاحية، ومرتدية ملابسها، لكنها واقفة عاجزة بجوار السرير، وشعرها لا يزال أشعث من النوم. لم تكُن الغلالة التي تلبسها ملائمةً بتاتًا، فعدتُ إلى غرفة الجلوس، واخترتُ فتاتَين كيفما اتفق، وطلبتُ منهما جلب ماء ساخن وملابس نظيفة. بإرشاداتي، ساعدتا أندروماخي على الاغتسال. كان الحمّام أفضل، لكننا لم نتمتع بمتسع من الوقت لذلك. ومشطتا شعرها حتى بان بريقه. ومما بالغ في إدهاشي أن أمينا دخلَت حاملةً إكليلًا من الأقاحي الأرجوانيّة، من الصنف الذي ينمو بجزالة في هذا الوقت من العام. وضعَته على رأس أندروماخي، وثبتَته في مكانه المناسب، ثم تراجعَت للاستمتاع بالنتيجة. لائم اللون أندروماخي؛ سناء الأرجوانيّ على ديجور شعرها، وإن لم يكن ثمة مهربٌ من التباين بين نضرة الورود، وذوي وجهها.

قلتُ بقوة، وأنا أفرك ذراعيها: «ستكونين على خير ما يرام، وسأكون إلى جانبك، لستِ بمفردك، حسبكِ أن تصُبي النبيذ اللعين، وتأملي أن يخنقهم».

تعثرَت مرتين في المشية القصيرة بين كوخ النساء والردهة، ولدى تخطِينا العتبة، شعرتُ بلفحة هواء ساخن فتّحَت المسام في جلدي. روائح لحم البقر المشويّ، والتوابل، والخبز الدافئ، والرجال المتعرّقين، والصمغ من الجدران، والقير من المشاعل، لكن أيضًا روائح أشد لذعة وغضاضة من الأسل المُهسهس تحت أقدامنا. أوه! والجلبة! غناء خشن في البداية يعلو إلى هدير، ثم يخبو إلى ضحك وسخرية. وضرب القبضات على الطاولات أحيانًا بالتزامن مع الموسيقى، وأحيانًا أخرى للاحتجاج على أن الطعام لم يصِل بالسرعة الكافية. أخذتُ أندروماخي إلى الركن القصيّ، حيث يوجد خوان عليه أباريق نبيذ مصفوفة. وضعتُ واحدًا بين يديها، آملةً من الله ألا تُسقطه، ثم حملتُ واحدًا، وبدأتُ أشق طريقي إلى أقرب طاولة، جارَتني أندروماخي على الجانب الآخر. حيّاني المرميديّون بكل أمارات التحنان، حتى إن واحدًا أو اثنين منهم ربّتا على معدتي. ما كنتُ لأقدر على تخيل أن يلمسني دون الخصر كل هذا الكم من الرجال، بقصد جنسي على هذه الضآلة. رأيتُ امرأتَين أخريَين؛ امرأتَين من العوام من حول المواقد، تتجهان إلى الطاولة الأخرى، وكانتا تُلمسَان بفسوق باستمرار، ويُقبَض على نهودهما ومغبنَيهما. صادف أن نظرَت إحداهن من الطرف الآخر إليَّ، وما زال وجهها محزونًا وجامدًا وبعيدًا، يطاردني حتى يومنا هذا، رغم عجزي عن تذكُّر اسمها.

لم أحظَ براحة تتيح لي حتى النظر إلى الطاولة الرأس، حيث جلس بيروس وألكيموس وأوتوميدون إلى أن صار جميع الرجال يأكلون ويشربون. كان كالخاس هناك أيضًا، متسربلًا بكل ملابس الكهانة الفخمة، وإن أخذ الطلاء الأبيض على وجهه يتقشر بفعل الحر. أهو مدرك أنه ليس هنا إلا ليُستجوَب، وأن الرجال الجالسين على جانبَيه ليسوا أصدقاءه؟ كان ألكيموس خافضًا نظره إلى صحنه، وفي بعض الأحيان تشحذ رؤية المرء من بعيد لشخص يعرفه خير معرفة من فهمه له. بات أنحل مما كان عليه وقتما عرفتُه، وأكبر سنًا. حينما رفع نظرهَ عن صحنه، راحت عيناه تجولان على الطاولات، وتُقيّمان التفاعلات بين الرجال، يقظةً للحظة التي تتحول فيها الفكاهة إلى إهانة حقيقيّة، وتُنكأ الجراح القديمة بفجاجة، فتعود للظهور، وتطالب بالثأر. هؤلاء رجال عاشوا على أعصابهم لسنوات، والآن، عندما ينبغي للأمور أن تكون يسيرة، أحبطهم التأجيل المتواصل لرحلتهم المَتوقَة إلى الديار. كان كل

يوم يبدأ بالأمل، وكل يوم ينتهي بالخيبة. لقد انتصروا في حرب للتو، فكيف يمكن أن يكون طعم هذا النصر، الأعظم في تاريخ العالم -وقد كان كذا، لا يمكن إنكار ذلك- قد بدأ يتحول إلى هزيمة؟

لذا أولى ألكيموس انتباهًا يقظًا إلى إحصاء المتاعب، ووقتما التفتُّ لأنظر حولي، حسبتُ أنني فهمتُ لمَ. كان بيروس قد جلب زمرةً من الشبان معه من جزيرة أمه سكيروس، وطفقوا يسرفون في الشرب، ويصرخون، ويضايقون الفتيات الخادمات، ولم يكُن شيء من هذا غريبًا تمامًا، لكني رأيتُ في أعين المرميدنيين أن هذا السلوك ينمّ عن قلة احترام للرجال الأكبر والأخبَر الذين حملوا وطأة القتال. تبادل بيروس وهذه الزمرة الكثير من التعليقات الصاخبة. كان متوَردًا، رغم إقرار الجميع بأن بشرته الشاحبة سريعة التوَرد، وظهر واضحًا أنه متوعّك من كثرة الشُرب؛ كان بعيدًا عن أن يكون مثالًا يحتذى به، بل بدا جزءًا كبيرًا من المشكلة. لم يبِن شيء من هذا لي، وأنا جالسة وحيدة في كوخي، أندف الصوف، وأشرف على تجهيزات العشاء، وأنتظر عودة ألكيموس، لكني رأيتُ الأمر بوضوح بالغ الآن؛ هذه الردهة محشوّة من الأرض حتى السقف بالضرام[1]، وشرارة واحدة كفيلة بتأجيج النار فيها.

بدَت أندروماخي ممتقعةً ومرهقة، لكنها على الأقل لا تزال واقفة، وهذا أكثر مما توقعتُ. همستُ لها أن تبدأ بجمع الأباريق، فعلينا تعبئتها مرة أخيرة، ووضعها على الطاولات، ثم انتظار الإشارة لننكفئ. هذا ما جرَت عليه العادة في حياة أخيل على الأقل، كان دائمًا ما يسمح لي بالمغادرة قبل بدء الشرب الحقيقي الفاحش. وضعنا الأباريق على مسافات منتظمة على طول الطاولات، ثم ذهبتُ لأحضر بعضًا من أحسن الأنبذة للطاولة الرأس. اتخذَت أندروماخي مكانها خلف كرسي بيروس، فمد كأسه دون أن يلقي نظرةً تجاهها حتى، وبينما أخذت تصب، خُيِّل إليَّ أني لمحتُ فيها صلابة لم أرَها قبلًا، وقد منحني ذلك أملًا.

كان معظم الرجال قد نالوا كفايتهم من الطعام بحلول هذا الحين، وجعلوا ينقرون من اللحم، أو يمسحون العصارة بشقف من الخبز فحسب. وهنا، على الطاولة الرأس، أخذ بيروس بالكلام عن محاولة دفن بريام، وقال إن أيًا كان من فعل هذا، فقد قوطِع قبل أن يمكن من إتمام العمل. لذا جرى

(1) الضِّرَامُ: ما تُضْرَمُ به النارُ من الحَطَبِ وغيره السريعِ الالتهاب مما ليس له جمر.

نبش الجثة، وعُيِّنَ حراس للتأكد من ألا يحدث ذلك مجددًا. كل الجالسين إلى الطاولة الرأس يعرفون ذلك بالفعل. كان هذا الشرح موجهًا إلى كالخاس، وقد بدا حائرًا أمام المنعطف الذي تتخذه المحادثة. أمكنني استشفاف أنه كان بالفعل يشعر بإهانة بالغة إزاء استقباله، إذ لم يُطلَب منه أَمُّ الجماعة في الصلاة، ولا إراقة سكيبة للآلهة، والآن، بيروس يضايقه، وثمة عدائيّة حقيقيّة في سحنته، ولا أثر للاحترام على الإطلاق.

ملأتُ كؤوسهم صامتة، خفية، ومنصتة. وفجأةً، بينما أنظر إلى أسفل الردهة، قلتُ لنفسي: «لقد فاتني هذا!».

عندما انتهى الطعام، بدأ الغناء. كان بيروس قد أمّن وجود شاعر مرموق، وثمة عدة منهم في المعسكر. راح الشاعر يشدو وحده، رغم وجود لازمات، حيث يمكن للرجال المشاركة. كل الأغاني كانت عن أخيل، عن حياته القصيرة، ووفاته المجيدة، عن بسالته، ووسامته، وثائراته المتعاقبة المُروّعة، وأذكر أن واحدةً من الأغاني كان اسمها «ثائرة» ببساطة. صادف أني وقفتُ في الظلال عند طرف الطاولة الرأس، لذا تمكنتُ من رؤية وجه بيروس. لا بد أن سماع مآثر أبيه تُبجّل في كلمات وموسيقى مدعاة فخر له، وقد كانت تلك من أفضل الكلمات، وأرفع الموسيقى التي سمعتُها على الإطلاق، لكن عندما نظرتُ إليه تساءلتُ عمّا إذا كان ثمة مشاعر أخرى أكثر إيلامًا، تختلج في صدره. في بعض أجزاء المعسكر، وليس في مجمع المرميدنيّين وحده، عُبِد أخيل، وكأنه إله! ولا بد أن أوقاتًا مرت على بيروس شعر فيها أنه شتلة ضئيلة عجفاء تكافح للنجاة في ظِل سنديانة عملاقة. أسَبق له أن شك في نفسه؟ أظن أنه لا بد فعل.

خبَت الأغنية الأخيرة إلى صمت، فوقف الرجال، وشرعوا يصفقون، ويضربون الطاولات ويصرخون ثناءً، في حين قعد المغني في كرسيه إلى الطاولة الرأس، وقَبِل بكأس من النبيذ.

بعد وقت ليس بطويل، اقترح ألكيموس على بيروس أن الأوان قد آن لأندروماخي ولي لننسحب، وبدت ملامح بيروس كأنها صُفَّتْ من التعابير للحظة، لكنه بعدئذ أومأ برأسه، فانكفأنا إلى الغرفة الصغيرة «الخزانة»، وجلسنا على السرير حيث أكلنا شقفًا من الخبز، وبعض التين المتيبس. ظلت أندروماخي تأخذ أنفاسًا عميقة، كما لو أنها كانت نصف مختنقة حتى ذلك الحين.

قلتُ، وأنا أنهض لأذهب: «ابتهجي. إن حالفنا بعض الحظ، فسيفقد وعيه».

عبرتُ الفناء إلى كوخ ألكيموس، لكنني لم أكُن مستعدةً للخلود إلى النوم بعد، فجلبتُ كرسيًا، ووضعتُه في أكثر الأقسام استتارًا من الشرفة. كانت الردهة في اهتياج، ودائمًا ما تكون صاخبةً بالقرب من نهاية الأمسيّة، قبل أن يتفرق الرجال بحثًا عن أشكال أخرى من التسلية، لكن لم تجرِ العادة على وجود هذا الكم من الأصوات المرتفعة. تساءلتُ عمّا إذا كان عليَّ الذهاب إلى كوخ النساء في الناحية المقابلة، وتحذير أمينا بشأن الحراس، لكن الفتيات على الأرجح قد استقررن للنوم، وبأيِّ حال، لم يسعني تصديق أنها قد تضطلع في مجازفة مخبولة كهذه، ليس مرة ثانية. كلنا يمكننا أن نكون شجعانًا مرة.

كان رأسي يطنّ بمشاهد وأصوات من العشاء، مقتطفات من محادثات سُمِعت خلسةً لا تحمل معنىً بحد ذاتها، لكنها معًا رسمَت صورة. بيروس وشباب سكيروس الذين لم يقدِر، أو لم يُرِد السيطرة عليهم. وجْه ألكيموس اليقظ، وهو يقلّب طرفه بين الطاولات، يفعل لبيروس ما كان فطرقل يفعله لأخيل تمامًا؛ درء المتاعب. غير أن فطرقل كان يتمتع بثقة أخيل الكاملة، في حين شككتُ أن بيروس في سره يحتقر ألكيموس، الذي قاتل بجوار أبيه، والذي عرف الرجل الذي لن يعرفه أبدًا. صرتُ أفهم الضغط الذي رزح ألكيموس تحت ثقله فهمًا أفضل الآن.

أخذ الاهتياج يزداد صخبًا، رغم عجزي عن سماع ما يصرخون به، وشعرتُ أننا في مقتبل ليلة مشاكسة. وقفتُ وأنا أهمّ بالدخول وقتما حدثت فوضى عند مدخل الردهة، وظهر بيروس على الشرفة مع كالخاس، وواضح أنهما يتجادلان. بدا أن الشجار كان حول أبولو، والدور الذي يعتقد بيروس أن الإله قد لعبه في موت أخيل. قال إنه من البديهيّ أن لا إنسان يمكنه الفتك بأخيل، وأن ذلك لا بد من عمل إله، والكل يعرف أن أبولو كان يكره أخيل الذي يضاهيه قوة وجمالًا. ومن وجهة نظر كالخاس، كان بيروس يفيض كفرًا، فرفع يده، ليحتج كما ظننتُ، لكن ربما رأى بيروس ذلك تهديدًا. على أيّ حال، أمسك بكالخاس من معصمه، ودفعه بعنف تجاه الدرجات. لا أظنه نوى إيذاءه، لكن للأسف، تعثر كالخاس بحاشية روبه، وسقط رأسيًا عبر الدرجات إلى الفناء، حيث رقد باسطًا أطرافه، وقد غادرَته كل نفحة من أنفاسه.

رفع كالخاس رأسه بعد بضع ثوانٍ، وكان الدم ينزّ من ثلم عميق على عظم خده، مُحيلًا الطلاء الأبيض إلى فوضى ورديّة. نظر إليه بيروس بفم فاغر، مذعورًا في البداية، لكن من ثم انفجر ضاحكًا. كان بوسعه ترك الأمر على هذي الحال -وكان ذلك ليكون وضيعًا بما فيه الكفاية-، لكن شبان سكيروس جاؤوا محتشدين في الباب من خلفه، يضحكون ويحفّزونه. بحلول هذا الوقت، تدبّر كالخاس إنهاض نفسه على أربعته، وقبالة تلك المؤخرة المُغوية، عجز بيروس عن المقاومة، فقفز هابطًا الدرجات، وركز قدمه على عُجيزة كالخاس مباشرة، ودفعه بشدة ليعيده منبطحًا، ثم التفتَ إلى أتباعه يصرخ، ويلكم الهواء، وبدورهم راحوا يصفعون ظهره، وينفشون شعره، وشدّوه عودًا إلى الردهة، صارخين على النساء أن يجلبن المزيد من الخمر.

حثتني غريزتي الأولى على الإسراع للمساعدة، لكني بدلًا من ذلك انكفأتُ أكثر إلى الظلال، ورحتُ أتفرج، بينما نهض أوتوميدون بكالخاس ليقف، ونفض عنه الغبار. في معظم الأحيان، أولئك الذين يشهدون إذلال رجل يُستاء منهم بقدر الشخص الذي يوقِع الإذلال تقريبًا، ولم أرغب بمعاداة كالخاس؛ لعله مثلما يقول الجميع، قد فقَد حظوته عند أجاممنون، لكنه لا يزال رجلًا حاذقًا ونافذًا. لذا اكتفيتُ بمراقبة أوتوميدون، وهو يسنده بينما عرج بضع خطوات تجريبيّة. كنتُ أعرف أن أوتوميدون رجل مؤمن تقيّ، وأنه يستنكر الإهانة التي قد شهدها للتو. قرقر بعض الرجال حول نيران المعسكر، أو سخروا جهارًا، بينما مر الكاهن يعرج أمامهم، لم يكُن الأمر أنهم يبغضون كالخاس، إنما كانوا متنمرين، مستعدين لمهاجمة أيّ شخص يرونه ضعيفًا، مثل أبناء عرس تتشمم الدم، لكن آخرين هالهم الأمر بجلاء، حتى إن واحدًا أو اثنين منهم رسما الرمز الطارد للعين الحاسدة وقتما مرّ كالخاس وذراعه مسدلة على كتفَي أوتوميدون، يجرّ قدمَيه ببطء إلى البوابة. أظن أن أوتوميدون أعان الكاهن طوال الطريق إلى منزله، ذلك أنني لم أره يرجع رغم مكوثي في الشرفة لبعض الوقت.

18

في اليوم التالي للحادثة، أمر بيروس الرجال بالتجمع في الفناء، وتكلم إليهم من على درجات الشرفة. كان أداءً غير حصيف، فبعد أن أخبرهم بأن محاولةً قد أُجريَت لدفن بريام (وكانوا يعرفون)، واصل كلامه ليقول إن أيًّا كان من يحاول ذلك مجددًا، فسيواجه عقوبة الإعدام، واختتم بخطبة رنانة عن الولاء، رغم أن المرميديّين هم الأكثر ولاءً بضراوة لقادتهم من أيّ وحدة عسكريّة. أثاروا له هتافًا في النهاية، لكنه أُسكت، وبينما تشتت الحشد، رأيتُ نظرات يجري تبادلها، وإن لم يقُل أحد شيئًا.

أبقيتُ وقتي مملوءًا، فلم يسبق للكوخ أن كان على هذا القدر من النظافة، لكن حالما قعدتُ، وأغمضتُ عيني، امتلأ ذهني مرة أخرى بالصور، مثل مدٍّ يسقط على بركة صخرية، أمينا تثبت إكليلًا من الأقحوان الأرجوانيّ في شعر أندروماخي، وجه بيروس المتورِّد وضحكته الناهقة، كالخاس ناشرًا أطرافه في التراب. ثمة شيء واحد فعلتُه -وقد يرى البعض هذا غادرًا- طلبتُ من ألكيموس أن يجعل الحراس يجوبون المنطقة حول كوخ النساء، ولستُ أدري ما إذا تذكر إخبارهم أم لا. لاحقًا في ذاك المساء، ذهبتُ مع أندروماخي إلى الردهة، حيث قدّمنا الخمر على العشاء، وسط توتر شديد في الأجواء.

بطريقة ما، بدا أن خطاب بيروس قد فاقم المشاعر الفاسدة النامية بين الشبان الذين جلبهم معه من سكيروس والمرميديّين، وهو شقاق ظهر أن بيروس يستحثه. لم أشعر أن هؤلاء الشبان أصدقاؤه قط -ولستُ متأكدة من أن بيروس كان عنده أيّ أصدقاء-، لكن بدا أنه يشعر بحاجة إلى التودد إليهم. قريبًا من نهاية المساء، نشب قتال بين واحد من رؤساء العصابات السكيروسيّين وميرميديّ أكبر سنًّا. لم يكُن معروفًا عمومًا بميله إلى

المشاجرات، لكنه ضاق ذرعًا وحسب. فتدخل ألكيموس، وتبعه أوتوميدون، لكن بيروس لم يمنحهما أيّ عون إطلاقًا، وبالأحرى، كان يضعضع سلطتهما، رغم أن منصبه نفسه قائم على قدرتهما على ضبط الرجال. انتهت الوجبة بقفز فتية سكيروس على الطاولات في ما كان بمنزلة رقصة نصر هلّلَ لها بيروس بصخب، واضطُررتُ إلى تذكير نفسي باستمرار أنه كان في السادسة عشرة فقط.

نمتُ في تلك الليلة نومًا رديئًا، وانتفضتُ مستيقظة قبل الفجر بكثير، ورحتُ أحدِّق إلى الظلام، عارفةً أن صوتًا جديدًا قد أيقظني. غربلتُ الأصوات المختلفة التي كانت الريح تصدرها، إذ طفقت تعزف أعمالها الفنيّة المعهودة من آهات وأنّات، وجهشات وصفير، والمهد أسفل سريري آخذ بالصرير. لا شيء جديد في أيّ من هذا، لكن حينئذ سمعتُه مجددًا؛ هسيسًا مُلِحًّا من الجانب الآخر للحائط. شخص ما عازم على إيقاظي، لكنه غير راغب بجذب الانتباه بالطرْق على الباب. ركزتُ شفتيَّ على فتحة بين الألواح، وسألتُ:

- مَن؟

- مايري.

كنتُ مسطولةً بفعل النوم حد أنني استغرقتُ لحظةً ريثما استعدتُ صورة وجهها. إنها الفتاة الثقيلة البليدة التي يلتقي حاجباها في المنتصف، والتي دائمًا ما تسربلت بروب أسود فضفاض، حتى داخل الكوخ. كانت مفرطةً في الاحتشام إلى حد حتى أمينا لم تبلغه!

- ما الأمر؟

- لقد رحلَت أمينا.

- رحلَت؟! ما قصدك بأنها رحلَت؟

غير أنني كنتُ أعرف ما قصدها. من غير انتظار إجابة، انتزعتُ ردائي، وتحسستُ طريقي على طول الممر. وجدتُها تلف حول زاوية الكوخ وقتما فتحتُ الباب، ووجهها البدريّ الشاحب يلوح في السواد. قلتُ: «ارجعي أنتِ، سأذهب للبحث عنها».

أومأَت برأسها، وهمّت بالانطلاق، لكنني أمسكتُ بذراعها:

- كم مضى على غيابها؟

- لا أعرف، كنا نائمات كلنا.

- حسنًا، ارجعي الآن، وقولي لهن ألا يقلقن.

ما مقدار ما عرفَته الأخريات؟ كان أحد مخاوفي أن تقدر أمينا على جرّ بقية الفتيات إلى حملتها الجنونيّة، وإن لم أظن أنها قد تفعل ذلك، فهي شديدة الفخر بانعزالها، بعفّتها المتنسّكة المغمومة، ولم تكن لتستعجل في مشاركة شرف المجازفة التي تتسربل بها، رغم أني عندما غادرتُ الكوخ، كنتُ لا أزال أفكر: لا، لن تفعلها. ليس الآن، ليس بوجود حراس قائمين بجوار الجثة، وبيروس حازم في تصميمه على إيجاد الجاني. لا بد أنها قد سمعَت خطابه، فقد سمعه كل من في المجمع، غير أن احتمالًا آخر كان قائمًا، وهو أنها فرّت ببساطة، ولعلي شجعتُها حتى عن غير قصد. إذ رأت كمّ الطعام الموجود في روضات المطبخ الطرواديّة المهجورة، وعساها فكرَت أن بوسعها الاختباء هناك، مع أن أيّ مستقبل سينتظرها في ذلك؟ مع الغربان الناهمة والذبابات اللاهمة، والبيوت المحترقة والمعابد الموبقة، والشتاء خلف الباب؟ ستواجه العزلة التامة لشهور على أقل تقدير، وفي النهاية، ستفسد الخضار والفاكهة في أرضها. وسرعان ما ستنفد خزينة الطعام التي تبدو الآن فيّاضة.

تخيلتُها تركض عبر ساحة المعركة، ليس لأني ظننتُها قد فعَلت، بل لأني عرفتُ أنها لم تفعل، والبديل أخبث بكثير مما يمكنني تحمُل التفكير فيه. بدا ما ظننتُه حقيقةً في حركة قدميَّ اللتين كانتا تسوقانني إلى فناء الإسطبل. كانت عباءتي محوكة من الصوف الأزرق، أزرق قاتم إلى درجة يسهل معها ظنه أسوَد، وقد أحكمتُ لفّها حول رأسي حتى غُطّي كل شيء إلا عينيَّ. انسللتُ على امتداد جانب أحد الأكواخ، وانتظرتُ حتى تيقنتُ أني لستُ مراقبة، ثم اندفعتُ عبر المساحة المفتوحة إلى ظِل التالي. سمعتُ عبر الجدران الخشبيّة آهات، وغمغمات، وصيحات بين الحين والآخر. كانت قلة قليلة من الرجال في المعسكر تحظى بنوم هانئ، ففي ظلام الليل، لم يكن محو ذكريات ما حدث داخل طروادة سهلًا. نظرتُ أمامي، وإما أن عينيَّ قد بدأتا تألفان العتمة، وإما أن الصبح آخذ بالطلوع. ليس أمامي متسع من الوقت.

كانت المشاعل تضطرم في فناء الإسطبل، وأضواؤها تتهدج، كما يبدو دائمًا أنها تفعل في الرياح العاصفة. وجب عليَّ أن أكون محترزة، ذلك أني أعرف بوجود صبي سائس ينام في غرفة التسريج عند الطرف البعيد، ومنها كان يخرج في بعض الأحيان فاغر الفم شاغر العينين، وثمة جُذاذات قش في شعره. ارتبكتُ، وبدأت الخيول تتذبذب من جانب إلى آخر لشعورها بحضور شخص غريب، وهي في أحسن الظروف مضطربة لبغضها الريح. خنفر أحدها، وركل الباب، فصهل آخر ردًا عليه. أجثمتُ نفسي من غير حراك، لكن لم يحمحم أيّها مجددًا، فغادرتُ الظلال، وانسللتُ عبر الفناء.

سرعان ما صرتُ على ممر الرماد المؤدي عبر أرض الآجام إلى مراعي الخيول. شعرتُ هنا أني أكثر بروزًا، في غياب جدران تسترني، وأمكنني سماع أصوات رجال في مكان ما في المدى. هامَت غمامات كثيفة سوداء عابرةً السماء، لكني كنتُ أعرف أن القمر خلفها بدر، وقد يبزغ في أيّ لحظة. جلستُ القرفصاء، محاولةً تحديد مواقع الحراس، مجهدةً عينيَّ حتى بدأت أشكال الأشجار والشجيرات تبدّل مكانها. وحددتُ أماكنهم أخيرًا، بعد مئتي ياردة إضافيّة. كانوا قد أشعلوا نارًا صغيرة، وتجمعوا حولها، وظلالهم تترجرج فوق العشب الجاف. أحصيتُ ثلاثة، لكن واحدًا منهم انحنى أمامًا ليلقي بحطبة إلى النار، ورأيتُ رابعًا خلفه، ولمحتُ لحىً، ووجوهًا أنارتها النار تحت عباءات مقلنسة، كان لزامًا عليهم إحكام التلفّع، لأن الحرارة قد بدأت بالانخفاض، وكانوا قد اتخذوا موضعهم عكس اتجاه الريح من الجثة، على أقصى بُعد يمكنهم بلوغه تقريبًا، بينما يظل بوسعهم الادعاء بمعقوليّة أنهم يحرسونها. أما أنا، فلم أكُن حسنة الحظ، ولاحظتُ بالفعل نتفة رائحة كريهة في الهواء.

صارت الأرض أمامي، ويداي أخفّ فجأةً، ونفخت الريحُ فجوةً في الغيمة راح القمر يرنو من خلالها. قمر عتيق، مُضنىً، خالٍ من كل شيء إلا الحزن. فكرتُ بهيكوبا، وارتعشتُ، غير أن رأسي حقًا لم يكُن به متسع سوى لأمينا. أين هي؟ لم أسمع أيّ صوت، ولم أرصد أيّ حركة، وفي الواقع تركتُ نفسي ترجو أن أصوات الحراس قد أبعدَتها فزعًا. فكرتُ في أنها ستكون على الشاطئ، تذرع إقبالًا وإدبارًا، كما اعتدتُ أن أفعل، تروّض نفسها على قبول غير

المقبول. عسايَ أدركها إذا ما عدتُ بذلك الاتجاه. أخذتُ أمشي عبر الكثبان، أتحرك بعجالة وهدوء، وأقرفص ثانية بعد كل بضع خطوات لأجعل نفسي أقل عُرضة للريح. فوق رأسي، تألقَت أوراق قصب الرمال ببريق فضيّ من ضوء القمر. قلتُ في قرارتي ربما أمرّ سريعًا من أمام الجثة لأتحقق من أنها ليست هناك، ثم أنزلق على الحدور الرمليّة إلى الشاطئ، وأذهب إلى المنزل آمنة، لكنني تذكرتُ من فوري أنني لا يمكنني الرجوع من تلك الطريق، لأن مدخل المجمع محروس، ورغم أن الحراس سيتعرفونني، فقد سيكون من بعض المشقة تفسير تجوالي في منتصف الليل. اقلقي حيال ذلك لاحقًا. هبطتُ على ركبتيَّ، وحبوتُ تجاه الرائحة، محاولةً في الوقت نفسه تثبيت ردائي على أنفي وفمي، حَبوًا عجيبًا كسيحًا، ثلاثي الأرجُل عبر الرمل الرخو. ظللتُ أتوقف، وأجهد نفسي لسماع الحراس، لكن إما أن الريح طغت على أصواتهم، وإما أنهم سكتوا. أتراهم ناموا؟ ربما، فلا يمكنني تخيُل عمل أكثر إضجارًا.

لكن حينئذ، سمعتُ ضوضاء بالفعل؛ تنفُّسًا حثيثًا وخفيفًا، فمرت في خاطري كل الحيوانات المفترسة التي قد تجتذبها الجثة ليلًا، ولم يكن بوسعي الصراخ لتخويفه كائنًا ما كان، لأن ذلك سيلفت انتباه الحراس، لذا اضطررتُ إلى المضي في طريقي. أخذ الصبح يزداد إشراقًا، ونثرَ الحَدَر الرمليّ أمامي ضوءًا أبيض. في أيّ لحظة الآن، سيُخرِج الساسة -الذين دائمًا ما يستيقظون قبل الفجر- الخيول لترعى، حدثت نفسي قائلة: نظرة سريعة واحدة، قبل رجوعي إلى المنزل. وقتما صرتُ أقرب، صار التنفس أعلى، والرائحة كريهة بصورة لا تُصدَّق، ثم رأيتها؛ شكل أسد رابض يخمش بكلتا يديه.

«أمينا».

استدارَت بحدة، ووجهها يسنُّه الخوف، فأدركَتْ إنها أنا وهسهسَتْ: «اغرُبي». حبوتُ متقدمة. كانت الأرض حول الجثة مُكدّرة، وآثار أصابعها في كل مكان مثل براثن حيوان، وبقسر نفسي على النظر من قرب، رأيتُ أن الجثة شبه مغطاة، إلا ذراعًا عظميّة واحدةً لا تزال مكشوفة. بدَت اليد ممدودةً لي، وتذكرتُ تلك اليد نفسها مع عُملة فضيّة تلمع في راحتها، إلا أن لا راحة الآن، لم يبقَ لحم البتة. كانت العظام البيض تستحلفني أن تُغطَّى، ودون أن أتخذ أيّ قرار واعٍ، وجدتُ نفسي أخمش في التربة الرمليّة، مثلما تفعل أمينا

بالضبط. لم تنظر واحدتنا إلى الأخرى، لم نتكلم، لكن عمَل كلتينا معًا سهَّل إنجاز المهمة. مسحتُ يديَّ بغلالتي، وهممتُ بالوقوف، لكن حينئذ، ولشديد رعبي، بدأت تتلو صلاة الميت. أَنِر مؤبدًا، وارقُد مُخلدًا، فقلتُ: «أمينا!» مجاهدةً لأُبقي صوتي خفيضًا. بدا أن ثمة انسدادًا في صدري يمنعني من التنفس؛ ليس محض عارض غريب، كالذي يصيب المرءَ في بعض الأحيان برفقة حلق متقرّح أو نزلة برد، بل جسيمًا، كقبضة رجل مشدودة:

- اسمعي، لقد فعلتِ ما جئتِ هنا لفعله، علينا أن نرجع الآن.

فهزت رأسها:

- ليس قبل أن أنهي الصلاة.

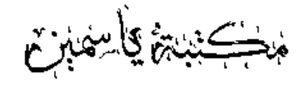
- يمكنكِ فعل هذا في الكوخ. (رأيتُ شيئًا ما على الأرض إلى جانبها الآخر؛ شقفة خبز وإبريق نبيذ، كلاهما مطلوب لإتمام الطقس) لقد سبق، وفعلتِ هذا مرةً بالفعل.

- لا، لم أفعل، فقد مرّ شخص ما، واضطررتُ إلى التوقف. عليَّ فعلها حسب الأصول هذه المرة.

- أتظنين أن الآلهة تهتم؟ لقد فعلتِ ما يكفي.

لكنها لم تكُن لتصغي، ولم يكن بمقدوري تركها، فركعنا هناك نُبربر صلاة الميت؛ عبور آمن، وبحر ساكن، وسلام في الختام، وكل الآمال التي نعتصم بها، بينما نرسل تلك المراكب في الظلام. لم أسمع في حياتي صلاة دفن تُتلى بسرعة تلاوتنا إياها تلك الليلة قط، وقد حضرتُ بعض الجنازات الروتينيّة في زماني. وقتما انتهينا، كسرت أمينا حصّة خبز، وناولتني الإبريق. كانت القشرة قاسية، والنبيذ لاذعًا، وريثما أجبرتُ نفسي على ابتلاعها، كانت الدموع تنهمر على خديَّ، لم تكُن دموع حزن على أيّ حال. تدبّرَت أمينا ابتلاع القشرة، رغم أنها كادت تختنق، ومن ثم أراقت آخر النبيذ على الأرض سكيبةً للآلهة. كانت الأرض ناشفة إلى حد أن القطرات ارتدت عنها قبل أن تغضّن السطح، وتغوص فيه. لاحظتُ لطخةً حمراء على زاوية فم أمينا، وبملاحظتي تلك، أدركتُ كَم صار الضوء بازغًا!

وفجأةً، احتدمتُ حنقًا، فقلتُ: «والآن هيا بنا»، وأنا أقبض على ذراعَيها النحيلتَين، وأسحبها لتقف. جعلَت تحدِّق إليَّ، وعجزتُ عن فهم سبب سكونها أو سكوتها، ثم أدركتُ أنها ليست تحدِّق إليَّ، بل إلى شيء ما خلفي، وفي نفس اللحظة، قبضَت ذراع على قفا عنقي؛ شعرتُ بخضة تعبُر جسدي، وركَل الطفل داخلي. كان الحراس البقية آتين من خلفه، فاستدرتُ راغبةً أن يروا مَن أنا، عارفةً أن المرميديّين لن يؤذوني، لكن وقتما نقلتُ نظري بين الوجوه لم أرَ ابتسامات، ولا ذرة تعرُّف! كان هؤلاء شبان سكيروس، رجال بيروس، وعرفتُ أن لا تأثير لي فيهم. جذبوا أذرعنا بخشونة خلفنا، وشرعوا يدفعوننا أمامهم عبر الطريق المنحدرة إلى المعسكر.



19

جرى سوقنا بعيدًا عن القبر، وسِرنا عبر فناء الإسطبل. بحلول هذا الآن، كانت الشمس تُعرّش بانحدار فوق الأفق، مُلقيةً ضوءًا فجًّا على أوجه الساسة الذين التفتوا ليشاهدونا نمرّ عبر فناء الإسطبل وصولًا إلى ردهة بيروس، حيث يوجد المزيد من الحراس المرميديّين هذه المرة، الذين تعرفوا إليَّ بصفتي زوجة السيد ألكيموس.

قال أحدهم: «علينا جلب ألكيموس».

فقال الحارس القابض عليَّ: «لا، كان السيد بيروس في غاية الوضوح. ينبغي أن تؤخَذا إليه مباشرة».

وهكذا، دفعونا صعودًا على درجات الشرفة، حيث راحوا يضربون على الباب، وظلوا يضربون لوقت مديد قبل أن يجيب بيروس نفسه. كان قد أسدَل المفرش الأرجوانيّ والفضيّ عن سريره سائبًا على كتفَيه، لكنه فيما عدا ذلك عارٍ. راح يقلّب طرفه بين الوجوه، أعمش العينَين بفعل النوم، ونزق المزاج، وحائرًا إثر التطفل المباغت:

- ما هذا؟

- لقد وجدناهما تدفنان بريام.

تنحّى بيروس جانبًا، ودفعَنا الحراس أمامهم إلى الردهة.

قال بيروس، وهو يحدِّق إلينا من غير تصديق:

- نساء؟ أأنتم واثقون؟

- كلنا رأيناهما يا سيدي، وسمعناهما. كانتا تتلوان صلاة الميت.

تبعَنا العديد من المرميديّين إلى الردهة، وواحد منهم سعل، وأشار إليَّ:

- تلك زوجة السيد ألكيموس.

- أهي كذلك؟

ليس لدى بيروس ما يعرّفه أنني متزوجة بألكيموس، حتى وإن لاحظني في إحدى زياراته النادرة لكوخ ألكيموس، فقد افترض على الأرجح أنني أَمَة أخرى وحسب.

«أكانت هناك؟»

نظر الشبان واحدهم إلى الآخر، وقد تصاعد انزعاجهم، قبل أن يومئ الذي يمسكني برأسه.

«حسنًا، أحسب أنه من الأفضل أن تجدوا ألكيموس إذن»، وكز بيروس -وجليٌّ شعوره أن عليه الإمساك بزمام الأمور- واحدًا من الحراس بإصبعه: «أنت، ابقَ هنا، وبقيتكم ارجعوا إلى هناك، وانبشوا اللوطيّ!».

رأيتُ أمينا تجفل، لكن وقتما نظر بيروس إليها مباشرة، ردَّت نظرته غير هيّابة، فرحتُ أنظر إلى قدميَّ، فزعةً من اللحظة التي سيظهر ألكيموس فيها.

قال بيروس: «سأرتدي ثيابي. ثبِّتوا أعينكم عليهما».

خرج من الغرفة بُخطى واسعة. شعرتُ فجأةً بالإغماء، ونظرتُ بتوق إلى المقعد بجوار الطاولة. كنتُ أعرف ألا طائل من استعطاف المقاتلين المرميدنيّين، فلا سلطة لديهم أمام بيروس، وراحوا يحملقون فيَّ ذاهلين فحسب. يعلم الله كم سيستغرق إيجاد ألكيموس! فقد يكون في أيّ مكان من المعسكر، يقصِف أو يسكر... أو ربما في سرير امرأة أخرى. لذا صرتُ أجول بنظري في الردهة التي تبدو مقفرة ومسعورة بعض الشيء، كما تكون دائمًا في أعقاب ليلة وليمة. روائح الدهن الزنِخ، والصمغ من الجدران، وسُرُج الزيت المُدخّنة، وكان الأسل، رغم أنه فُرِش حديثًا في اليوم الآنف، أضعَفَ من أن يلطِّف الجو. دائخةً، بدأتُ أتقدم تدريجيًا ناحية المقعد، لكن في تلك اللحظة، عاد بيروس إلى الغرفة، ووجهه معقود غضبًا، وقال:

- لمَ؟

نظرَت أمينا إليه مباشرة:

- لقد دفنتُ ملكي، ولستُ بحاجة إلى تفسير ذلك.

وعلى الفور -دون وقفة تفكير- ضربها. ورجّعت الغرفة صدى الصفعة.

- كنتِ تعرفين بقولي إن لا أحد سيُدفَن؟

- نعم، عرفتُ، إلا أنه ليس بمقدورك ذلك، لا يمكنك نقض قوانين الرب ببساطة، لا أحد يمكنه، ولا يهمني مدى بطشه.

ظننتُ أنه سيضربها مجددًا، غير أن وقْع أقدام على الشرفة شتّته. دخل ألكيموس الغرفة، أشعث الشعر، وغلالته مبقعة بالنبيذ. انحنى لبيروس، رغم أن نظرته ظلت مثبتةً عليَّ وحدي: «أيّ مس أصابكِ بحق الجحيم؟».

كان صوته خفيضًا، عجولًا، ولا يعلو عن الهمس إلا قليلًا، لكن أمينا سمعَته:

- هي لم تفعل شيئًا.

قال بيروس:

- قبض الحراس عليهما بالجرم المشهود. كلتاهما.

- بلى، لكنها لم تكُن تدفنه، إنما كانت تحاول منعي فقط.

كان هذا صحيحًا وغير صحيح. أغمضتُ عينيَّ، راغبةً بحجبهم أجمعين، ورأيتُ يد بريام العظمية تمتد لي من الأرض. لقد ساعدتُ في دفنه، وليس من قبيل طاعة الآلهة، بل فعل احترام بسيط لرجل عجوز كان عطوفًا معي، وأنا طفلة في حاجة يائسة إلى العطف. للحظة، أغواني قبول المناص الذي قدمته لي أمينا، لكني حينئذ قلتُ -أو سمعتُ نفسي أقول-: «هذا غير صحيح. لقد ساعدتُ في دفن بريام».

فدارَت أمينا بعنف: «لم تفعلي!».

في تلك اللحظة، لمحتُ المدى الكامل لكبريائها. كانت واقفةً هناك، مبيضّة كالحوّار، وآثار أصابع بيروس حمراء على خدها، وتتوهّج كبرياءً. لم تكن تحاول إنقاذي، إنما أرادتهم أن يعتقدوا أنها عمِلت وحدها، وربما قد تمكنَت بحلول هذا الوقت من إقناع نفسها.

بصَمت، مددتُ يديَّ إلى بيروس، كانتا مغطاتَين بالتراب، وكل الأظافر سوداء.

التفتَ بيروس إلى ألكيموس: «لا يمكنني التغاضي عن هذا، ولا يهمني زوجة من هي».

فقال ألكيموس: «لم أكن على دراية».

فأصرّت أمينا: «هي لم تساعد، كانت تحاول جرِّي عودًا إلى الكوخ وحسب».

تجاهلها ألكيموس: «سأتصرف أنا مع زوجتي».

فقال بيروس:

- لا، لن تفعل، لقد كانتا في ذلك معًا. ليس عليك إلا النظر إلى يديها!
- ماذا ستفعل؟
- لستُ أدري، سأحبسهما، على ما أظن. (كان بيروس يهز رأسه مثل عِجل حائر) لا بد أن ثمة شخصًا آخر وراء الأمر، لا يمكن أن تكون النساء فقط!

قاطعته أمينا: «أقول لك مرارًا وتكرارًا، ليس ثمة شخص آخر».

فجأةً، أدركتُ أنها في الحقيقة تبتغي الموت، وأنها على الأرجح الغالب ستموت، وأنا معها.

قال ألكيموس: «حسنًا، ثمة كوخ غسيل الملابس، وذاك له قفل، وثمة كوخ مخزن السلاح، ولا أظن أنه ينبغي لك وضعهما معًا».

عجزتُ عن إرغام نفسي على النظر إليه، فقد كان يخونني، وأخيل، وهذه هي المفاجأة الحقة.

قال بيروس: «حسن جدًا، يمكننا تقرير ما سنفعله بهما لاحقًا»، وأومأ للحراس الذين تقدموا ورافقوا أمينا خارج الردهة، وأمسك واحد منهم بقفا عنقها، ودفعها أمامًا.

فقال ألكيموس: «هيه، لا داعي لذلك».

أطبقَت يد على ذراعي. كانت أمينا والحراس قد بلغوا الباب تقريبًا، وقتما قام اصطخاب في الخارج، واندفع الحراس الذين أُرسِلوا لكشف الجثة (لم يكُن ثمة حاجة لأيّ نبش، فقد كان أكثر القبور الضحلة ضحالةً) إلى الغرفة. دُفع أحدهم؛ غلام ناحل ذو عينَين خاويتَين، وحركات مُخلّعة غريبة، إلى الأمام. تعرفتُ إليه، فعندما لا يكون مطلوبًا لحراسة الجثث، كان يعمل في

الإسطبلات، وكان في أكثر الأحيان محطّ هَزْل بقية الرجال، أبله القرية نوعًا ما، رغم أنه يقدر على تسكين حصان متوتر أحسن من أيٍّ سواه.

قال الحراس الآخرون، وهم يدفعونه إلى الأمام: «هيا، هيا أره».

وقف الفتى التعِس، مدركًا أنه قد اختير ليكون كبش فداء، في وسط المجموعة، راح يحدِّق يائسًا بين الوجوه، لكن بيروس كان حليمًا على نحو مفاجئ معه. بالطبع، فقد عرف هذا الصبي من الساعات الطوال التي كان يقضيها في فناء الإسطبل؛ يؤدي -أو قيل إنه يؤدي- مهامًا دونيّة بكل معنى الكلمة؛ مسح الأحصنة المتعرّقة، وتنظيف السروج، وإفراغ الحظائر... أعمالًا حقًا لا يفعلها رجال من مقامه. والآن، انحنى أمامًا وسأله، بلطف: «ما الذي بحوزتك؟». على مضض، فتح الفتى يده، وكان فيها خاتم مشعشع لإبهام رجل؛ الخاتم الذي رأيته مُدلىً من سلسلة على عنق أندروماخي. لم يكن لدى ألكيموس والحراس أدنى فكرة عن خاتم مَن هذا، أو لمَ هو مهم، فأشحتُ بوجهي غريزيًا، ولستُ أعرف تمامًا لمَ، تقريبًا كما لو أني شعرتُ أن معرفتي الشخصيّة للخاتم ستنتقل نفسها إليهم بطريقة ما.

لكن بيروس تعرّفه: «لقد منحتُ هذا لأندروماخي».

فقالت أمينا، سريعًا: «وأنا سرقتُه. كانت تستحم ونزعَتْه، وأنا سرقتُه. تدمَّرَت وقتها، وبحثَت في كل مكان، كادت تجعلنا نقتلع ألواح الأرضيّة...».

كانت تهذر، فأغمضتُ عينيّ، وجعلتُها تصمت.

سأل ألكيموس:

- لمَ؟

- لمَ سرقتُه؟ لأدفع للنوتيّ.

في العادة، وقتما تُجهَز جثة، يُختَتَم تجهيزها بوضع عُملتَين على العينَين، فهي تبقي الجفنَين مُغلقَين، لكن المؤمن يعتقد أنها تستخدم أيضًا لدفع أجرة النوتيّ الذي يُجدّف بروح المتوفى عبر نهر ستيكس إلى هاديس؛ أرض الموتى. لم تحُز أمينا أيّ عُملات، أو مجوهرات، أو أيّ شيء ذي قيمة على الإطلاق، ولا واحدة من النساء فعلت، إلا أندروماخي، التي كان خاتم بريام في حوزتها. أكانت أمينا تقول الحقيقة؟ وقتما استحمّت أندروماخي في كوخي،

لم تنزع الخاتم، لكن ذلك لا يعني أنها لم تفعل قط. كان ممكنًا أن أمينا قد اقتنصَت فرصةً لتسرقه، تقريبًا.

طال الصمت، وأخذ بيروس ينقل نظره في أرجاء الغرفة. أمكنني لمس أنه بدأ يرانا كلنا من زاوية مختلفة: ألكيموس، وأنا، وأمينا، وأندروماخي، ولا بد أن الأمر قد بدأ يبدو مؤامرةً بالنسبة إليه. وفجأةً، من غير أن يُزيح عينَيه عنّا، صاح: «أندروماخي!». ظهرَت بسرعة تشي بأنها لا بد كانت تتنصت من خلف الباب، وبينما سارَت تجاهه، لاحظتُ أن فمها مزموم خوفًا.

مد بيروس الخاتم: «هل أعطيتِها هذا؟». نقلَت أندروماخي نظرها من وجهه إلى يده، ثم عادت إلى وجهه، ولم تقُل شيئًا البتة، كأرنب مفتون برقصة قاقم. فصرخَت أمينا: «أنا سرقتُه!». استدار بيروس بعنف وضربها مجددًا، وهذه المرة، وضعَت يدها على أنفها، وأعادتها مطليّةً بالدم.

مستديرًا ناحية أندروماخي ثانية، قال بيروس:

- حســنًا، هل فعلتِ؟

- لا أعرف ما الذي جرى. كان معي في الصباح، وفي المساء اختفى. آسفة. (كانت تجهش) إنني آسفة، إنني في غاية الأسف.

نظرت أندروماخي إلى بيروس، وهي تتكلم، لكنني شعرتُ أن الكلمات موجهة إلى أمينا.

قالت أمينا: «لم تُعطِني الخاتم. أنا سرقته». كان الدم لا يزال يقطر من أنفها، ونظرَت إلى بيروس مباشرة: «لم تساعدني أيّهما. أنا فعلتُ، ولستُ أندم لحظةً». أعرضَت عنه، ثم سارت إلى الباب بمحض إرادتها، بينما تبعها الحراس، متحولين إلى ما صار أشبه بحاشية ملكيّة، وساد صمت بعد أن أُغلِق الباب خلفها.

التقط ألكيموس واحدًا من سُرُج الزيت، وأعطاني إياه: «احرص على أن تحتفظ بهذا»، فأومأ الحارس -وكان ميرميديًا- برأسه.

توجه بيروس بالكلام إلى ألكيموس: «حسن جدًا، سنتكلم لاحقًا. وأنتِ...»، ثم وكز أندروماخي بإصبعه: «اخرجي!».

20

أمام كوخ المخزن، توقف الحارس، وشرع يفتح قفل الباب. ثلاثة أقفال دليل على قيمة السلاح المحفوظ داخله. وحينما فرغ، وقف جانبًا، وأشار لي بأدب أن عليَّ الدخول. تعرفتُه على أنه واحد من الرجال الذين لمسوا بطني، وأنا أقدّم النبيذ في الردهة، علامة على الولاء لنسل أخيل. حسنًا، بادرات كهذه لن تساعدني الآن، وقد كان ابن أخيل من أرسلني إلى هنا.

خطوتُ مجتازةً العتبة، فأغلق الحارس الباب من خلفي، وشد الأقفال. لم يكونوا بحاجة إلى الأقفال حقًا ليبقوني في الداخل، فأين عساي أذهب؟ ألقى السراج حلقةً من الضوء المصفر في أرجاء الكوخ، ولمحتُ بارق البرونز المصقول. في البدء، جلستُ القرفصاء بجوار السراج أحدِّق إلى خط الضوء تحت الباب. ارتعشَت يداي، فوضعتُهما في كُمّي لأدفئهما، لكني عجزتُ عن إيقاف ارتجافهما. كان كل ما حولي هو البرد، والرائحة الثقيلة للمعدن والقماش المُزيّت التي بدا أنها تستقر على معدتي، وتتربص هناك مثل حجرة. أظن أني في تلك اللحظة فهمتُ كم هشة هي مكانتي في الحقيقة، فبصفتي زوجة ألكيموس، كنتُ قد بدأتُ أشعر بالأمان في منزلتي الجديدة، لكن بوقوفي هناك في كوخ مخزن وثمة باب مُوصد خلفي، عرفتُ أنني لم أبعد عن العبوديّة أكثر من بوصة!

لقد قادتني كل حياتي سنين وأسابيع، وأيامًا وساعات، إلى هذه اللحظة في هذا المكان، ولا سيما يومًا واحدًا؛ يوم سقوط مدينتي، ليرنيسوس. صعدتُ يومها إلى سطح القلعة لأشاهد المعركة تحتدم في الأسفل البعيد، وشاهدتُ أخيل يقتل أخي الأصغر برمح أنشبه في حلقه، وقبل أن ينتزع الرمح، استدار وراح يحدِّق عاليًا إلى القلعة. كنتُ أعرف أن الشمس خلفي، وأعرف أنه عاجز

عن رؤيتي إلا لطخة داكنة تنظر إلى الأسفل، وشعرتُ مع ذلك أنه كان ينظر إليَّ مباشرة. بالتدريج، في ثنائيّات أو ثلاثيّات، انساقَت بقية النساء صعودًا من الطابق الأسفل، وانتظرنا النهاية معًا. وبينما همّ المقاتلون الإغريق يضربون بأقدامهم صاعدين السلالم، قبضت آريانا، قريبتي من جانب أمي على ذراعي، وقالت من غير كلام: «تعالي»، ثم تسلقَت المتراس، وفي لحظة اندفاع المقاتلين داخلًا، قفزَت إلى حتفها، وراحت أرديتها البيضاء ترفرف حولها، وهي تسقط، مثل عثة محروقة. بدا أن وقتًا طويلًا مرّ قبل أن ترتطم بالأرض، وإن لم يكُن ممكنًا أنه قد تجاوز الثواني. خبَت صيحتها إلى صمت منكوب، تقدمتُ فيه النسوة الأخريات ببطء، واستدرتُ لأواجه الرجال الذين دخلوا.

آريانا قالت: «تعالي...»، لكنني اخترتُ البقاء، وكل شيء آخر، كل ما حدث بين ذاك الآن والآن، قد نجم عن ذلك الخِيار. منذ ساعاتي الأولى في المعسكر، كنتُ محترزة، يقظة، مركزة بكامل قواي على النجاة، إلى اللحظة التي رأيتُ فيها يد بريام راقدة مخزيّةً على الرمل الوسِخ. أندِمتُ على المساعدة في دفنه؟ أجل، أجل!

وَ... لا.

بدا لي، وأنا جاثمة بجوار باب كوخ المخزن، أنني سقطتُ في الأمر سهوًا ليس إلا، إذ خرجتُ لأحاول إيقاف أمينا، وحاولتُ إقناعها بالمجيء معي بترك المهمة غير تامة، لكن حينئذ رأيتُ يد بريام، وصرتُ فجأةً أخمش ككلب في الرمل. تلوتُ الصلاة، وشربتُ النبيذ، وحشرتُ الخبز البائت في حلقي قسرًا... «لقد دفنتُ بريام»، وبعد أقل من أربع وعشرين ساعة من سماعي بيروس يقول: «إن عقوبة ذلك هي الموت»؛ فرّطتُ بكل المكاسب التي كنتُ قد حصّلتها في السنة المُريعة المنصرمة. ظننتُ حقًا أنه من الممكن أن يقتلني بيروس، أو يأمر بقتلي. كانت أمينا لتواصل الكذب لتنقذني، أو لتنقذ تصوّرها لنفسها على أنها الشخص الوحيد الشجاع بما يكفي ليتحدى بيروس، ويمتثل الآلهة. غير أني لا أظنهم صدّقوها، ولمَ يفعلون؟ وقد أريتُ بيروس التراب تحت أظافري.

أغمضتُ عينيَّ، وبالتدريج (كانت هذه عملية بطيئة) شعرتُ بوجود يتنامى في الظلمة خلفي. «وجود» هي الكلمة الخاطئة، لكني لا أعرف ما الكلمة الصحيحة. وقتما فتحتُ عينيَّ، أجبرتُ نفسي على رفع الفانوس عاليًا فوق رأسي، وصحتُ من هول الخضّة، فهناك مصطفّين على طول الجدار البعيد، وقف بريام، وهيكتور، وفطرقل، وأخيل. خَبَت الصيحة على شفتيَّ، ذلك أنهم بالتأكيد ليسوا هناك، طبعًا لا، وما رأيتُه كان أطقُم دروع، غير مكوّمة في الأركان، كما ظننتُ أنها قد تكون، إنما مربوطة على الجدران، وكل قطعة في مكانها المناسب، لتركّب معًا أشكال رجال؛ رجال يمكن معرفتهم على الفور، فها هنا درع بريام الذي توسّلت هيكوبا إليه ألا يلبسها، مغطاة بالدماء، إذ لا ينبغي مسح دماء عدو أبدًا، وبجانبه درع هيكتور، وخوذته المريّشة الشهيرة تتلألأ في الضوء، لكن لا ترس معها، فقد توسلت أندروماخي إلى بيروس أن يسمح بدفن ابنها الرضيع في ترس والده، ووافق، وإن ندم على سخائه لاحقًا. كان بوسعي تخيُّل كم الحنق الذي يصيبه كلما نظر إلى المساحة الخالية. وأخيرًا درع أخيل، وينقصه الترس أيضًا، لكن فقط، لأن بيروس أبقاه بقربه في الردهة، يلمّعه بهوَس، كما كان أخيل نفسه يفعل.

رفعتُ الفانوس، وأمعنتُ في التحديق إلى الخوذة، وكلما حركتُ يدي، تطارَد النور والظلمة عبر المعدن، خالقين أو كاشفين عن حركة خلف محاجر العينَين في القناع. سمعتُ شخصَين يتنفسان حيثُ تنفس واحد فقط قبلًا، ولم تُنطق كلمات، فلا حاجة إلى أيّها. لستُ أدري ما إذا استمر هذا اللقاء -وقد شعرتُ وكأنه لقاء- دقائق أم ساعات، لكنه غيّرني. في يوم موت بوليكسينا، وقفتُ بجوار جثوة قبر أخيل، وقلتُ في قرارتي: «إن قصة أخيل قد انتهت عند قبره، وإن قصتي الخاصة موشكة على البدء». لكن الحقيقة؟ إن قصة أخيل لا تنتهي أبدًا، وحيثما يقاتل الرجال ويموتون، يوجد أخيل، أما عني، فكانت قصتي وقصته متصلتَين اتصالًا معقدًا.

سُمِع صوت أحدهم أمام الباب، ثم انفتح، وقص قوسٌ متوسع من ضوء الشمس شريحةً من الظلام، فلطمني الضوء مثل الماء البارد، مخرجًا إياي من غيبتي. قال ألكيموس: «بريزيس!»، وبينما سرتُ تجاهه، تنحى جانبًا ليسمح لي بالخروج، وطوال الطريق عبر الفناء، كنتُ أشعر به ينقبض حنقًا خلفي.

من الواضح أن لحظة المحاسبة وشيكة، وقد تأكد ذلك وقتما دخلتُ غرفة المعيشة، ووجدتُ أوتوميدون هناك.

جلس ألكيموس إلى الطاولة: «حسنًا، لنبدأ من البداية»، وأشار إلى كرسي فقعدتُ. كان الضوء خافتًا، فأشعل شمعة، ووضعها بجواري، قريبةً بما يكفي لأشعر بدفئها على جلدي. انزلق أوتوميدون إلى الكرسي في رأس الطاولة، وأذكر تفكيري في أن ذلك كان غريبًا، لأن ألكيموس يجلس هناك على الدوام. حتى الآن، لم يُلقِ أوتوميدون نظرةً إليَّ حتى، واستأتُ من حضوره، في حين عرفتُ في الوقت نفسه أن لا حق لي بالاستياء من أيّ شيء، لكنني شعرتُ أنني سأعجز عن إجراء محادثة حقيقيّة مع ألكيموس، وهو جالس هناك. تساءلتُ -للمرة الأولى، وهذا غبيّ، أعرف ذلك- عمّا إذا كان أخيل قد احتار بخصوص لأيّهما عليه أن يمنحني، وكم استغرق وقتًا ليقرر. كنتُ أعرف ما رأيه فيهما، فهو لم يجعل من ذلك سرًّا قط؛ ألكيموس رجل خلوق، طيب القلب، ومقاتل بارع، لكنه صغير نسبةً إلى سنّه، وأبله بعض الشيء. أما أوتوميدون، فيمكن للمرء ائتمانه على حياته؛ شريف تمامًا، بلا روح دعابة، مُعتدٌّ بنفسه، ومتشدد متحجر، لكن كليهما شجاع، وكليهما مخلص، وكليهما مُكرّس نفسه له تمامًا.

تنحنح ألكيموس:

- ثمة شيء يجب أن أقوله قبل أن نبدأ. لقد أخبرتُ بيروس أنك حامل بطفل أخيل.

- ماذا قال؟

- لم يقل الكثير.

فقال أوتوميدون:

- ليس من الضروري أن ينفعك ذلك. (وشعرتُ أنه استمتع بقوله) أظن أنه متعلق تمامًا بفكرة كونه الابن الوحيد لأخيل العظيم، ومن العسير معرفة كيف سيتجاوب.

- سيتضح ذلك لا شك.

رأيتُهما يتبادلان النظرات. ربما أنا أيضًا لم أتجاوب بالطريقة التي كانا ينتظرانها.

فقال ألكيموس:

- جيد، فلنبدأ من البداية. أين كنتِ وقتما عثر الرجال عليكِ؟

- بجوار القبر.

- واقفة؟

- لا، جاثية. كنتُ...

- وكان ثمة تربة على يديك؟

أومأتُ برأسي، فأمسك بمعصميَّ، وشدّهما حيث الشمعة، كان ثمة تربة تحت أظافري وعفار من الحصباء على راحتيَّ، فألقى ألكيموس نظرةً ناحية أوتوميدون، وتغير الجو في الغرفة بكياسة. شعرتُ بتمويجة هواء بارد فوق جلدي، رغم كون الغرفة مكتومةً ومثقلةً برائحة الشمع.

انحنى أوتوميدون إليَّ قائلًا:

- ماذا عن المرة الأولى؟ أكنتِ فيها؟

- لا.

- ألم تقُل شيئًا؟

ترددتُ، ولمحتُ وميضًا في عينَيه. كان هذا استجوابًا. نظرتُ إلى ألكيموس أستجدي بعض الطمأنينة، بعض الاعتراف بالعلاقة بيننا، لكنني لم أنَل شيئًا. لو أننا وحدنا، لأخبرتُه الصراحة بخصوص التشويش في ذهني، بخصوص التحوّل غير المقصود من محاولة إيقاف أمينا إلى مساعدتها. كنتُ لأخبره عن لقائي بريام فوق المتاريس، وعن مدى لطفه، لكنهما هناك، كلاهما، ولا أظن أن أوتوميدون قد تشوّش في حياته قط.

كان لا يزال منتظرًا تكلُّمي.

- لم تقُل إلا إنها كانت مذعورةً من أن بريام لم يُدفَن.

- ألأخبرتكِ أنها ستدفنه؟

- لا.

قال ألكيموس:

- إذن، وقتما علمتِ أنه قد دُفِن، ما الذي ظننتِه حدث؟

- لم أعرف.

راح ينحني مقتربًا أكثر، والطاولة بيننا، إلا أنني لم أشعر بها كذلك، بل بدا يتنفس في وجهي، وبدا مختلفًا؛ أكبر سنًّا، وأكثر نُحلًا، وأشد تركيزًا. كان الفتى الهيمان -وقد اعتقدتُ أنه هام بي ذات مرة- قد اختفى، وحل محله شخص أكثر وقارًا بالإجمال. هذا هو الرجل الذي لعب دورًا في الهجوم النهائيّ على طروادة، وفعل فِعالًا لا توصف داخل الأسوار، لم يعُد صغيرًا نسبةً إلى سنه، لم يعُد أبله بعض الشيء. شعرتُ أني أراه للمرة الأولى.

بعد وقفة، قلتُ:

- حسنًا، كنتَ تقول لا بد إنه إما هيلينوس، وإما كالخاس، لذا أحسب أني ظننتُ الفاعل أحدهما.

فخبط أوتوميدون الطاولة:

- لا، لم تفعلي! لقد عرفتِ من الفاعل.

- اسمع، هي لم تقُل إلا إن بريام يستحق دفنًا لائقًا، وهذا ليس أكثر مما قد يقوله أيّ طرواديّ.

- أيّ مقاتل طرواديّ.

- أتظن أن النساء بلا آراء.. بلا ولاء؟

- ولاء المرأة لزوجها!

نهض ألكيموس، وجلب إبريق نبيذ من الخوان، وصب كأسَين، ثم بعد تردد بسيط، صب ثالثةً لي.

قال:

- جيد، أكنتِ تعرفين ما انتوَت فعله؟

- لم يكُن عندي أيّ فكرة على الإطلاق.

ليست كذبة بكل معنى الكلمة، لكنها ليسَت الحقيقة الحقة أيضًا. جلسا صامتَين، يحدقان إليَّ، متّحدَين. في تلك اللحظة، شعرتُ أني خسرتُ زوجي، بينما شككتُ في الآن نفسه أنني لم أحظ بواحد فعلًا قط. أردتُ السؤال عمّا يظنان بيروس فاعله، لكني لم أجرؤ، كنتُ مرتعدةً خوفًا من الإجابة.

أوتوميدون:

- إذن متى اكتشفتِ؟
- طرقَت إحدى الفتيات الباب، ولا تسألني أيّ واحدة، فلا أعرف أسماءهن جميعًا، وبعضهن لا يزلن عاجزات عن الكلام.

حذارِ، لا تتركي الغضب يظهر.

- حسنًا، من الجليّ أن هذه قادرة. ماذا قالت؟
- إن أمينا ليست في الكوخ، إنها رحلَت.
- إذن، ما ظننتِ أنه قد حدث؟
- ظننتُ أنها فرّت. لم أظن أنها ذهبَت لتدفن بريام بكل تأكيد.

كان أوتوميدون يهز رأسه.

- كنا قد زرنا الروض للتو. ثمة مأوىً هناك، وطعام وفير. ظننتُ أنها ربما ذهبَت إلى هناك...
- لكنكِ لم تذهبي للبحث هناك، أليس كذلك؟ بل ذهبتِ إلى حيث تعرفين أن الجثة موجودة.

لا مجال لإنكار ذلك، وباستذكار ما حدث، لم تكُن فكرة أن أمينا ربما فرّت أكثر من خاطرة عابرة. ما كانت أمينا لتفر من أيّ شيء.

ألكيموس:

- ماذا وجدتِ وقتما وصلتِ إلى هناك؟
- كانت قد شارفَت على الانتهاء. لم أُرِد إلا أن ينتهي الأمر، أردتُها داخل الكوخ مجددًا، آمنة.
- فساعدتِها على دفن بريام؟ (سعل ألكيموس ضاحكًا) ربّاه يا امرأة!

فات الأوان على أيّ شيء سوى الحقيقة:

- اسمع، كنتُ أحاول إنقاذ أمينا، لكن أتعلم لماذا؟ أنتَ محق تمامًا، لقد دفنتُ بريام، لأنني احترمتُه، لأنه من المعيب تركه راقدًا هناك. لقد التقاه كلاكما، وقتما جاء لرؤية أخيل، التقيتماه. تعرفان ما جرى في تلك الليلة، لقد رحب أخيل به، وقدّم له الطعام، ومنحه سريرًا، وعامله

باحترام، حتى إنه أعطاه سكينه الخاصة ليأكل بها. أتظنان أن أخيل كان ليرغب بهذا؟

نظر واحدهما إلى الآخر، وأمكنني رؤيتُهما يقرآن الحقيقة؛ كل في وجه الآخر، لكن لم يكن أيّهما ليعترف بذلك.

قلتُ:

- أنتما تعرفان، كلاكما يعرف أن أخيل كان ليرغب بدفن بريام.

قال ألكيموس بجديّة:

- واجبُك الأول هو أنا. (وأخذ نفسًا عميقًا) مثلما أنتِ أول واجباتي.

فضحكتُ، لم أستطِع تمالك نفسي:

- لا يا ألكيموس، كلانا يعلم أن هذا هو أول واجباتك.

وشددتُ النسيج الفضفاض لغلالتي حول بطني.

- ألا ينبغي لذلك أن يكون أول واجباتكِ أيضًا؟

شعرتُ بالخزي أمامه حينها؛ كان التزامه المخلص لطفل ليس من صلبه يتعارض بشدة مع شكوكي الخاصة، وتناقضي الخاص.

ظل أوتوميدون صامتًا خلال كل هذا، يعبث بسكبة نبيذ على الطاولة، محوِّلًا إياها إلى عنكب، مانحًا إياها أرجلًا، وقال أخيرًا: «البنت تقول إنها عملَت وحدها. حسنًا، هذا جيد، فلنتركها تقول ذلك. كل ما على بريزيس قوله هو إنها كانت تحاول منعها، وأظن أنها قد تنجو بفعلتها.. ربما».

ها.. هذا هو أوتوميدون في أهدأ حالاته، وأبردها. قلتُ:

- ألستَ ناسيًا الحراس؟ إنهم يعرفون أنني كنتُ أغطي الجثة، لقد رأوني.

فقال أوتوميدون:

- يمكنكِ ترك أمر الحراس لنا. إن قلنا لهم إنهم رأوكِ تحاولين جرّ الفتاة بعيدًا، فهذا ما سيقولونه، ما دامت الفتاة لا تغير قصتها..

قلتُ:

- لن تفعل.

لا، ستكون أمينا حيثما أرادت دائمًا أن تكون: في حلقة من المشاعل المستعرة، وكل الأعين مسمّرة عليها.. عليها وحدها. ربما كان عليَّ أن أشعر براحة البال، لكنني لم أفعل:

- ماذا سيحلّ بها؟

هز ألكيموس كتفيه:

- ليس من شأن أحد ما يفعله بها. إنها أَمَتُه.

- لكن ما تظنه فاعله؟

- لستُ أدري، أحسب أنها وإن كانت محظوظةً، فقد يبيعها. بأيّ حال، لا علاقة لكِ بهذا الأمر، وكلما ضعفت علاقتكِ بها الآن كان أفضل.

وبهذا وقف، مختتمًا استجوابه.

فقال أوتوميدون: «سؤال إضافيّ واحد: هل تكلمتِ إلى كالخاس أو هيلينوس؟».

هززتُ رأسي بصمت.

- حسنًا، هذا مريح. هل فعلت هي؟

- لا، كيف عساها تفعل؟ لا يسمح لهنّ بالخروج من الكوخ.

عند الباب، التفَت ألكيموس: «انظري، حينما أكون خارجًا، لا تفتحي الباب لأيٍّ كان، اتفقنا؟ قولي إنك مريضة أو شيئًا ما. لا تُدخِلي أحدًا».

خرج ألكيموس أولًا -ولم يسعني إلا الظن أنه كان مسرورًا بالابتعاد-، لكن تلبّث أوتوميدون. وقتما تأكّد أن ألكيموس خارج مجال السمع، قال: «حذارِ يا بريزيس، قد تفلتين بفعلتك هذه المرة، متذرعةً ببطنكِ، لكنكِ لن تكوني على هذا القدر من الحظ دائمًا».

ولا فرق لو أنه لكَمني. فكرتُ بالنساء في طروادة اللاتي طُعِنَّ في معدهن، أو ثُقِفن بالرماح بين أرجلهن بناءً على احتمال متناصف أن يكون طفلهن صبيًّا. لم يكُن أيّ قدر من «التذرّع ببطونهن» لينفعهن. لم أذكر ذلك بكل تأكيد، فما حدث في طروادة بات بئر صمت بالفعل. بيدَ أني لم أنتوِ التغاضي عن ذلك كليًّا، فقلتُ: «أنا لم أتذرع ببطني، ألكيموس فعل. أوتعلم ماذا يا أوتوميدون؟ لو كنتَ هناك، كنت فعلتَ المثل بالضبط».

ثم استدرتُ دون أن أنتظر إجابة.

21

قضيتُ بقية اليوم وحدي. خرجتُ مرةً، وجلستُ في الشرفة، لكني ظننتُ أن واحدًا أو اثنين من المقاتلين الذين مروا كانوا يحدقون إليَّ، فعدتُ إلى الداخل. طبختُ، وبدّلتُ مفارش الأسرّة، وكنستُ الأرض. لم أسمح لنفسي بالقعود حتى آخر الظهيرة، ثم أظن أني لا بد غفوتُ، لأنني وقتما صرتُ واعيةً لمحيطي ثانية كان أحدهم يطرق على الباب. أمرني ألكيموس بألا أُدخِل أحدًا، لكن الباب دُفع قبل أن أنهض عن كرسيّ. لم أقدر على رؤية أيّ شيء بوضوح، إلا جسدًا ضخمًا، ولمعة عينَين شاحبتَين؛ إنه بيروس. وقفتُ متذكرةً في الوقت المناسب تمامًا.. أن أنحني.

تقدم أكثر قليلًا إلى الغرفة، فقلتُ:

- أخشى أن ألكيموس ليس هنا.

- لا، أعرف ذلك، لقد ذهب لرؤية مينيلاوس. أحسب أنه كان يجدر بي الذهاب أيضًا، لكنني لم أشعر برغبة في ذلك.

جذبتُ كرسيًا بعيدًا عن الطاولة، ولوّحتُ له ناحيتها:

- تفضل...

من غير حاجة إلى أن يُطلب مني، ذهبتُ إلى مخزن النبيذ في الخوان، وسكبتُ له كأسًا من أفخره، مدركةً وأنا أعبر بها الغرفة إليه أنني –وللمرة الأولى– كنتُ أرى بيروس يقظًا بالكُلّية. كان أكثر من مالئ كرسيه؛ فخذَين لَحِمَين منشورَين بتباعد، وهائلَين، ورغم ذلك، ثمة خراقة يافعة فيه توحي بأنه لمّا يبلغ بطشه الكامل، فليساعدنا الله. تذكرتُ إخوتي في تلك السن، كم كانوا خُرقًا، بالكاد أمكنهم عبور غرفة دون أن يعثروا بالأثاث! رفع بصره وقتما أخذ الكأس، وابتسم، ولم أجد الابتسامة مطمئِنة. خطر لي أن ألكيموس

وقتما حذّرني ألا أُدخل أحدًا، ربما كان يفكر ببيروس، لكنه عجز عن حمل نفسه على نطقها صراحةً.

كانت هذه الزيارة غير اعتياديّة، وهذا أقل ما يمكن قوله، فالرجال لا يزورون النساء عادةً وقتما يكون معروفًا أن أزواجهن غائبون، لكن لم يبدُ على بيروس الاعتقاد بأن ثمة شيئًا غريبًا في ذلك. إن قلت إنه معاق، فسيعطي ذلك الانطباع الخاطئ تمامًا، ومع ذلك ثمة شيء ما مفقود. لم يبدُ عارفًا كيف يتصرف الناس الطبيعيّون، كيف تسير العلاقات، ولهذا دائمًا ما كان يخرق القواعد، لا لأنه مدفوع للتمرد عليها، بل لأنه ببساطة لم يكن مدركًا وجودها، أو ربما يظن أنها لا تنطبق عليه.

قال: «ألن تحتسي كأسًا معي؟»، فصببتُ لنفسي كأسًا، وما زلتُ صامتة، وقعدتُ قبالته. كان الحذر يمنعني من التكلم.

- يقول ألكيموس إنكِ حامل بابن أخيل، صحيح؟

- أجل، وظننتُ أنك تعرف.

فهز رأسه.

- لقد منحني الجيش الإغريقيّ لأخيل جائزة شرف بعد أن نهب ليرنيسوس، وبعدئذ، وقتما عرف أنه سيموت منحني لألكيموس. كان يعتقد أن ألكيموس سيكون خير حامٍ لابنه.

- حسنًا، كان محقًا في ذلك. خِيار صائب.

شعرتُ أنه لم يأتِ ليتكلم عن دفن بريام، وأظن أن الراحة التي نزلت عليَّ جراء ذلك جعلتني غاضبة بعض الشيء. بأيّ حال، شربتُ نصف كأس من النبيذ القوي بسرعة أكثر مما ينبغي، وحينما رفعتُ بصري ثانية، رأيتُه مادًّا يده.

«انظري»، فانحنيتُ إلى الأمام، وعندما أدرك أنني لا أزال عاجزة عن الرؤية، نهض وجاء تجاهي، وجسمه الجسيم يحجب الضوء. شعرتُ به يضع شيئًا ما في يدي، ثم تنحّى جانبًا ليترك ضوء السراج يسقط عليه؛ كنتُ حاملة خاتم بريام.

- أتعرفين ما هذا؟

- أجل، إنه خاتم بريام.

وحاولتُ إعادته.

- أهو خاتم بريام حتمًا؟ ليس خاتم هيكتور؟

- لا، إنه لبريام، كان يلبسه على الدوام، أخاله كان هدية هيكوبا في يوم زفافهما.

- لكنكِ رأيتِه بعد ذلك؟

- نعم، أرتني إياه أندروماخي، وقالت إنك قد أعطيتَها إياه، وتكلمَت عن مدى لطف ذلك.

- هه.

عاد إلى كرسيه، وللحظة ظننتُ أن ذلك كان ما في الأمر، لكنه قال حينئذ:

- أظن أحيانًا أن الناس يحسبون اللطف ضعفًا.

- أنا موقنة أن بعض الناس يفعلون، لكن ليست أندروماخي؛ هذا ليس من شيمها.

- لقد قدمتُ لها طبقًا طافحًا بالحلي؛ أساور وقلائد... كلها تلائم ملكة، واختارت خاتم رجل؟!

- حسنًا، لقد لبسَته حول عنقها.

لم يكُن بمقدوري التفكير بسبب وجيه واحد لتحرّيه ذلك. كان يُطلَب مني توريط أندروماخي في دفن بريام.

- أتعتقدين بصدق أن تلك الفتاة سرقَته؟

تلك الفتاة. يا لأمينا البائسة، لم تحظَ حتى باسم! لمماطلة الإجابة، جرعتُ رشفة من كأسي، وحاولتُ التفكير، فأيّ كذبة أكذبها لمساعدة أندروماخي ستزيد أمور أمينا سوءًا، لكن أيضًا لا يمكنها أن تسوء كثيرًا. أربما عليَّ محاولة إنقاذ الشخص الذي لا يزال إنقاذه ممكنًا؟

- انظر، كل ما أعرفه هو أن أندروماخي سُعِرَت عندما فقدَته. لقد كانت مستاءة... مستاءة حقًا وصدقًا.

- إنكِ لصديقة وفيّة.

أكنتُ كذلك؟ شعرتُ أن هذا آخر ما كنتُه.

- أتكلمتَ مع أندروماخي؟

- لا، أريد استنباط الحقيقة من الفتاة أولًا.

حاولتُ غلق دماغي عما قد ينطوي «استنباط الحقيقة من الفتاة» عليه. كانت يداه الضخمتان هاجعتَين على فخذَيه تحت ضوء السراج، ولو أنه لم يرث شيئًا آخر من أخيل، فقد ورث يديه، ووجدتُ صعوبة في الإشاحة بنظري.

- على كلٍّ (صفع ركبتيه ووقف) أخبري ألكيموس أن لا بأس.

لا بأس؟

- أجل، بالطبع سأخبره.

رافقتُه إلى الباب، شاعرة بالارتياح لانتهاء هذا اللقاء الغريب المزعج، لكن وقتئذ، وحينما كان على وشك الخروج، مد خاتم بريام كأنما يقدمه لي، فتراجعتُ خطوة.

- لا، هيا، أودّك أن تحظي به من أجل... تعلمين...

وأشار إلى معدتي.

قلتُ بحزم:

- لا يمكنني البتة.

تذكرتُ كيف منح ترس هيكتور لأندروماخي، وكم كان ندمه على ذلك مرًّا. كان رجلًا لا يسعه أن يكون مسؤولًا عن نفسه ساعتَين متتاليتَين:

- لا، لقد أخذتَه من يد بريام يوم قتلتَه. إنه ملكك الآن.

حاول حشره في يدي، لكنني تراجعتُ ثانية. وأخيرًا، تمكنتُ من إقناعه بأني لن آخذه، فلبسه في إبهامه مباشرة، وأظنني رأيتُ ارتياحًا يعبر قسماته. لم يكن العرض حقيقيًّا قط، إذ كان على الدوام يتصرف بدافع فكرة ما عن نفسه، كما لو أنه يعيش كامل حياته أمام مرآة.

تذكرتُ أن أقول: «شكرًا لك. أرجوك، لا تظنّن أني لستُ ممتنة، إن ذلك لفي غاية السخاء منك، غير أنني أعتقد أن أخذه ليس بالأمر الصائب إطلاقًا».

وأنا أتكلم، شعرتُ بدفقة دم تصعد إلى وجهي. أردتُه أن يرحل وحسب، وبعد بضع كلمات محرجة أخرى، غادر أخيرًا. شاهدتُه يمشي عبر الفناء تجاه الردهة، وفي طريقه، توقف ليسلم على شخص ما؛ واحد من شبان سكيروس، وتحدثا لبعض الوقت. ضحكة فاقعة، وبعض صفع الظهر، ثم صعد بيروس درجات الردهة، وابتلعَته العتمة.

22

تلقائيًا، حملتُ كأس بيروس، وأخذتُه إلى الخوان، وإن كنتُ شبه ذاهلة بالكامل عما حولي. ومجددًا، رأيتُه يلبس خاتم بريام في إبهامه؛ اختُصِر هلاك طروادة في ذلك الفعل العرضي الواحد. غير أن شيئًا غريبًا بدا يحدث، إذ اكتشفتُ أنني ما زلتُ قادرة على الشعور بالخاتم في راحة يدي، فقد حملتُه مدة وجيزة، كما لو أن ذاك التماس الخاطف قد ترك أثرًا راسخًا بطريقة أو بأخرى. أعلم أن هذا يبدو مبتذلًا، لكنه لم يكن، ليس بالنسبة لي، إنما كانت واحدة من تلك اللحظات التي أظن الكل يعيشها -ولا يُشترط أن تكون درامية- وقتما تبدأ الأمور بالتغير، وتعرف أن لا طائل من التبصُّر فيها، لأن التفكير لن يعينك على الفهم. لستَ مستعدًا لفهمها بعد، إنما عليك أن تسلك طريقك إلى المعنى.

أشعلتُ عدة سُرُج إضافيّة، ثم وقفتُ في منتصف الغرفة، مدركةً أنني ألقي ظلالًا متعددة. لا بد أن الوقت كان منتصف المساء -ليس أكثر بالتأكيد-، وقد أخبرني بيروس بشيء احتجتُ إلى معرفته؛ لقد ذهب ألكيموس لرؤية مينيلاوس. كان مينيلاوس شهيرًا بعشقه للطعام الطيب والنبيذ، ومالت وجبات عشائه إلى الامتداد حتى الليل، لذا كنتُ أتمتع بحريّة مغادرة الكوخ، والذهاب لرؤية أمينا، فأخذتُ طعامًا ونبيذًا معي، وبعد لحظة تفكير: فانوسًا أيضًا، ذلك أنني لم أكُن واثقة من وجود واحد في كوخ الغسيل. ربما لم يجدر بي الذهاب، فقد قال ألكيموس كلما ضعفت علاقتي بأمينا الآن كان أفضل، لكنها فزِعة ووحيدة؛ عليَّ الذهاب.

لم يكُن تسلق السياج عسيرًا، ففي هذه الفترة من حملي كنتُ لا أزال رشيقة إلى حد معقول، وثمة برميل في الطرف الآخر ليعينني على النزول،

وكان العبور بالطعام يسيرًا، إذ دسستُه في زنّاري ببساطة، لكني اضطررتُ إلى التخلي عن الفانوس والنبيذ، وقطعتُ الفناء سريعًا. نادرًا ما كان الرجال يدخلون غرفة الغسيل، نظرًا لأن غسل الملابس، وتجهيز الموتى من أعمال النساء، وأرجّح أن معظم المقاتلين لم يعرفوا بوجود الفناء الخلفيّ. حاولتُ فتح الباب، لكن حتى بتوظيف كتفي ووركي عجزتُ عن زحزحته، فتراجعتُ شاعرةً بالتوعك جراء خيبة الأمل. كنتُ واثقةً تمامًا أن هذا سيجدي، أنني سأتمكن من الدخول، لكن ثمة قفل، ومن الواضح أنهم استخدموه. إما ذاك، وإما أن الباب كان عالقًا بشكل لا أمل فيه.

سمعتُ حركةً في الجانب الآخر للجدار، ووضعتُ شفتي على فجوة بين الألواح:

- أمينا؟

- بريزيس؟ لا ينبغي لكِ أن تكوني هنا!

- لقد جلبتُ بعض الطعام.

- حسنًا، أشكر اهتمامكِ، لكن...

- لا، انظري، إذا ما مشيتِ على طول الجدار إلى يمينك، نحو خمس خطوات... (حاولتُ تصوّر الغرفة وأنا أتكلم) يجب أن تجدي فتحة، أيمكنكِ رؤيتها؟ إنها بارتفاع الكتف تقريبًا.

سمعتُ أصابعها تحُكّ على طول الجدار:

- أجل، رأيتُها.

- سأمرر لك شيئًا ما.

شرائح من اللحم البارد والخبز، كنتُ قد جلبتُ تفاحًا أيضًا، لكن من المستحيل تمريره عبر الفتحة.

- ألديكِ ما يكفي من الماء؟

- غالونات، ثمة شيء ما منقوع فيها، كما أحسب.

- أجاء أحد ما لزيارتك؟

- أجل، كانوا كلهم يطرحون الأسئلة.

- لكن لم يؤذوكِ، أليس كذلك؟

- ليس بعد؛ أظن بيروس قد يأتي.

- حسنًا، اسمعي، إذا ما جاء، فكوني صادقة معه وحسب...

- ولمَ عساي لا أكون؟ ليس عندي ما أستحي منه!

- يمكنك أن تقولي... أوه! لا أعرف. قولي إنك عرفتِ بريام، وإنه كان عطوفًا عليك، و...

- لا أمانع قول ذلك، إنه حقيقة. على أني لو لم أكُن قد التقيتُ بريام قط، كنتُ لأدفنه بأيّ حال.

- ومن ثم -آسفة يا أمينا، أعرف أن هذا لن يعجبك- توسّلي إليه، اهبطي على ركبتَيك، تذللي لو اضطُررتِ، افعلي أيّ شيء يتطلبه الأمر...

- أهذا ما كنتِ لتفعليه؟

- أجل، إن اضطُررتُ.

- أتظنين حقًا أنه سيرأف بي؟

- لا، لكنه رجل مختال، وستعجبه فكرة أن يكون رحيمًا، يمكنكِ الاستفادة من ذلك.

- أنتِ يمكنك. (تنهّدَت) ارجعي إلى زوجكِ يا بريزيس. عيشي، كوني سعيدة.

- لن أقدر على احتمال أن تموتي.

- آه، بحقك، أنتِ لا تحبينني حتى!

ما كان حقيقةً أيضًا.

- حاولي الحياة على الأقل!

تمنيتُ لو أمكنني رؤية وجهها، مدُّ يدي، والأخذ بيدها، لكن لم نمتلك إلا صوتَينا المتهامسَين في الظلام عبر شق في الجدار، ولم يكن كافيًا. شعرتُ أنها تفلت مني، تنسل من بين أصابعي مثل الضباب.

- لمَ تريدين الموت؟

- لا أريد! من الغباء قول هذا...

جاءت دفقة ضحك من خارج الفناء، كانت زمرة من المقاتلين تمر.

- لأنني أعجز عن احتمال فكرة لمسه إياي.

- لم يظهر الكثير من بشائر ذلك...

- لا، لكنه قادر في أيّ وقت، ولن يكون بمقدوري منعه. لقد خُلِق الناس مختلفين يا بريزيس، بوسع أندروماخي احتمال ذلك، لا أعرف كيف، لكن بوسعها، وأعرف أنني لا يمكنني.

مزيد من الصيحات، مزيد من الضحك، بدأ المقاتلون يتجمعون حول المواقد، مستقرين لليلة من الشرب الغزير. لا يمكنني المجازفة بأن أُرى: «عليَّ الذهاب»، لوّيتُ يدي بين الألواح لأبعد مدى يمكنها بلوغه، وشعرتُ برؤوس أصابعها تلمس أصابعي. قلتُ: «سأحاول إحضار بعض الطعام في الصباح».

ثم عدتُ إلى كوخي، أتساءل عمّا إذا كنتُ سأراها ثانية.

23

عندما يدخل قادمًا من الظلام، ثمة دائمًا لحظة يتذكر فيها الغرفة كما رآها وقتما وصل إلى المعسكر، منذ خمسة أشهر (ستة الآن تقريبًا)؛ بدَت آنذاك مُترفة، وساطعة، ومُرحبة، وتفيض بروح أبيه، وإن كان أخيل قد مات منذ عشرة أيام، وانتهت ألعاب جنازته، وحُرِق جثمانه، ورُفِعت جثوة قبره. أما الآن، فتبدو غرفة المعيشة مُغِمّة.. مُغِمّة إلى حد أن بيروس ميّال إلى الخروج ثانية مباشرة. سيكون عدد لا حصر له من جلسات الشرب جاريًا، بوسعه عبور الطريق إلى مجمع مينيلاوس، لا شك سيُرحَّب به هناك، أو في أيّ مكان آخر من المعسكر كذلك.

ماذا عليَّ أن أفعل أكثر؟ يجاهد ليقمع السؤال، لكنه يبزغ مجددًا. ***ماذا تريد أكثر؟*** لا شيء يتطلع إليه، هذه مشكلته. لا مزيد من المعارك لِحرابها، لا مزيد من المجد لتحقيقه. إذا ما انطلقت الألعاب، يفترض أنه قد يفوز بسباق العربات، وهذا يعطي دفقة حماسة لحظيّة، لكنها ليست أكثر من لحظيّة. شارد الذهن، يلتقط قماشة، ويبدأ بتلميع ترس أخيل. ليس الجميع قادرين على رفعه، لكنه يقدر، وبسهولة. يسنده إلى الجدار، ويضع سراجين على الجانبَين، بينما تدفّئ ألسنة اللهب فخذَيه العاريَين. بحلول الآن، صار خبيرًا بالنقش خبرته بخطوط راحتيه، وهو رغم ذلك معقد إلى درجة أنه دائمًا ما يكتشف شيئًا جديدًا. مُطوَّقة بالمحيط، تسير الحياة البشريّة بأسرها أمامه؛ رجلان يسويان ثأر دم، دعوى قضائيّة، حرب، مدينة مزدهرة، مدينة محترقة، قطيع من الماشية يرعى بجوار نهر، حشد من الناس يحملون مشاعل في طريقهم إلى حفل زفاف، شبان وفتيات يرقصون، حاملين أكاليل من الأزهار فوق رؤوسهم...

ترس طرقه إله، لا يمكن تقدير ذلك بثمن (لأنه لا يوجد ند له في العالم، لا شيء ليُقارن به)، وهو يمتلكه، يمتلك كل بوصة منه، كله.. كله ملك له، إلا المعنى، وإن لم يكن الترس ما يحتاج إلى فهمه، بل الرجل الذي جثا أمامه آنفًا، كما يجثو هو الآن، يلمّع المعدن حتى تجد نيران السُرُج نيرانًا أخرى مختبئة في عمق البرونز. يومًا ما، غشّى نفَس أخيل هذا الترس، مثلما يفعل نفَسه الآن، ويد أخرى، صُيِّرت منذ عهد بعيد إلى نُثار من العظام المحروقة، قد مسحَت هذه الغشاوة.

بعد فينة، تُحرر الرتابةُ البحتة للتلميع العقلَ. أهذا السببُ وراء فعل أخيل ذلك؟ ما يحتاج هو إلى البت فيه -ولا يمكنه حقًا تأجيله أكثر من ذلك- سخيف نسبيًا، ألا وهو ما ينبغي فعله بالفتاة اللعينة. لا يزال عاجزًا عن تصديق أنها كانت وحدها، لا بد هناك شخص آخر، ليس هيلينوس، كان ذلك واضحًا منذ لحظة دخوله الغرفة عارجًا. كالخاس إذن، وهذا كان بمقدوره فعلها بسهولة، رغم أنه -كما قال أوتوميدون- لمَ عساه يصير وفيًّا الآن، وقد صارت القضية الطرواديّة خاسرة؟ إنها نقطة صائبة، لكنه يشعر مع ذلك أنه كان كالخاس بلا شك. مخلوق شنيع.. شنيع، لكن يبدو كأنه قد أفلتَ بفعلته.

ما يعيده إلى سؤاله البدئي: ما ستكون العواقب؟ هذا بكليّته قراره، فهي أمَتُه، ويمكنه فعل ما يشاء بها، لكن لا رغبة لديه في قتلها، وليس مردّ ذلك إلى ظنه أن مزيدًا من القتل قد ارتُكِب، بل العكس تمامًا؛ لم يبلغ القتل ما يقترب من الكفاية. لا يشعر أن سُمعته في أمان، فقد قاتل ببسالة في طروادة دون أيّ تفاخر، وهو يعرف ذلك. عند البوابات، ثم مجددًا على سلالم القصر، كان قد واجه العشرات من المقاتلين الطرواديّين، وليسوا صبية سذجًا بالكاد يميزون بين طرفَي الرمح، لا، بل قدامى المحاربين الذين صلّبتهم المعارك، وكانوا يعرفون حق المعرفة أنهم يحاربون من أجل حيواتهم. حاربهم وظفر، لكن لم يبدُ على أحد تذكُّر ذلك. يتذكرونه يقتل بريام، وهو يتذكر أيضًا اقتحام غرفة العرش، ورؤية بريام على درجات المذبح، حاملًا رمحًا بالكاد يمكنه رفعه.

وهذه هي المشكلة، هنا تمامًا، هذه هي. هو مشهور بقتله بريام، وحفيد بريام الصغير، وبوليكيسينا أصغر بنات بريام، التي قدمها قربانًا على ضريح

أخيل. رجل عجوز، وطفل، وفتاة. بلى، كانت الوفيّات ضروريّة. وليس نادمًا عليها، لكن في بعض الأوقات، ليلًا، يشعر بساقَي الطفل الممتلئتَين تركلان صدره، فيتخبط مستيقظًا، ليريّحه إيجاد أن ذلك ليس إلا ضرب قلبه. فِعال بطوليّة؛ فظائع.. من يمكنه رسم الخط الفاصل؟ هذا ليس عادلًا وحسب. لو كان بإمكانه التلويح بعصا سحريّة، وتحويل بريام إلى شاب قويّ، أعظم مقاتل في جيله، لَما تردد لحظة. كان ليفضل أن يكون الأمر على هذا النحو.

إذن لا، عودة إلى اللحظة الراهنة، هو لا يريد قتل الفتاة، لكن عليه جعلها عبرة للأخريات. إذا ما بدأ مرة بالتساهل مع عصيان الإماء، فلا فرق إن تنحى برمته. الجَلد، هذا هو الحل البديهي، والحرص على أن تسمعها بقية النساء، أو بيعها إلى تجار العبيد، وتوفير الانزعاج على نفسه. في الحقيقة، هذه ليست فكرة رديئة، وثمة مجموعة من تجار العبيد في المعسكر الآن، يتنقلون من مجمع إلى آخر، مساومين على الإماء اللاتي لا حاجة لهن في رحلة العودة إلى الديار. هي فتية، ليست بارعة الجمال باعتراف الجميع، لكنها قوية، وعلى الأرجح خصيبة، ستحقق سعرًا جيدًا. وتلك نهاية الأمر، رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف، ولن يُضطر إلى رؤيتها مجددًا.

لكن أولًا، يحتاج إلى شراب. النبيذ هو الشيء الوحيد الذي يطغى على السكون المهيب في هذه الغرفة. يلقي القماشة، ويذهب إلى الطاولة ليصب لنفسه كأسًا سخيّة، وبينما يعبر الردهة، يحاذر ألا يلمح انعكاسه في المرآة، ذلك أنه لم يكُن يتصرف كما ينبغي له تمامًا في الآونة الأخيرة، ومرة أو مرتين، واصل الحركة بعد أن توقف هو. جرع أول كأس دفعة واحدة، تأنى بالثانية، وتردد في الثالثة، لكنه قرر بعدئذ ألا يشربها. من الأفضل الانتهاء من قضية الفتاة أولًا، ثم يمكنه الاسترخاء.

بعد دقائق، يسير واسع الخُطى على الطريق المؤدية إلى غرفة الغسيل. هذا هو المكان، حيث كانت جثث المقاتلين الموتى تُجهّز للإحراق. كانوا يحملونها إلى هناك، ويرفعونها على البلاطة، تاركين ثيابًا نظيفة، وعُملات لجفونهم، ثم يتراجعون خارج الغرفة تاركين نساء الغسل بوجوههن الشاحبة الرطبة الفطريّة ليبدأن عملهن. أمام المغسل، كان ثمة صف كامل من الأحواض الطافحة بالبول، وكانت تُرى النساء، وتنوراتهن مكفوفة حول

خصورهن، يدُسن القمصان الحربيّة المبقعة بالدم. على ما يبدو، فالبول يزيل بقع الدم أحسن من أيّ شيء آخر. في بعض الأحيان، كان المرء ليرى رجالًا واقفين يبولون في الأحواض، ويرسلون بين الحين والآخر دفقة تجاه النساء، اللاتي كن يزعقن، ويحاولن التنحي. كله مزاح رقيق الجانب، بالطبع، فالمرميديّون جماعة طيبون. لا قمصان مبقعة بالدم في الأحواض الآن، ولا تزال الرائحة عالقة رغم ذلك؛ الرائحة النافذة الحديديّة للدم، والحلاوة الغاثية للبول البائت. ثمة شيء آخر أيضًا، أرض فولر؟ أهذا اسمها؟ بأيّ حال، هي المادة التي يستخدمونها لتبييض الأغطية.

يتوقف عند العتبة، ويجيل نظره حوله. الأحواض فارغة الآن، إذ لا بد أن أعمال الغسيل قد صارت أسهل بكثير منذ أن سقطت طروادة؛ لا قمصان مبقعة بالدم، لا ضمادات، ويعلم الله ما الذي يفعلنَه ليستحققن مأواهن...!

منذ أن سقطت طروادة... لا تزال هذه الكلمات قادرة على الإذهال. في تلك الليلة، وهو محشور في قلب الحصان، قال لنفسه إن على الأمور أن تتغير، وكان التغير نصيبها بالفعل. نجاح باهر من وجهة نظره. أوه! قد يشك في نفسه أحيانًا، لكن لا أحد سواه يشك به. لقد منحه أوديسيوس درع أخيل، ليس أكثر مما يستحقه، لكن يظل أمرًا لطيفًا أن يحظى به، ومن شبه المؤكد أن مينيلاوس موشك على تقديم يد ابنته له للزواج، وأيّ موائمة بارعة ستكون: ابنة هيلين، وابن أخيل. عليه أن يرجو أنها لم ترث مظهرها عن أبيها فقط. في كل مكان، يُصاخ إليه السمع، وتُطلب منه المشورة، ويتعشى ندًّا لكل الملوك. لا يجرؤ أحد في هذا المجمع على تحديه، إلا هذه الفتاة.. إلا هذه الأَمَة.

آخذًا مشعلًا عن حاملته على الجدار، يدخل الشرفة، ويركل الباب الداخليّ فاتحًا إياه. تفوح نفحة أعشاب طازجة ليست بالقوة الكافية لكسر صنة الصوف المنقوع، ويسمع في مكان ما من الظلال صوت خربشة، نفس الصوت الذي قد يصدره جرذ، لكنه ليس جرذًا، إنها الفتاة. وحين يرفع المشعل عاليًا فوق رأسه، يرسل غوغاء من الظلال فارّة إلى الجدران، لكن في مركز النور والظلمة هذه تمامًا ثمة وجه ضئيل شاحب.

يقلّب طرفه في الغرفة متجاهلًا إياها للحظة. في المركز ثمة بلاطة رخاميّة طويلة حيث كان المقاتلون الموتى يُغسَلون ويُجهَزون للإحراق،

وفوقها صارًا ومتأرجحًا بفعل الهواء، زوج من الرفوف المعلقة الضخمة، حيث توضَع القمصان المبللة لتجف. بعضها تتدلى هناك الآن، ملقيةً ظلالًا بأشكال رجال تتمايل من طرف إلى آخر مع حركة الرف، تجربة مرِبكة على نحو غريب، ذلك أن الغرفة تبدو ملأى بالرجال المتقاتلين، لكنها رغم ذلك ساكنة. ثمة عشرات من الشموع المصطفة على طول المقاعد التي تسطّر الجدران، وكلها بدرجات متفاوتة محترقة عن آخرها، والشمع الذائب يسيل على جنباتها كالدموع.

«فلنشعل هذه، ما رأيكِ؟»، لا رد، لكنه لم يكن منتظرًا إجابة بالضبط. يصفّ الشمعات، متمهلًا -غير عارف لمَ التمهّل-، ثم يشعلها واحدة واحدة. يشعر أن عينَيها تتبعانه من لهيب.. إلى لهيب.. إلى لهيب. لا تنجو الشمعات كلها، ويترجرج بعضها ضاجًّا بالحياة، لكنه يذوب ميتًا من فوره. ومع ذلك، عندما انتهى، كانت المقاعد تعج بالأضواء الدقيقة، ولم تعُد الغرفة حفرة قذرة نتنة، حيث تعيش مخلوقات بالكاد يمكن تعريفها على أنها بشر حياة شاقة تعسة، لا، إنها قصر، غرفة نوم ملكيّة مُزيّنة لليلة عرس.

يشعل الشمعة الأخيرة، ينتظر ليرى ما إن كانت ستضطرم، ثم يستدير ليواجه الفتاة. وجه بسيط، ذكوريّ نتفة، وأخاذ رغم ذلك. لا بد أنه قد اختارها، رغم عجزه عن تصوّر السبب مهما تكثر محاولاته. أعساه لم يفعل؟ لعلها واحدة من النساء اللاتي خُصصن له عبر القرعة. حاجبان كثّان، عينان جاحظتان، فك عريض، لا شيء يثيرك في هذا! هي من غير ريب لا تُداني هيلي؛ الفتاة التي رآها ترقص حول النار.

للحظة، لا يمكنه تذكُّر اسمها، لكنه بعدئذ يرجع إلى خلده: «أمينا».

لا رد، كأنها منحوتة من خشب. يتحرك ناحيتها، وبوجود البلاطة الرخاميّة خلفها لا يمكنها التراجع. ثمة غبوط من الأعشاب الطازجة منشورة على سطحها، وكتل ملح، وفرش تنظيف، وقصاع ملأى بالثياب المنقوعة التي تعلو طياتها المبللة فوق المياه الرغويّة، كصخور مكشوفة في جزر دنيّ. صار في الغرفة وفرة من منابع الضوء الآن، وكلها تلقي ظلالًا، لكن على الأقل يمكن لواحدهما رؤية الآخر بوضوح. يرجع إلى الباب، ويعلق المشعل

على حاملة، ثم يمشي على مهل عودةً إلى البلاطة، مستمتعًا بصرير أخشاب الأرضيّة تحت خَطْوه الموزون.

يقول أخيرًا، ويبدو صوته غريبًا بعد الصمت المديد:

- أتعلمين، ليس على هذا أن يكون مشكلة حقًا. إذا ما قلتُ للحراس ألا يذكروا الأمر لأحد، فلن يفعلوا، بهذه البساطة، ويمكننا كلنا أن ننساه، لكن، كما ترين، يعتمد الكثير على عدد الآخرين الذين يعرفون، فهل التقيتِ بأيّ شخص آخر هناك؟

- بريزيس فقط، وكانت تحاول منعي فحسب.

- هذا ما تواظبين على قوله. ماذا عن بقية الفتيات؟ أكُنّ يعرفن؟

- لا.

- أوه! بربكِ، لا بد أنك قد قلتِ شيئًا ما. أعني، ها أنتِ ذي، تغادرين الكوخ في منتصف الليل... إلى أين ظنَنَّ أنكِ ذاهبة؟

- قلتُ إنني كنتُ محتاجة إلى الخروج، وهذه حقيقة، فأنا أكره الحبس.

- لا بد أن هذا كابوس بحق، أليس كذلك؟

يراها تلقي نظرات عَجلى من جانب إلى آخر، مرتبكةً من الظلال المتمايلة بقدر ارتباكه:

- إذن، لم تخبري أندروماخي؟

- لا.

- ألم تُعطِك الخاتم؟

- لقد سرقتُه.

لم يدرك إلا الآن، وهو يسمع نفسه يطرح هذه الأسئلة أن هذا ما يهم. لا يمكنه احتمال فكرة أن يتآمر الناس من وراء ظهره، وما زال غير مقتنع أنهم لم يفعلوا. بدأت الظلال في إثارة أعصابه، الظلال والسكون، فرغم أن الجدران ترجّع أصداء صوتَيهما -حتى صوتها، وهو أكثر هدوءًا بكثير من صوته-، يبدو أنهما لا يصدران أيّ صوت. عويل الريح حاضر، لكنه معتاد إلى درجة أنه بالكاد يُحتسَب أكثر من صوت أنفاسه. يبدو الأمر كما لو أن

كل شيء خارج هذه الغرفة (المعسكر، والمواقد، والأكواخ المكتظة) قد كف عن الوجود، ولا توجد إلا هذه اللحظة، وحيدًا في هذه الغرفة مع هذه الفتاة.

- لكنك كنتِ تعرفين خاتم مَن كان؟

- خاتم بريام.

- ليس خاتم هيكتور؟

لا يزال هذا الاحتمال يثير غضبه.

- لا، أعرف أنه لبريام. كان جزءًا من مهر هيكوبا، منحتْه إياه في يوم زفافهما، وارتداه خمسين عامًا. كرهتُ أن أسرقه، لكني من ثم فكرتُ في قرارتي: «حسنًا، إنه ملكه حقيقةً، وبأيّ حال، يجب أن يحظى بشيء ما ليدفع للنوتيّ».

- يدفع للنوتيّ؟ فكريْ بما تقولينه. أتؤمنين حقًا أن الأرواح تهيم على وجهها إلى الأبد، فقط لأنها عاجزة عن الدفع لنوتيّ لعين غير موجود بكل الأحوال؟ هذه أسطورة، ليست حقيقة!

- أنا أعرف ما أؤمن به يا سيد بيروس. أردفَت محدِّقة إليه مباشرة: أتعرف أنت؟

جسورة جدًا بالنسبة لأَمَة، فالإماء يُدَرّبن على ألا ينظرن إلى مالكهن، يُدَرّبن على مواجهة الحائط وقتما يمر. ليس مسيطرًا على الموقف بالحزم الذي ينبغي أن يكون، فقد كانت مذعورة عندما دخل إلى الغرفة، وقد اشتمّ ذلك عليها، لكنها غير مذعورة الآن. حان الوقت لخشخشة قفصها قليلًا.

- تقول بريزيس إنها ساعدتك.

- إنها تكذب.

- لمَ عساها تكذب بخصوص هذا؟

- لم تساعدني. لم يساعدني أحد.

باتت حانقة الآن، وبرؤيته عينَيها تلظى هكذا، بدا كأنه يراها للمرة الأولى، إلا أنها ليست المرة الأولى. أخذ شيء ما كان يقضم حواشي دماغه منذ أن دفعها الحراس إلى الردهة يحبو أخيرًا إلى النور؛ إنها واحدة من النسوة اللاتي طوّقن هيكوبا في غرفة العرش، وكلما أطال النظر إليها ازداد اقتناعًا.

العينان المحملقتان، الفم الضفدعيّ... لا، لا يوجد خطأ، ليس وجهًا ينساه المرء أبدًا، إنها هي بلا شك. هي التي وقفت، وواجهَته بعينَيها بينما فرت الأخريات. تستغرق النتائج لحظة لتُفهَم تمامًا، لقد رأت الأمر كاملًا؛ يأسه، خراقته، ومحاولاته المتكررة البليدة لقتل رجل عجوز كان ينبغي لقتله أن يكون بسهولة قتل أرنب. لقد رأت كل شيء...

- كنتِ هناك، أليس كذلك؟

- أجل.

لا تحتاج إلى قول أيّ مزيد، فهو يقرأ الاحتقار في عينَيها، ولا يمكن الآن إيقاف سيل الذاكرة؛ الملمَس الزلِق لشعر بريام، القطع البطيء المُشين للعنق العجوز الأعجف، وعناد بريام، ورفضه المتعنت للموت. لمَ لَم يُرِد الموت؟ وكم كانت النساء قريبات؟ لا يمكنه التذكر.. لم يكُن مدركًا وجودهن حقًا حتى انتهى الأمر، وبدأ صراخهن يثير أعصابه. كان قد رآهن آنذاك بالطبع، وليس أنه نسيَ وجودهن، بل كان يعرف طوال الوقت أنهن هناك، بيدَ أنه لم يفكر فيهن على أنهن شاهدات قط، ليس كما لو كان المقاتلون الإغريق شهودًا. لا أحد سيستمع لهن، لكن ليس ذلك ما يهم. إنهن يعلَمن.

- أسمعتِ ما قاله؟

تبتسم.. تبتسم حقًا:

- بالطبع، لقد قال: «نجل أخيل؟ أنت؟ شتّان ما بينك وبينه».

يلكمها دون تردد، ودون اختيار، فيرتطم رأسها خلفًا، ثم يقبض على حلقها، وتجحظ عيناها الضفدعيّتان بحق. يريدها أن ترى وجهه، يريد لوجهه أن يكون آخر ما تراه في حياتها. يداها خلف ظهرها، تخمشان بحثًا عن شيء على البلاطة، هو لا يرى السكين، لكنه يشعر بها ترسل خضة ألم من كتفه عبر ذراعه. لثانية هناك يوشك أن يتركها. يتعرق بياض عينَيها بالدم. عَصْرة أخيرة، ولَيّة، ويتوقف الطحن أخيرًا.

يتركها تسقط. يقف ويمسح فمه، يشعر بالسكون يفيض عبره باردًا كالماء. إنها ميتة. أهي ميتة؟ ما زالت ترتعش، لكن لا، إنها ميتة. ما أصغرها! ينقّل بصره في الغرفة بين الشموع التي تابعت اشتعالها، وما زالت تشتعل

كأن شيئًا لم يكن. حسنًا، لم يحدث الكثير. يخفض نظره إلى كتفه (محض خدش)، ثم إلى الشموع مجددًا، إلا أنها الآن تستحيل عيونًا، عشرات من العيون؛ كلها تحدّق.. كلها تتفرّج. لا يرغب بتركها على الأرض هكذا. يجرف الحثالة عن البلاطة راميًا إياها على الأرض، يحملها ويمددها على الرخام الأبيض. ما زالت ترتعش بعض الشيء، عنقها ملتوٍ، لكنه لا يريد تقويمه، لا يحب ملمسها، العظام الواضحة تحت الجلد الناعم. يذهب إلى الباب، يأخذ المشعل عن الحاملة، ويلتفت لينظر خلفه.

الشموع تراقبه. كم من النساء كُنّ في الردهة وقتما قتل بريام؟ كم زوجًا من الأعين رآه يفسد المهمة؟ كم أذنًا سمعت ما قاله بريام، وهو راقد يحتضر؟ ثلاثون؟ أربعون؟ ستكون هؤلاء النساء مبعثرات في جميع أرجاء المعسكر. هل يتهامسن عن الأمر في كوخ النساء ليلًا؟ عليه أن يقبض على زمام أفكاره. أيّ فرق يشكله ما تظنه الإماء، أو يقُلنه؟ لا يمكن لهمساتهن إيذاؤه. أوه! لكنها تفعل. من الآن فصاعدًا، سيسمعها أينما حلّ؛ دودُ صوتٍ ضئيل يتسلل على كل سطح.. على كل شيء يلمسه. ينظر إلى الفتاة راقدة على البلاطة، محاطة بالشموع التي صارت عيونًا، ولا يرغب إلا بالهرب، هو الذي لم يهرب من أيّ شيء في حياته قط. «إنها ميتة»، يقول لنفسه، ناظرًا من غير بصر حول الغرفة. «لا يمكنها إيذائي الآن».

24

بعد ليلة أخرى من النوم الخفيف والأحلام المعقّدة، يستيقظ كالخاس على دق آمر على بابه. وهو لا يزال دائخًا، يدبّ ليفتح الباب، ويجد واحدًا من منادي أجاممنون واقفًا على عتبته، مُحاطًا بالحراس. يقول بتشوّق: «تفضل»، لكنه يتذكر في نفس لحظة كلامه الدلو في الركن، ويقول: «لا، لا، انتظر، أنا سأخرج».

بأصابع مرتجفة، يتناول أفضل عباءاته، ويلفّ نفسه بها، شاعرًا حتى في حالته المتداعية بلحظة طمأنينة عندما يستقر الصوف عالي الجودة على كتفَيه. إنه كاهن، رغم كل شيء، كاهن أعلى استُدعِيَ للقاء ملك. أجل، ملك قادر وقاهر. أجل، أجل.. كل ذلك، لكن الكهنة يتمتعون بسلطتهم الخاصة... حتى -أو هذا ما يحدّث نفسه به- في حضرة الملوك.

تحمله دفعة الثقة هذه كل الطريق إلى درجات ردهة أجاممنون. الداخل مُعتِم، لا يوجد إلا سراجان مضاءان، وقدماه تطلقان، بينما يجرّهما عبر الأسل سحابة من الحشرات الدقيقة غير اللاسعة. على عتبة غرفة معيشة أجاممنون، يرفع المنادي يده، ويُضطر كالخاس إلى الوقوف؛ شخص تافه ضئيل منفوخ، رجل بلا أيّ كفاءة البتة، ثمة أسماك فيها عقل أكثر منه، ولم يُمنح هذا العمل إلا لمظهره الجذاب ونسَبه النبيل. أوه! وللهجته الملائمة بالطبع، لا يجب أن ننسى هذا! ورغم ذلك، يمنحه منصبه وصولًا يوميًّا إلى أجاممنون، وصولًا ممنوعًا على كالخاس منذ أسابيع. شاعرًا بالتبرُّم والسقم، ينظر من فوق كتف المنادي إلى العتمة خلفه، عاجزًا عن رؤية شيء. لا يوجد حتى بصيص ضوء قادم من تحت باب أجاممنون، ولا صوت كذلك. يجهد نفسه ليسمع، لكن الصوت الوحيد كان حفيفًا في الأسل خلفه. وحين استدار رأى مناديًا آخر،

وأوديسيوس نزِق أحمر العينَين من خلفه. ينحني كالخاس انحناءة خفيضة، لكنه لا يتلقى إلا نخرة ردًا عليها.

ما الذي يفعله أوديسيوس هنا؟ من الجليّ أنه يتمتع بنفوذ عظيم، فهو الرجل الذي أخذ بهذه الحرب اللامتناهية إلى خاتمة ظافرة، وإن صدقت القيل والقال، فهو أكثر قوة الآن من أيّ وقت مضى، ذلك أن نسطور مريض (والبعض يقول في أشد المرض)، وأجاممنون متشاجر مع أخيه، لذا يُرجح أنه يستند بثقل أكبر على مستشاريه القلة المتبقين. أهو اجتماع، إذن، لا استشارة؟ مراجعة لِما مُنِي بالإخفاق، ولمَ؟

يقفان هناك، كلٌّ مستقتل لمعرفة سبب استدعاء الآخر، لكنه مستثقل السؤال. من الخطير الاعتراف بالجهل، وإن كان ممكنًا أن يكون ادعاء معرفة لا يملكها المرء خطرًا أيضًا. عادةً، في مواقف كهذه، تتحول المحادثة إلى الطقس، لكن هذا بالكاد خيار هنا، بما أن الطقس هو بالضبط لبّ القضية، لذا، يبتسم كالخاس ابتسامة مبهمة غير موجهة إلى شيء بعينه، بينما يذرع أوديسيوس جيئةً وذهابًا، ويدمدم هامسًا بطريقة مزعجة.

أخيرًا، ثمة حركة في الظلام، يُفتح باب أجاممنون ليكشف عن دائرة من ضوء السراج، وهناك مستدبرًا الضوء ومستقبلًا الظل، لكن يمكن التعرف إليه على الفور من بدنه الأبجر تمامًا؛ ماخاون، طبيب الملك. يضرب قلب كالخاس، هل أجاممنون مريض؟ ألهذا استدُعوا؟ إذا كان كذا، فهذه أزمة أوخم من العاصفة حتى. متنحيًا جانبًا، ينحني لأوديسيوس مشيرًا له بأن يتولى الصدارة، على المرء دائمًا ترك أعدائه يتقدمونه إلى البليّة، وبأيّ حال، دخوله الغرفة آخرًا قد يمنحه بضع دقائق ثمينة ليُقدّر الوضع قبل أن يُطلب منه الكلام.

يبدو أجاممنون مريضًا، في أرذل المرض. هذا انطباع كالخاس الأول، لكنه أيضًا ما هيّأه حضور ماخاون لتوقعه. ظلال داكنة تحت عينَيه، ثلاثة صفوف من الانتفاخات، يبدو وكأنه لم ينَم منذ سنوات، وبشرته باللون الأصفر القشديّ للعاج العتيق، لكنه بالتأكيد لا يُقدّم نفسه على أنه عاجز، بل هو متأنق بالكامل، ومرتدٍ طوقًا ذهبيًا حول عنقه، وجالس في كرسي بمنزلة عرش. خلف رأسه، تتهلل البطانة الذهبيّة والعاجيّة المترفة في ضوء السراج.

من الواضح أن الهدف من هذا أن يكون حديثًا رسميًا. بيدَ أن ماخاون يبدو مطمئنًا، وهو يتجول مُشعلًا المزيد من السُرُج، لكن أيضًا، بإجماع الآراء، هو يقضي الكثير من الوقت في هذه الغرفة، ويُزعم أنه في هذه الأيام يتمتع بوصول إلى أجاممنون أحسن من أيّ ملك.

يضع أوديسيوس يده على قلبه، ويُمعن في الانحناء، ويركع كالخاس، ويلمس قدم أجاممنون؛ يشعر بأصابع قدم الرجل العظيم تنكمش، ويعرف أن أدويسيوس وماخاون يتبادلان النظرات من ورائه، محتقرين الطريقة الطروادية في إظهار الإجلال لقائد. هذا لا يُعجِب الإغريق، فهم يرونه أمارة عبوديّة، في حين تُصوّرهم منزلتهم الشريفة الخاصة على أنهم رجال أجلّاء وجُدراء، وأحرار وفحول. يا لهم من حمقى! يتراجع إلى الظلال، ويستقر لينصت. كان متحرّقًا ليسمع ما لدى أوديسيوس، لكن ليس بوسع أحد أن ينطق قبل أن يتكلم أجاممنون.

بينما ينتظرون، يجول كالخاس بنظره حول الغرفة، ولسانه يرفرف خارجًا ليرطب شفتَيه. يلاحظ أن المرآة البرونزيّة المدفوعة بعيدًا إلى الجدار مُغطّاة بالأسوَد، كما تكون المرايا غالبًا بعد وفاة حديثة. تأتي العادة من الخرافة القائلة: «إن المرايا أبواب، يمكن للموتى أن يدخلوا عالم الفانين عبرها مرة ثانية». إذن، أجاممنون يخاف الموتى؟ حسنًا، ثمة الكثير منهم ليخافهم، فالشبان الذين تمتد حيواتهم بأكملها أمامهم لا يهبطون إلى الظلمة مصالحين. أهذا ما يخشاه؟ غضب الشباب المخدوع؟ لا، في الغالب ليس ذلك، بل الأكثر رجحانًا أن ثمة رجلًا واحدًا بعينه يخشاه.

يقول أجاممنون:

- كان خيرًا لو متُّ في طروادة من أن أحيا كما أحيا الآن. إن بريام لينام أحسن من نومي!

- أجل، لكنك لم تكُن لترغب بالانضمام إليه، أليس كذلك؟

تخرج كلمات أوديسيوس مبتهجة بطريقة مزعجة، بلا اعتبار لابتئاس أجاممنون الجليّ، بينما كالخاس لا يفكر إلا بالحذر من وقْع كل كلمة.

يواصل أجاممنون: «تراودني أحلام خبيثة»، وصار يخاطب كالخاس الآن، كما لو أنه الشخص الوحيد في الغرفة، ورغم أنه من المُطري أن تكون محط انتباه الملك، لكنه خطير أيضًا.

يقول كالخاس، بتردد: «يبدو أن الكثيرين يحظون بليالٍ كَدِرة. أظن أننا ربما نتساءل كلنا عمّا فعلناه لنُهين الآلهة...».

يقول «نا»، رغم شكّه فيما إذا كان أيّ شخص في هذه الغرفة يعده واحدًا منا. لقد أغضب أجاممنون ذات مرة، لكن آنذاك كان لديه أخيل ليحميه. لا أحد آنذاك كان ليجرؤ على لمسه، ولا حتى الملوك، ولا حتى أجاممنون نفسه، لكن أخيل يرقد تحت التراب الآن، وكالخاس وحده... مرتبكًا، يبدأ بإخبار أجاممنون عن العقاب البحريّ، الذي علِق في موجة مخادعة، عاجزًا عن التحليق بفريسته، لكنه يسرد القصة سردًا رديئًا، ويدفعه خوفه إلى التلعثم بالكلمات، وقبل وقت طويل من إتمامه التأمل -بحذر- فيما قد تعنيه العلامة، يُلوّح أجاممنون بيده مسكِتًا إياه.

- لكننا نعلم كل هذا! نعلم أننا عاجزون عن المغادرة. بحق الجحيم يا رجل، أخبرني شيئًا لا أعلمه.

يقول كالخاس:

- حسنًا، لديّ فكرة أو اثنتان، لكنها ستستغرق وقتًا و...(كفّ عن الثرثرة) ألديك أيّ أفكار أنت؟ أحيانًا تتكلم الآلهة إلى ملك مباشرة.

- هه، لقد حظيت بوقت جزيل لأفكر، وأنا راقد هنا ليلةً بعد ليلة، وفكرتي الأولى: إنه هو.

يومئ ناحية ماخاون، الذي يبدو فزِعًا -كما يجدر به-، لكن عيْنا أجاممنون تحدِّقان عبره إلى المرآة المغطاة، ويقول:

- القماش بلا جدوى لعينة، يحتاج إلى ما هو أكثر من قطعة قماش ليبقى بعيدًا.

يسأل أوديسيوس:

- مَن تقصد؟

- أخيل من غير ريب.

ينطق أجاممنون الاسم على مضض، وبالفعل في تلك اللحظة، يشعر كالخاس بقشعريرة تسري في الغرفة؛ الخوف من الغيبيّات.. من الخوارق، أم أنه.. ربما.. الخوف من الجنون؟

يسأل ماخاون: «ألا تزال تراه؟»، غير أنه مثل أوديسيوس من قبله؛ يخطئ في انتقاء النبرة، فهذا هو الصوت الذي يستخدمه طبيب محترف لمسايرة المريض. وردًا عليه، يحدِّق أجاممنون إليه فقط حتى يشيح ماخاون بنظره.

صار الخوف كثيفًا في الغرفة الآن، وواضحًا وضوح ذفرة الدهن الزنِخ. يسأل كالخاس: «كم يتكرر ظهوره؟»، لكن باحترام، فهو رجل على دهاء يمنعه من ارتكاب غلطة ماخاون، وبأيّ حال، لا يمكنه استبعاد احتمال أن أخيل يظهر فعلًا.

- كل ليلة.. (ويرسم إصبع طاعن البقعةَ بدقة) هناك.

- أيتكلم؟

يهز أجاممنون رأسه.

- لمَ برأيك لا يمكنه الرقاد؟

فيقول أوديسيوس، وبالكاد من غير سخرية:

- حسنًا، لم يكُن بارعًا بالرقاد قط، أليس كذلك؟

ومرة أخرى، يخطئ النبرة، أوديسيوس الذي لا يُخطئ النبرة أبدًا. ثمة شيء ما طائش فيه اليوم، كما لو أنه وبعد عشر سنوات طوال من الإبحار في الرمال المتحركة لنزوات أجاممنون؛ لم يعُد بوسعه مواصلة ذلك وحسب، لكن خير له أن يبدأ بأخذ الأمر على محمل الجد، ذلك أنه مهما تكُن ظهورات أخيل وهميّة، فلا شيء وهميّ في بطش أجاممنون.

يقول أجاممنون:

- أليس الأمر واضحًا؟ لقد وعدتُه بعشرين من أبرع نساء طروادة جمالًا. هذا صحيح، أليس كذلك؟ (يُحدِّق إلى أوديسيوس، الذي يومئ مرغمًا) حسنًا، وحتى الآن وفق حساباتي قد حظيَ بواحدة، وتبدّلت الريح بعد أن ضُحي ببولكسينا.. بعد أقل من ساعة...

يتفق أوديسيوس معه:

- أجل.. كنتُ قد ركبتُ السفينة للتو.

- حسنًا، ثم؟ ألا تظنون أن أخيل كان ليقول: «أين التسعة عشرة البقية؟».

يسترخي أجاممنون في كرسيه، ويغمض عينَيه، وللحظة مُروّعة واحدة، بدا كأنه يستسلم للنوم؛ ربما هو مريض فعلًا. على كل حال، فنبرته لا تُنبئ عن سطوته المعهودة، بل أن صوته لا يخرج حتى كما ينبغي، ومن حيث يقف كالخاس في مؤخرة الغرفة تمامًا، يصعب التقاط بعض الكلمات. هذه نتيجة الساعات الأرِقَة الجزيلة وحيدًا، يتتبع خيطًا من معنى عبر متاهة من خوف. هذا هراء بالطبع، بل أسوأ من الهراء، إنه كفر. كما لو كان بوسع أيّ فانٍ صِرْف -حتى أخيل العظيم- أن يتسبب بهذا الاختلال في الطبيعة؛ إنه صنيعة الرب بكل جلاء، لكن كيف له أن يقول ذلك دون أن يبدو مكذِّبًا أجاممنون، الذي قد ينهض بنفسه في أيّ لحظة من غيبوبته الخَدِرة، ويبدأ بالإصرار على أن المزيد من الفتيات يجب أن يُقَدَّمن قرابين على جثوة قبر أخيل، وأنه لا يمكنه أن يرجو إشباع ذلك الشبح النهِم إلا بالوفاء بوعوده حتى أدق تفاصيلها. كيف يمنعه؟ يعلم كالخاس أنه لن يحظى بأيّ عون من الاثنين الآخرين، فأوديسيوس لا يفكر سوى بمنفعته الشخصيّة، وماخاون لا يمكنه الإصرار على إيمانه الشخصيّ بمواجهة هذا الجنون، ذلك أن ماخاون بلا إيمان. كلاهما رجل عقلانيّ، وسيستهجن الحاجة إلى المزيد من القرابين البشريّة، لكنهما سيجاريان الأمر أيضًا.

دافعًا ماخاون جانبًا، يركع كالخاس، ويضع يدَيه المرفوعتَين على ركبتَي أجاممنون في وضعيّة المتضرع:

- إن ما قد قلتَه لنا مُقلق أشد ما يكون يا سيدي، وربما تسمحون لي بيوم أو اثنين أفكر فيهما به، وأُصلي. أحتاج إلى التأمل في العلامات. قد يكون إله ما يتصرف عبر طيف أخيل. إذا ما كان بمقدوري أن أحظى بقليل من الوقت...

يضرب أجاممنون يدَيه مُبعِدًا إياهما:

- أجل، أجل.. خُذ من الوقت ما تشاء، لستُ واثقًا من أنه أخيل بأيّ حال. قلتُ إن تلك كانت أولى أفكاري. أظن أن كلنا يعلم ما يجري هنا حقًا. أخي، وقبوله عودة تلك المرأة اللعينة.. آلاف من الرجال الطيبين ماتوا،

وكل ما يمكنه التفكير فيه هو نكاح تلك العاهرة. أتعلمون أنه عرض يد ابنته على بيروس للزواج؟ تلك الفتاة كانت موعودة لابني أنا، منذ ولادتها.

يقول أوديسيوس:

- بيروس لن يقبل.

- بالطبع سيفعل ملعونًا، لن يقدر على مقاومة ذلك. خَرْء ضئيل جاحد.

حائرًا، يقف كالخاس، ويتراجع متمنيًا لو يجرؤ على المجازفة بإلقاء نظرة شَطر أوديسيوس، لكن لا بد أن ثمة اشتباهًا بوجود مؤامرة. عيْنا أجاممنون تندفعان من وجه إلى آخر، وفي حالته الذهنيّة، يبدأ الرجال بسهولة بتخيُل مؤامرات غير موجودة. كان على يقين أن أجاممنون يلوم أخيل... والآن، لا فكرة لديه عما يدور الأمر حوله.

وفجأةً، يقف أجاممنون:

- على كلٍّ، الغاية الأخرى لجلبي إياكم إلى هنا.. (موجهًا الكلام إلى كالخاس من جديد) هي أن تزوجوني.

- نزوجك؟

- اللعنة يا رجل! أكانت أمُك ببغاء؟ أجل، تُزوجونني، وأريدكما -يومئ إلى أوديسيوس وماخاون- أن تكونا شاهديّ. ما قولكما؟ (ينقّل بصره بين الوجوه) ابتهِجوا يا جماعة! يُفترض بهذه أن تكون مناسبة بهيجة.

فيقول أوديسيوس بعجالة:

- أجل، بهيجة بالفعل.

ثمة خشخشة في الغرفة المجاورة، وبعد لحظة، يُفتح الباب، وتدخل كساندرا إلى الغرفة في غلالة زرقاء طويلة، ترافقها شرائط فضيّة مجدولة في شعرها، ومن خلفها تأتي امرأة قصيرة ممتلئة ذات شعر بلون القش، واضح أنها خادمتها. تبدو كساندرا خادِرة؛ كاهنة أبولو، واغتُصبت في معبد أثينا، ويسأل الإغريق أيّ إله أهانوا؟ هاك اثنين أولًا، وقبل كل شيء.

يقول أجاممنون: «هيا إذن! زوجونا».

مستغلقًا عليه الكلام، ينزع كالخاس الشريطة القرمزيّة عن رأسه، ويلفها حول معصمَيهما تاليًا الصلاة المعهودة عن ظهر قلب، من غير حاجة إلى أن يفكر فيها، ولا فرق لو فعل، فدماغه خاوٍ تمامًا. بينما يربط العقدة، يلاحظ وجود كدمات حول معصمَي الفتاة (أساور زرقاء)، ويفكر بلا معنى أنها تلائم روبها! جرى تبادل النذور، هي تتلعثم بنذورها، وأجاممنون يلفظ نذوره بصوت جهور واضح وقناعة تامة، رغم معرفته أن هذا الزواج غير شرعيّ، فلديه زوجة بالفعل، ورغم أن أيّ عدد من المحظيات مسموح للملوك، لكن يقتضي العرف أن يكون لهم زوجة واحدة فقط. بمعزل عن أيّ شيء آخر يستولد هذا خطأً واضحًا للخلافة، نظرًا لأن ابن الملكة الأكبر هو دائمًا من يرث. ثم جيء بالكعكة، إلى جانب طبق من النبيذ القويّ. يقتطعون كلهم قطعًا من الكعكة، ويغمسونها بالنبيذ، ويأكلون، رغم أن حصة كالخاس تستحيل سدادة، وتعلق في حلقه. يبتلع أوديسيوس حصته بسهولة، لكنه آنذاك كان ليبتلع أيّ شيء يقدّمه أجاممنون. ومن ثم انتهى الأمر، حفل قصير وعاديّ على نحو مُخِلٍّ بالآداب!

بينما يحلّ كالخاس الشريطة عن معصمَيهما، يفعل ما عاهد نفسه ألا يفعله؛ ينظر مباشرةً إلى وجه الفتاة. وتجيب عيْنا ماعز نظرته؛ اللون الأصفر الفاقع نفسه، منظر الأضحية الخَدِر نفسه، ومن ثم تمر اللحظة، وترجع فتاةً... فتاةً بكدمات حول معصمَيها، فينظر من كثب، ويلاحظ علامات حمراء على جانبَي فمها، كما لو كانت قد كُمِّمَت أيضًا. يا لكساندرا التعِسة! طوال حياتها مُكمَّمة بطريقة أو بأخرى، وأشدها إلحاد الناس. لا خير سيأتي من هذا الاتحاد الأثيم غير الشرعيّ. لا يرجو إلا أن تعفو اللعنة العاقبة عنه، فقد كان عبدًا مأمورًا رغم كل شيء.

يقترح أوديسيوس نخبًا، فيشكره أجاممنون، ومن ثم يحين دور ماخاون. رُفعت الكؤوس، وقُدِّمت التهاني، وجرى تلَقيها، ثم يقول أجاممنون: «والآن اغربوا عن وجهي.. كلكم»، ملوِّحًا لهم تجاه الباب. وبينما يتراجعون خارجين، لمحوه يأخذ بيدِ كساندرا، ويسوقها إلى الغرفة المجاورة.

في الردهة، أرسل ماخاون نفَسه مع نفخة مسموعة: «ما رأيكم في ذلك إذن؟».

ما جعل أوديسيوس يسأل:

- علامَ تحتوي تلك الأشياء التي تعطيه؟ كان نصف نائم!

- لا عيب في جرعاتي المنوِّمة. لا يُفترض بك تناولها بصحبة النبيذ القويّ.

- بلى، وكأنه سيحجم عن الشرب أبدًا!

يقول ماخاون: «للحظة هناك، ظننتُه يتكلم عن المزيد من القرابين... فتيات».

فقال أوديسيوس: «وقد يفعلها أيضًا».

شعر كالخاس بالخوف والسخط على حد سواء. لا يبدو أن أحدًا يسأل لمَ قد يختار أخيل، الذي كان يشمئز من أجاممنون في حياته، الذي لم يقضِ ساعةً بصحبته طوعًا قط، قضاء الحياة الأخرى واقفًا عند رجل سريره.

سأل ماخاون: «إلى أين أودَت بكم أفكاركم؟».

يهز كالخاس رأسه.

يقول ماخاون: «ماذا عن أجاكس الضئيل؟ يغتصب كاهنة عذراء في معبد ربّة عذراء...؟ أليس المُرشح الأول؟».

يقول أوديسيوس: «لا، إنه في منتهى النَفع؛ إذا ما بلغ الأمر مبلغ الحرب مع مينيلاوس، فسنحتاج إلى كل حليف يمكننا تحصيله».

حرب؟ ما زال كالخاس لم ينطق، وإنه ليزداد اقتناعًا بأن الصمت خياره الأفضل. في بعض الأوقات، ليلًا يستلقي صاحيًا، ويشك في إيمانه، وفي أحلك لحظاته، يتراءى له أن كل برحائه فيما يخص مشيئة الآلهة ليست أكثر من مخادعة للنفس. بيدَ أنه الآن، وهو ينصت لهذا الحديث عن «المرشحين الأوائل»، والحاجة إلى التحالفات، يعلم أن ذلك غير صحيح. من غير عنجهيّة، هو يعلم نفسه أنه من صنف مختلف من الرجال، ليس أفضل، هو لا يزعم ذلك، إنما مختلف. يعتقد أن حقيقة حقة تهجع دفينة في مكان ما بين كل هذا، ولن يستطيع الراحة حتى يجدها.

يقول غير متكلف عناء إخفاء السخرية: «إذن، على من يقع رهاني الأفضل؟ على مَن برأيكم يجب أن ألقي اللوم؟».

فيقول ماخاون: «كنتُ لألزم أخيل لو أني مكانك، فهو على الأقل ميت».

يلوّي أوديسيوس قسماته:

- لا، كنتُ لأختار «الخَرْء الضئيل الجاحد».

- بيروس؟

- لمَ لا؟ إلا إن استمتعت بوطء قدمِه عجيزتك؟

يتحركان معًا، يضحكان، ويتبعهما كالخاس على مهل، محصنًا نفسه ليواجه صراعًا آخر مع الريح. لقد انتهت الهدأة التي غالبًا ما تهبط في الساعات القليلة الأخيرة قبل الفجر بالفعل، وبينما يخطو إلى الشرفة، تنفخ هبّات دقيقة خبيثة قذىً من الحصباء في وجهه.

«كنتُ لأختار «الخَرْء الضئيل الجاحد»، إلا إن استمتعتَ بوطء قدمه عجيزتك؟»

بعد أن حدث ذلك مباشرة، كان قد عزّى نفسه بفكرة أن قلة قليلة شهدت الحدث، وإذا ما حالفه أيّ حظ، فستقتصر الثرثرة على مجمع بيروس، وقد تكون محط اهتمام عابر حتى هناك. وبالطبع، بعد كل سنينه في المعسكر، كان يجدر به أن يكون أعقل من ذلك. حقيقة أن أحدًا لم يذكر الأمر أمامه لا تعني شيئًا، ولا بد أنهم جميعًا كانوا يقرقرون على الأمر من وراء ظهره. تجاهله، لكنه عاجز عن تجاهله، إنه يقضمه قاضيًا عليه تدريجيًّا، ليلة بعد ليلة، مثل جرذ في أحشائه. الضرر الذي أحاق بسُمعته حقيقيّ، وفي هذا المعسكر يعيش الرجال ويموتون في سبيل السُمعة. السُمعة أهميّة فائقة. من الخطير أن يعتقد الناس أن بوسعهم معاملته بمهانة، وليس يحطّ من قيمته وحسب، بل هو إهانة للإله الذي يخدمه.

يرفع كالخاس عينَيه إلى النجوم. الرياح تفعل فِعالًا مجنونة؛ تجعلها تحتشد وترقص مثل اليراعات. وبعد بضع ثوانٍ يشعر بالدوار إلى درجة أُجبِر معها أن ينظر إلى الأرض مجددًا. يتمنى لو يمكنه التكلم إلى شخص ما، لكن لا يوجد أحد بمقدوره الوثوق به. هيكوبا؟ أجل.. ربما، وإن كان في الحقيقة ينبغي على الكاهن أن يستمد سلوانه من ربّه وحده، فهذا ما لُقّنه في معبد أبولو في طروادة، رغم أنه لم يأتِ أُكله معه قط، حتى آنذاك؛ دائمًا ما كان يجد سلوانه بين أذرع الغرباء ليلًا، في بساتين بريام، تحت شجراته. لكم يرغب أن يرجع إلى هناك مرة واحدة قبل أن يموت!

مدفوعًا بشيء من الباعث الفطريّ يحاول الصلاة، وطلب الرحمة، وإن كان يعرف أن الآلهة لا تحوز شيئًا منها، ولا سيما الإله الذي يخدمه.

يا سيد النور، اسمعني..

يا ابن الرب، اسمعني..

يا عاقر الظلمة، اسمعني..

لكن الابتهال المعهود منذ زمن بعيد فشل في التسكين. يمشي، ويواصل المشي، راغبًا في إنهاك نفسه قبل أن يرجع إلى الكوخ، حيث يأكل وينام وحيدًا. الضوء يشتد الآن، والنجوم تأخذ في الخبو، حتى في آخر الأمر، ترتفع الشمس من الكتلة المائرة الرماديّة للبحر، صغيرة وصلبة، وباردة كحجر.

25

غيّر موت أمينا كل شيء. أقول ذلك، وأفكر من فوري: «يا للسخف! لا، لم يفعل، لم يغير شيئًا على الإطلاق». في الأيام القليلة الأولى، بدا الأمر كما لو أنها قد غرقت تحت الموج وحسب، غير ملحوظة، دون أن تترك فقاعة حتى خلفها. ذهبتُ إلى كوخ النساء كالعادة، لكني كنتُ مدركة طوال الوقت لذلك الطيف الواهي المحوّم حول أطراف المجموعة، وظللنا على جلوسنا خارجًا في الأمسيّات، غير أنها كانت جلسات تعيسة. ثم ذات مساء، بعد نحو أسبوع من وفاة أمينا، طالبَت هيلي بالموسيقى، وكما هو الحال دائمًا، راحت الفتيات يصرخن طالبات مفضلاتهن، لكن في تلك الليلة، طلب الكثير منهن الأغنية التي غنتها أمينا. لستُ أعلم لمَ تلك الأغنية على هذا القدر من الحزن! ذلك أنها تدور حول فتاة واقعة في حب شاب، احتفال بالحب من غير طيف فراق. وقتما خبَت الموسيقى، جلسنا صامتات للحظة، نفكر فيها. بكَت فتاة أو اثنتان جهارًا، وحتى هيلي بدت لامعة العينَين على نحو يثير الشك.

كنتُ أعاني نومًا مضطربًا، وبعد ليلة أرقة على نحو بارز، نهضتُ وخرجتُ إلى الشرفة برداء نومي، ملقيةً بطانيّةً على كتفيَّ فقط، فنظر عدة من المقاتلين إليَّ بفضول في أثناء مرورهم في طريقهم إلى ساحات التدريب. كانت الألعاب جارية منذ مدة إلى الآن، والجو في المجمع مشدود، يكاد يكون محمومًا من فرط الحماسة، فعدتُ إلى الداخل، وجهزتُ فطور ألكيموس على الطاولة. وجدتُ السرير خاويًا، لكن الأغطية مطروحة جانبًا، فعرفتُ أنه نام فيه. لا بد أنه قد انطلق إلى ساحات التدريب قبل الفجر، كما يفعل مرارًا في هذه الأيام. وقتما دخل، بعد بضع دقائق فقط، رأيتُ شعره لزجًا بفعل العرق، وبعد أن أكل بصمت لبعض الوقت، رفع رأسه:

- لا بد أن المكان موحش عليكِ هنا.

- موحش؟

- حسنًا، تظلين بمفردك...

- إنه هادئ، لكنني بخير، لا بأس.

- إنني أتساءل فقط عمّا إذا كنتِ لتسعدي أكثر بالمعيشة مع بقية النساء؟

أجل، قلتُ في قرارتي، وآنذاك ستنتظرك امرأة أخرى في الغرفة عند نهاية الممر. ذلك أن لديه نساء أخريات، كنتُ أعلم ذلك، فكل الرجال الإغريق يفعلون، وكل الطرواديّين أيضًا، لأقول الحق.

- سأرحل إذا كان هذا مبتغاك، (خشيتُ أن أرفع عينيَّ) لكن المكان مكتظ هناك.

- أهو كذلك؟ (بالطبع لم يعرف، إذ لم يُسمح بدخول كوخ النساء إلا لبيروس) لا أريدكِ أن تكوني متضايقة.

ألقيتُ نظرة سريعة إلى بطني، حيث شعرتُ، وكأن قدمًا دقيقة تحركت، كما لو أنه يستجيب للاهتمام الذي يتلقاه: «ما أخبار سير الألعاب؟»؛ شعشع وجهه على الفور. كانت هذه الألعاب بديل الحرب لدى المقاتلين، وكان التدريب يجري جيدًا.. جيدًا بحق، رغم انسياق الرجال خلف الغلواء أحيانًا، فقد خلع أحد الشبان الحمقى كتف أفضل مصارع لديهم للتو، في دورة تدريب! لكن على الأقل يبدو الجميع مدركًا أنهم إذا ما أرادوا للألعاب أن تستمر، فعليهم الكف عن خوض معارك ضارية كلما خسروا.

استمتعتُ، وأعجبتُ، وتعاطفتُ، وبدا مع نهاية الوجبة سعيدًا. شاهدتُه يغادر إلى ساحات التدريب، ثم وقفتُ مستدبرة الباب، وأغمضتُ عينيَّ. كنتُ وحدي أكثر مما ينبغي بالفعل -أصاب ألكيموس في ذلك-، وزيارات كوخ النساء لم تنفع البتة، لأن الجميع هناك يتكئ عليَّ. كنتُ مضطرة إلى الانتباه لكل كلمة.. لكل تبدُّل في التعابير، ذلك أنني لا يجدر بي الظهور مكتئبة أو مُغتمّة أو فزِعة أبدًا، ولم أمانع ذلك، قبِلتُ به، لكنه يعني أنني لن أقدر على الكون على سجيّتي أبدًا.

«ريتسا»، قلتُ في خلدي. أحتاج إلى رؤية ريتسا، لكن قبل أن أسمح لنفسي برؤيتها، ثمة زيارة متأخرة أخرى، عليَّ إجراؤها.

ظلت هيكوبا صامتة وقتًا طويلًا بعد أن أخبرتُها بوفاة أمينا، ولم يكن ذاك اليوم واحدًا من أفضل أيامها. حسبتُها بدت مثل عنكبوت أرقش عجوز يجلس هناك.

- انتحار؟

- يبدو على البعض الظن أن هذا ما كان.

- لكنكِ لا تفعلين؟

- أحاول ألا أظن البتة.

راحَت ترتجّ من جانب إلى آخر، وقد هزتها الأنباء أكثر مما توقعتُ.

- كانت صديقة بوليكسينيا، أتعلمين ذلك؟

- لا، لم أعلم.

«بينهما شهران فقط»، كانت يداها تُجعّد حاشية غلالتها، وتسوّيها بلا انقطاع، «آه، حسنًا. نهاية حزينة لروح شابة».

يا لها من امرأة تعِسة! لقد شهدَت الكثير من النهايات الحزينة للكثير من الأرواح الشابة. عجزتُ عن تصوّر كيف ينبغي أن يكون شعور بقاء المرء حيًّا بعد موت أبنائه وأحفاده، ثم عندما يظن أن لا شر أخبث يمكن أن يحدث، يفقد بنته الصغرى أيضًا. ما بقيَ لها حقًا سوى الأسى والحنق، وتشهّي الانتقام. شهوة لا أمل لديها مطلقًا في إشباعها.

نظرَت إليَّ، وكانت عيناها حادّتَين كعهدهما في أيّ وقت مضى:

- ما تظنين أنه حدث؟

- أظن أن بيروس قتلها، وإن كنتُ لا أعلم لمَ. لم يكُن مضطرًا إلى ذلك!

- شيء آخر علينا أن نشكره عليه.

لم أعلم ما أقوله في ذلك، لأن الأمر كالتالي: بيروس ابن أخيل، وأخو ابني غير الشقيق، هو العدو. لا يمكن تعرية الأمر أكثر.

بعد وقفة، قالت هيكوبا:

- لقد جاء كالخاس لرؤيتي. لم يكُن قد مر وقت طويل على مغادرته وقتما وصلتِ.

- ما الذي أراده؟

- هذا سؤال كلبيّ[1] للغاية!

تبادلنا ابتسامة.

- لا، جاء ليخبرني أن كساندرا قد تزوجَت.

مجددًا، تذكرتُ كساندرا في يوم وصولها إلى المعسكر؛ انتصارها وهي ترقص حول الكوخ المحشوّ، مدوّرةً مشاعل فوق رأسها، ومناديةً على أمها وأخواتها ليرقُصن في عرسها، ويقينها المطلق في أن زواجها بأجاممنون سيفضي مباشرة إلى موته.

جعَلت هيكوبا تهز رأسها:

- لم أحسب أنه قد يفعلها قط. أعني، كان واضحًا لي أنه مخبول، لكنني لم أخَل أنه سيتزوجها حقًا، فله زوجة بالفعل!

- من الواضح أنه لا يصدق نبوءاتها.

- بكل وضوح!

- أتصدقين أنتِ؟

تزحزحَت بصعوبة:

- أظن أن الكثير منها اعتباطي بالكامل. اعتاد الناس قول إن ذاك كان أبولو ينطق عبرها، لكني عجزتُ عن استشفاف ذلك، وأظن أنها كانت تختلق أشياء لترضي نفسها وحسب. بأيّ حال، لا يشكل ما أظنه فرقًا، أحتاج إلى رؤيتها.

قلتُ:

- حسنًا، هذا ليس يسيرًا، لقد عشتُ في مجمع أجاممنون بعض الوقت، ولم يكُن الخروج من الكوخ مسموحًا إلا بشق الأنفس.

(1) الكلبيّة: هي اتجاه يتميز بارتياب عام في دوافع الآخرين (المترجِم).

- أجل، لكن هذا بالنسبة إلى الإماء. إنها زوجته الآن؛ لا يمكنه إبقاء زوجته حبيسة!

كنتُ أعتقد أنه في الغالب يمكنه، لكنني لاحظتُ كم يعني الأمل برؤية كساندرا لها، لذا بالطبع قلتُ:

- سأحاول.

حاولَت أن تتكلم، لكنها تشردقَت، واضطُرَت إلى اعتصار يدي بدلًا من ذلك.

- أهذا جل ما أراده؛ أن يخبركِ بشأن كساندرا؟

اعتراني الفضول بخصوص الزيارة، لم أفهم ما كان جدواها بالنسبة إلى كالخاس، وأخيرًا بعد وقفة، قالت:

- لا، كان يسألني عن يوم ذهاب بريام لرؤية أخيل.

- أتساءل لمَ يهتم بذلك؟

- أوه! سيكون لديه أسبابه. (كانت غارقة في أفكارها، في ذاكرتها) لم أُرِد لبريام أن يذهب، توسلتُ إليه ألا يفعل. كنتُ واثقة أن أخيل سيقتله، وصدقًا لم أظن أنه سيصمد خمس دقائق حالما يخرج من البوابة، لكنه قال: «عليَّ أن أحاول. ليس ذئبًا، إنه رجل، وإن كان رجلًا، فيمكننا أن نتكلم». نتكلم؟ نتكلم؟ ما كنتُ لأتكلم إليه، بل لأنتزع حلقه بأسناني قبل أن أتكلم إليه. لقد قتل ابني، ولم يكفِه ذلك، لا، كان عليه أن يجره حول الأسوار، ويمزّقه إلى أشلاء أمام الجميع، لم يكُن قتله كافيًا!

- آملُ أنك لم تشاهدي ذلك؟

- لا، جعلهم بريام يأخذونني بعيدًا، لكنه شاهد.. شاهد الأمر برمته، وذهب لرؤيته رغم ذلك. لم يكن ثمة شيء يسعني قوله يمكنه تغيير رأيه. (عادت أصابعها لانشغالها بكُفَّة غلالتها، ورحتُ أراقب يديها، لأنني عجزتُ عن احتمال النظر إلى وجهها) تبعتُه إلى غرفة التخزين. ضوء مشعل، أنا وهو وحدنا، دون أيّ طفيليّ، لذا أمكنني قول ما كنتُ أفكر فيه حقًا. كان يحمل الكأس التراقية، وقد عشق تلك الكأس بكل معنى الكلمة، وإنها لشيء بديع حقًا، لكن لم يشكل ذلك فرقًا، إذ ضُمّت إلى فدية هيكتور بأيّ حال. قلتُ له إنه أحمق، قلتُ له إن أخيل لا يملك

من الرحمة أكثر مما يملكه كلب مسعور، لكنه لم يُصغِ. وفي آخر الأمر اضطُررتُ إلى الاستسلام وحسب. أردتُ أن أمنحه وداعًا لائقًا، لأنني لم أظن أنني سأراه ثانية بعد، فجلبتُ له كأس فراق. (ضحكَت) كان جالسًا في عربة مزرعة، مرتديًا غلالة عتيقة رثّة، وظننتُ أنه لم يبدُ شبيهًا بملك قط. لذا دعيتُ زيوس أن يحيطه بعنايته. قبّلَني، وكان على وشك الانطلاق وقتما قلتُ: «انظر!»، كان ثمة عقابان يحوّمان فوق القصر.. عقابان معًا، لا ترينَ ذلك مطلقًا. قال إن هذا بشير خير، وبالطبع سايرتُه في ذلك. أنا لم أعتقد أنه كذا، لكن هاك، كما ترين، كنتُ مخطئة، وعاد بجثمان هيكتور. كان الأمر أشبه بمعجزة. كل تلك الجراح المُريعة.. كلها اختفت. وبدا كما لو أنه نائم. (توقفَت للحظة.. تتذكر) أوَتعلمين، وقتما حللنا الملاءة، وجدنا أعشابًا غضّة داخلها، لا بد أن أحدهم قد وضعها هناك.

- أنا وضعتُها.

- حقًا؟ (ابتسمَت) ظننتُ ذلك.

واصلنا جلوسنا في صمت بعد ذلك، وأقنعتُها بشرب بعض النبيذ.

«أراد كالخاس أن يعرف ما قاله بريام وقتما عاد. قلتُ له أن يسأل كساندرا، فهي التي هرعت للقائه. أنا كنتُ منهمكة بالتحسُّر على ابني».

الكثير من المرارة في ذلك، وبعض الغيرة أيضًا.. ربما. من الواضح أن كساندرا كانت مقرّبة جدًا من بريام. فربّتُّ على ذراع هيكوبا، ووقفتُ: «سأذهب لرؤيتها بأقرب فرصة».

في الخارج، كانت مباراة مصارعة قد بدأت للتو، وراح حشد غفير هادئ في تلك اللحظة، يشاهد رجلَين يدوران حول الميدان، يُقيّم واحدهما الآخر، وجسداهما المُزيّتان يتلألآن في الضوء البرونزيّ. أخذ الكل ينتظر بأعصاب مشدودة أن تبدأ الجولة، لكن الدوران استمر طويلًا، فصاح أحدهم: «افعل حركة لعينة!». ضحك الرجال الجالسون من حوله، لكن صاحت عدة أصوات أخرى: «أغلِق فمك اللعين!».

في الميدان، في فقاعة صمتهما، تماسّ المصارعان، وراح واحدهما يوثق الآخر بالأرض.

26

بدأتُ وكساندرا بداية غير موفقة، ما لم يكُن خطئي، ولا خطأها.

فتحت خادمة الباب، وساقتني عبر غرفة النوم، حيث وجدتُ كساندرا جالسة على كرسي منقوش ذي ذراعَين تغزل الصوف. عندما وقفَت، واستدارت لتُحييني، لمحتُ عِقدها؛ أحجار أوبال ناريّ في إطار فضيّ. كنتُ مشدوهة إلى حد منعني من الكلام، لكن لا أظن أنني أبَنتُ شيئًا، ذلك أن العِقد كان مِلكًا لأمي، منحها إياه والدي هدية عروس في يوم زفافها، ووقتما سقطت ليرنيسوس، راح لأجاممنون جزءًا من نصيبه من الغنائم، والآن كما افترضتُ، فقد أهداه لكساندرا هدية عروس لها في يوم زفافها هي. حينما حركَت رأسها، استيقظَت أشعة من نار داخل الأحجار حليبيّة اللون، وعجزتُ عن إبعاد نظري عنها، فرفعَت كساندرا يدها إلى العِقد، لكن بدا بعد ذلك أنها أخطأت تجاه نظرتي.

قالت: «أجل، أعرف. تبدو بغيضة، أليس كذلك؟».

كنتُ حائرة، حتى أدركتُ أنها تشير إلى حروق الحبال حول معصمَيها.

- يبدو على الناس الظن أنني جُرِرتُ أركل وأصرخ إلى سرير أجاممنون، لكن الأمر لم يكن كذلك البتة. (وثبّتَت عينَيها الصفراوين المُجفّلتَين عليَّ) فقد رحتُ طواعية، وذلك لمعرفتي أنه كلما تعجّل حدوث الأمر، تعجّل موتُه.

- أأخبرتِه بذلك؟

- لا، لم أقدر. لم يكُن ذلك ليشكل فرقًا بأيّ حال، فلا أحد يصدقني. (كانت يداها مشغولتَين بترتيب الحلويات في طبق، وبعد انتهائها من عرض رضاها، رفعَت رأسها) تقتلنا زوجته، كما تعلمين.

- حقًا؟

- أعني، عندها كل الأسباب... لا يمكنكِ لومها. أتعلمين ماذا فعل؟

هممتُ بقول:

- أجل.

غير أن كساندرا تجاهلتني، وواصلَت:

- لقد ضحّى بابنتهما، وكانت مكيدة، فقد أخبر أمها أن البنت ستُزوج لأخيل، وتعلمين أن هذا وفاق رائع، لذا هرعوا كلهم يحيكون الأثواب قبل ذهابهم إلى المعسكر في أوليس، فقُدِّمَت قربانًا على مذبح أرتميس ابتغاء منح الأسطول رياحًا طيبةً إلى طروادة. (ابتسمَت، وللحظة رأيتُ فيها شبهًا من هيكوبا) كنتُ لأقتل هذا الوغد، أمَا كنتِ لتفعلي؟

- بلى.

- أوه! يسرّني أننا نتفق، عرفتُ أننا سنفعل.

لم أقابل أحدًا مثل كساندرا قط؛ ذلك المزيج الغريب من الطفوليّ -الذي يبدو شبه إعاقة أحيانًا-، والمُخيف. لم أكُن واثقة كيف أرُد.

قدّمَت لي طبق الحلويات: «جربي واحدة من هذه، إنها طيبة بحق»، فأخذتُ واحدة، ثم استرخَينا في كرسيَينا، وفمّانا ملأهما خليط لزج جعل الكلام محالًا تقريبًا. وقتما تدبّرَت أخيرًا فكّ عقدة فكّيها، قالت: «أخال أن لدى عائلتي أسبابًا تجعلهم ممتنين لك، صحيح؟».

هززتُ رأسي وحسب.

- حاولتِ دفن أبي؟

قلتُ بنبرة قاطعة:

- لستُ أنا، إنها أمينا. وقد دفعَت ثمن ذلك أيضًا.

لم تكن عندي أيّ رغبة في أن أُشكَر على فعل زللتُ فيه ليس إلا.

واصلنا الدردشة بينما مزجَت النبيذ. كان ثمة شيء مُلغز فيما يخص هذه الحادثة، وقد استغرقني استنتاجه بعض الوقت. بدا أن كساندرا لا تحتفظ بأيّ ذاكرة عن لقائنا السابق. لعله من طبيعة الهوَس أنها تعجز عن تذكُّر أيّ

شيء قالته أو فعلته في إحدى نوباتها، أو أنها تذكّرَت تمامًا، لكنها اختارت عدم الحديث عن ذلك.

ناولتني كأس نبيذ:

- أظنك ذهبتِ لرؤية أمي، صحيح؟

- صحيح، عدة مرات.

كان من الطبيعيّ لها في هذه المرحلة أن تسأل عن حال أمها، لكنها لم تفعل، فقلتُ بتردد:

- أنا على يقين من أنها ستُحبّ رؤيتك.

- واثقة أنها ستفعل.

- حسنًا، إذن لمَ...؟

- لا أظن ذلك. سأذهب، لن أدعها ترحل دون توديعها، لكن لم يحِن الوقت بعد.

- لمَ الأمر على هذه الصعوبة؟

لم أتوقع أن تجيب، وفي الحقيقة ندمتُ على طرح السؤال قبل أن تغادر الكلمات فمي، لذا تفاجأتُ وقتما اندفعَت مباشرة:

- لم يكُن، بادئ ذي بدء، ليس قبل مجيء هيلين، وآنذاك بدأ يسوء حقًا. كما تعلمين، راقبتُهم يدخلون عبر البوابة؛ باريس وهيلين. رأيتُ أبي يرحب بها، وعرفتُ ما سيحصل. لم يكُن واجسًا مبهمًا، أو شيئًا من هذا القبيل، بل رأيتُ طروادة في سعير، لذا خمشتُ وجهها. ظننتُ أنني إذا ما قدرتُ على تعكير حُسنها، وإن كان لعدة أيام فقط، فسيرجع باريس إلى صوابه، وأبي والجميع، وسيرجعونها إلى زوجها حيث تنتمي، وبدلًا من ذلك، طُردتُ أنا، وكان ذاك مبدأ كل شيء. على ما يبدو، كنتُ أتهجّم على أيّ شخص يقترب مني، جاءت أمي وحاولَت تهدئتي، وتهجّمتُ عليها أيضًا، فحبسوني. تعيَّن عليهم إطعامي قسرًا، لم أُرِد أن آكل، لم أُرِد نهدَين بارزَين فسيحَين سمينَين، مترجرجَين مثل هيلين. كان عندي نساء يعتنين بي، حراس في الواقع، لكن لم يُسمَح لهن بضربي.

لم يحتَجن إلى ذلك، فقد فعلَتها هيكوبا، بفرشاة شعر. اعتدتُ الظن أنها كانت تكرهني، لأنني كنتُ الندبة الوحيدة في عائلتها المثاليّة.

تحسنتُ، لكن عندما عدتُ إلى المنزل وجدتُ كل شيء يتمحور حول هيلين. باريس مسلوب العقل، وهيكتور ليس أحسن بكثير، حتى أبي! كانت قادرة على التلاعب به كما تشاء. ذاع بعض الكلام عن تزويجي، وأظن أنهم أعدّوا ساذجًا بائسًا ما بالفعل، لكن حينذاك حدث الأمر مرة ثانية، وثالثة. وبحلول ذاك الوقت، صار واضحًا أن لا أحد سيتزوجني. حتى كون المرء صهر الملك بريام لم يقدر على طمس وصمة الجنون، فمن يرغب بذلك في عائلته؟ لذا قررت هيكوبا أنني سأصير كاهنة.. كاهنة عذراء. وافق بريام على ذلك (كان يوافق على أيّ شيء تقوله تقريبًا)، وأُرسلتُ مرغمة إلى المعبد.

- كم كان عمرك؟

- أربع عشرة.

- لا بد أنك اشتقتِ إلى عائلتك؟

- ليس حقًا، لم أشتَق إلى أمي من غير ريب! اشتقتُ إلى أبي، ولهيلينوس، لكن بالطبع، من وجهة نظر هيكوبا، فقد حُلَّت المشكلة. والآن، عندما أعاني نوبات الجنون، صار بوسعها القول إنه مس أرسله الرب، وهذا أكثر قابليّة للاحترام بكثير. لو أنني كنتُ مؤمنة، لربما سهّل ذلك الأمور، لكنني لم أكُن، ليس آنذاك بأيّ حال. لا بد أنك تعرفين القصة؛ كيف قبّلني أبولو، ومنحني عطيّة النبوة، ثم وقتما رفضتُ النوم معه، بصق في فمي ليضمن ألا يصدقني أحد أبدًا؟

- لقد سمعتُ بالقصة، أهي حقيقة؟

- بالطبع، هي كذلك.

كنتُ أبدأ بالتمرد على كوني الجمهور في مونولوج لا نهائي مبرر للذات:

- لستُ واثقة حتى من ماهيّة النبوة.

- حسنًا، هاكِ مثالًا في غاية البساطة: أنا لم أتحرك عن هذا الكرسي مذ صحوتُ، وبكل تأكيد لم أنظر خارج الباب، لكنني رأيتُك تمشين على طول الشاطئ، وعرفتُ أنك قادمة إلى هنا.

- إممم.

- لا تبدين مقتنعة؟

- حســـنًا، لقد جئتُ أسألك سؤالًا، وكنتُ أعرف الإجابة قبل أن أصل. أهذه نبوة؟

- لا، هذه ألمعيّة. (كانت تنظر إليَّ باهتمام مشغوف، تراني بحق، كما ظننتُ للمرة الأولى) أنت تراقبين الناس، صحيح؟

- انظري، إنها أمك، وقد تزوجتِ للتو، أسيكون من بالغ المشقة أن تسيري بضع مئات من الياردات؟

- لا فكرة لديك عن مدى المشقة.

بدأتُ ألمح حقيقة كساندرا، فمثل أثينا، التي انبجسَت بكامل عدتها وعتادها من رأس زيوس، هي لا تدين بحياتها لأيّ شيء حدث بين ساقَي امرأة، لذا يمكن تنحية هيكوبا جانبًا باعتبارها خارجة عن الموضوع. لقد كانت -على الأقل في ذلك السياق- نقيضتي.

بأيِّ حال، لقد حصلتُ على جوابي، فوضعتُ كأسي -وبالكاد كنتُ قد لمستُ النبيذ-، ورحتُ أهمُّ بالوقوف وقتما طُرِق الباب. وضعَت كساندرا يدًا مانعةً على ذراعي:

- لا تذهبي الآن؛ سيكون الطارق كالخاس، وسيرغب بالتكلم إليك بقدر رغبته فيه إليَّ.

أمكنني سماع الخادمة عند الباب تُدخِله:

- لا يسعني التفكير في ما قد يرغب بالتكلم إليَّ بشأنه.

- لا يمكنكِ؟ بالنسبة إلى فتاة حاذقة مثلك، كنتُ لأحسب أنه صار واضحًا الآن.

لدى دخول كالخاس إلى الغرفة، شممتُ هواءً مالحًا على جلده، مشوبًا بالرائحة الأقل دماثة للعجين الأبيض الذي لاطه على وجهه. كان يرتدي أردية الكاهن، ويحمل عصا مزيّنة بشرائط قرمزيّة؛ تملقًا لدور كساندرا الجديد بصفتها زوجة أجاممنون، أم أنها تذكرة مرئيّة لكهانتهما المشتركة؟ كانا قد تتلمذا في نفس المعبد، بل حتى ناما في نفس الغرفة الصغيرة، رغم السنين

العديدة بينهما، فلا بد أن كالخاس أكبر بخمس عشرة سنة بلا جدال. ومع ذلك، فهما يشتركان بتلك التجربة. بعد أن جلس وقُدِّم له النبيذ، راحا يستغرقان في الذكريات عن الكاهن الذي درّب كلَيهما، ثم -وبقدر أعظم بكثير من الحنو، كما خُيّل إليَّ- عن الغربان التي كانت تُبقى في أرضيات المعبد، عاجزة عن الطيران، لأن ريشات أجنحتها قد قُصت. كانت هذه الطيور رفيقة طفولتهما، صديقتهما. وكانا الطيور نفسها؛ غرابَين يعيشان منذ وقت طويل في الأَسر، حمل كلٌّ منهما اسمًا، وتفرّد بشخصية، وحيَل بسيطة يفعلها. بينما أنصتُّ، تشكلَت في رأسي صورة طفلَين وحيدَين، رُحِّل كلٌّ منهما عن منزله قبل أن يكون مستعدًا للرحيل. كان ثمة شيء ما مهيِّج للمشاعر على نحو لا يُصدَّق في هذا، وقد غيّر سلوكي تجاه كليهما، لا سيما تجاه كالخاس، الذي لطالما ظننتُه محتالًا. لم أعُد واثقة تمامًا في ذلك الآن.

بعد وقفة وجيزة (كان كالخاس مكرسًا اهتمامه للحلويات، متناولًا إياها بمعدل مدهش) بدأ الحديث عن زيارة بريام لأخيل، ليلة ذهابه إلى معسكر الإغريق لاستجداء استعادة جثة هيكتور، وقال مخاطبًا كساندرا:

- أعتقد أنك تكلمتِ إليه حالما عاد، صحيح؟

فقالت كساندرا:

- أجل.. قضيتُ الليل بطوله على المتاريس، عاجزة عن رؤية أيّ شيء، حتى وقتما بدأ الصبح بالانبلاج، بقيتُ عاجزة عن الرؤية لوجود غشاوة سميكة، لكن حينئذ ظهر بغتة يقود عربة المزرعة العتيقة المتداعية تلك، ركضتُ للقائه، جعلتُهم يفتحون البوابات، ثم تسلقتُ إلى مقعد السائق بجواره، وقُدنا إلى المدينة معًا.

فقال كالخاس:

- منتصرَين.

فاحتدَّت كساندرا:

- بالكاد يكون نصرًا؛ كان معنا أخي يرقد ميتًا في الخلف.

انحنى كالخاس قليلًا اعتذارًا عن قلة لياقته ربما:

- هل ذكر بريام أخيل؟ أعني، هل تكلم عن استقبال أخيل له؟

- أوه! لقد أطنب في مديحه. قال إن أخيل مشى بحذاء العربة، ورافقه حتى خرج سالمًا من المعسكر، وعلى ما يبدو، فآخر ما قاله أخيل كان: «عندما تسقط طروادة، حاوِل إيصال رسالة إليَّ، وسآتي إذا قدرت»، وبريام قال: «بحلول الوقت الذي تسقط طروادة فيه، ستكون في هاديس مع الموتى»، فضحك أخيل فقط، ثم قال: «حسنًا، إذن لن آتي، صحيح؟ مهما ترسل من رسُل».

لم أعرف بمحادثته الأخيرة حتى الآن، لكن أمكنني سماع أخيل يقول ذلك، وسماع ضحكته.

التفتَ كالخاس إليَّ:

- تقول هيكوبا إنك كنتِ حاضرة في تلك الليلة، صحيح؟
- أجل، لكن قبل أن أجيب عن أيّ سؤال، أود أن أعرف قصْد الحديث.

أَبَدا مأخوذًا على حين غرة بعض الشيء؟ كانت قراءة تعابيره خلف قناع الطلاء أمرًا بالغ العسر.

قال:

- لقد تكلمتُ إلى هيكوبا، وقد أخبرَتني كيف مات بريام. كانت هناك، أتعلمين ذلك؟ رأت الأمر برمته. قالت إنكِ ما كنت لتقتلي خنزيرًا، كما قتل بيروس بريام.
- أعرف، لكن أيمكنني القول -تبريرًا لبيروس- إن بريام كان مسلحًا ومستعدًا للقتال، وكان ليفضل الموت بتلك الطريقة على تركيعه بالقوة أمام أجاممنون.
- أجل، هذا صحيح، لكنه لا يكفّ غضبي. فقد كان مسنًّا، وبجهد ومشقة يمكنه الوقوف في درعه، وذُبح، وهُلل للرجل الذي فعلها على أنه بطل. إنه ليس بطلًا، إنه علج تافه أثيم. ويمكنكِ وسم أخيل بالكثير من الأمور الفاسدة، لكنه لم يكن كذلك قط.

رأيتُ غضبه، وبالكاد أمكنني تلافي رؤيته، كان بالحرف الواحد يصدع الطلاء على وجهه، ونسيتُ في تلك اللحظة، أو وضعتُ جانبًا مقتي الغريزيّ

لكساندرا، وشكّي في أن كالخاس يفصل نبوءاته لمصلحته الشخصيّة. كنا محض ثلاثة طرواديّين يتكلمون في غرفة في قلب معسكر العدو.

قال كالخاس: «انظري، النقطة التي علينا إرساؤها هي: ما كانت طبيعة العلاقة بين بريام وأخيل؟ ذلك أنه -كما تعلمين- من الجائز تمامًا أنهما قد عقدا صفقة ليس إلا. «هاك الفدية، تفقدها»، «حسن جدًا، جيدة بالقدر الكافي، هاك الجثة»، وكانت هذه نهاية الأمر، لكنه أكثر من ذلك، وإذا ما كان أخيل قد استقبل بريام ضيفًا عليه، فقد تشكلَت بينهما علاقة صداقة ضيافة. وما إن تتشكل العلاقة، تؤول من الأب إلى الابن، فهي موروثة. إذن، إن كان أخيل وبريام صديقَي ضيافة، فبيروس وبريام صديقا ضيافة أيضًا، وهذا يجعل وفاة بريام...».

قالت كساندرا: «جريمة قتل».

رفعتُ رأسي، ورأيتُها تحدِّق إليَّ بهاتَين العينَين الصفراوين اللامعتَين.

«إذن، أتعِينَ الآن لمَ من الضروريّ إجابة أسئلة كالخاس؟».

أومأتُ برأسي، واتخذتُ دقيقة لأنظّم أفكاري، ورحتُ أسرد عليهم قصة ذلك المساء، لكن في نفس لحظة تكلمي أخذَت قصة أخرى أكثر تعقيدًا تطفو على سطح ذهني. كانت تلك الليلة الأهم في حياتي؛ الوقت الذي تغير فيه كل شيء. أولًا صدمة رؤية بريام وحيدًا وأعزل في غمرة الأعداء. تلا ذلك شعور مُدوّخ بالإمكانيّة، فتوسلتُ إلى بريام أن يأخذني معه وقتما غادر، واستعطفتُه، لكنه رفض بحزم. قال: «إن الحرب قد بدأت وقت ما أغوى ابنه باريس (والبعض يقول اغتصب) زوجة مينيلاوس؛ هيلين، دون اعتبار لقوانين الضيافة، لذا لن يستغل ضيافة أخيل بسرقة امرأته»؛ كان هذا الجواب الذي نلتُه، لكنني لم أستطع قبوله، ولم أفعل، فاختبأتُ بجوار جثمان هيكتور في العربة، بينما راحت تتدحرج إلى البوابات، مدركةً طوال الوقت أن أخيل يسير حذاءها، لا يبعد إلا بضع أقدام، ومن ثم...

ومن ثم فكرتُ بالأمر أكثر؛ أمن العقلانيّ حقًا أن أذهب إلى طروادة في حين يعلم الجميع، بما فيهم بريام، أنهم قد خسروا الحرب؟ أمن العقلانيّ تحمُّل نهب مدينة أخرى، واستعباد ثانٍ؟ كانت هذه هي الأسباب التي منحتُها

لنفسي لعدم الهروب.. للعودة إلى ردهة أخيل وسرير أخيل، وأعتقد -وإن كان هذا أمرًا لا يمكن لأيّ امرأة التيقن منه أبدًا- أني حملتُ طفلي في تلك الليلة.

لم يكن كالخاس بحاجة إلى معرفة أيٍّ من ذلك، فهو ليس مهتمًا بي، إلا باعتباري شاهدة، لذا بصفتي شاهدة منحَته ما أراده بالضبط، لا أكثر ولا أقل.

«كنا نقترب من نهاية وجبة عشائنا وقتما فُتح الباب، ودخل شخص ما. رفعتُ نظري، فرأيتُ أنه بريام، كان مرتديًا ثياب فلاحٍ قرويٍّ، لكنني تعرفتُه من فوري، أما أخيل فلم يفعل، ذلك أنه لم يكُن قد التقى بريام قبلًا، ومن ثم، حينما أدرك من يكون، تميز غيظًا؛ قال: «كيف دخلتَ بحق الجحيم اللعين؟»، فقال بريام شيئًا من قبيل: «لقد أرشدني الرب»، فزاد ذلك من غيظ أخيل أكثر، واتهم بريام برشوة الحراس، وبحلول هذا الوقت كان آخرون قد اكتشفوا هويته. احتشدوا مقتربين، وأمَرهم أخيل بأن يتراجعوا خلفًا. ركع بريام عند قدمَي أخيل، وقبض على ركبتَيه، وقال: «أنا أفعل ما لم يفعله رجل قبلًا قط؛ أُقبِّل يدَي الرجل الذي قتل ابني!»».

نقلتُ نظري بين كالخاس وكساندرا، متسائلةً عمّا إذا كان بوسع أيّهما فهم هول تلك اللحظة وجبروتها.

«كان بمقدور أخيل قتل بريام في لحظتها، لكنه اختار ألا يفعل. وبدلًا من ذلك، دعاه إلى غرفة جلوسه. أوه! وأذكر أنه بدّل بثيابه غلالة بسيطة، لأنه من الجليّ أن بريام يرتدي ثياب فلاحٍ قرويٍّ، ثم جلسا، وأكلا معًا. لم يجلب بريام سكينًا معه حتى، فمسح أخيل سكينه الخاصة، وأعطاه إياها من فوق الطاولة. لم أخدمهما بالفعل.. البتة؛ فقد صب أخيل النبيذ (أنا وضعتُه على الطاولة فقط)، وكان أفخر نبيذ امتلكه، واقتطع اللحم لبريام، حتى إنه حمل له الطاس ليغسل يدَيه. ثم، حسنًا، بدا جليًا أن بريام منهَك، فأمرني أخيل بتجهيز سرير له. أذكره يقول: «خُذي الفراء عن سريري لو أردتِ، لا أريده أن يبرد». ومن ثم في الصباح التالي (كنتُ قد أخذتُ الماء لبريام ليغتسل) وجدتُ أخيل وقد استيقظ مبكرًا، وتسربل في درعه الكاملة. أخبر بريام أنه كلما تعجّل في الخروج من المعسكر كان أفضل. قال إنه لا يريد لأجاممنون أن يجده هناك، وقال بريام شيئًا يشبه: «لكن أكنتَ لتقاتل من أجلي؟»، وقال

أخيل: «أوه! نعم.. سأقاتل. لستُ بحاجة إلى طرواديّ ليعلمني الواجب تجاه ضيف!»».

انحنى كالخاس إلى الأمام:

- أواثقة أنه قال: «الواجب تجاه ضيف»؟

- بالحرف الواحد.

- أسمع أيّ شخص آخر هذا؟

- لستُ أدري، كان ألكيموس وأوتوميدون على الشرفة خلفه تمامًا، لكن لا يمكنني الجزم فيما إذا سمعا أم لا. بيدَ أن بوسعهما التأكيد على أنه مشى حتى البوابة مع بريام، واطمأن أنه خرج من المعسكر بأمان.

عندما فرغتُ، أطلق كالخاس نفَسًا صاخبًا، واسترخى على كرسيه، ناظرًا إلى كساندرا، ثم عائدًا بنظره إليّ.

فقلتُ:

- إذن، تقول إن موت بريام جريمة قتل، أتظن حقًا أن الإغريق سيقبلون بذلك؟

- أظن ذلك ممكنًا. انظري، دائمًا ما يقول الناس إنهم يريدون تفسيرًا، لكنهم لا يفعلون، ليس حقًا. إنهم يريدون شخصًا ما ليلقوا اللوم عليه.

- أحسب أنهم سيفضلون إلقاء اللوم على مينيلاوس.

- أوه! بالطبع سيفعلون، وإنهم ليرغبون برؤية هيلين تُرجَم حتى الموت، لكن ذلك سيعني نشوب حرب.

- إذن ستختار بيروس بدلًا منه؛ بطل طروادة، ابن أخيل؟

- قلتُ إني أظن ذلك ممكنًا. لم أقُل إنه سيكون يسيرًا.

غرق كالخاس في الصمت، وبدا جليًا أنه يفكر عميقًا. كان رجلًا غريبًا، معقدًا منساقًا، وشعرتُ رغم ذلك بأن ولاءه لبريام خالص، ومع كل غرابته، كان مثيرًا للإعجاب، رغم أني لم أعتقد -ولو للحظة- أنه سينجح في هذه الخطة، فبيروس يتمتع بنفوذ مبسوط، وسؤدد مشهود، فهو بطل طروادة، ولا يمكن التغلب على ذلك. وثمة خلل جوهريّ في الادعاء الذي يبنيه كالخاس،

ذلك أن لديه رواية كساندرا عن عودة بريام إلى طروادة، وذكرياتي عما قاله أخيل، وفعله في تلك الليلة؛ كلتانا امرأة، وشهادة المرأة لا تُعتبر مكافِئة لشهادة الرجل. في ساحة القضاء، إذا ما اختلف رجل وامرأة تُقبَل رواية الرجل عن الأحداث بشكل شبه دائم، وذلك في ردهة المحكمة، فكم سيكون ذلك مضاعفًا في هذا المعسكر، حيث كل النساء إماء طرواديّات، والقانون الحقيقيّ الوحيد هو القوة! كان على كالخاس حمل أوتوميدون وألكيموس على تأييد كل ما قلتُه، غير أني قضيتُ معظم الوقت وحدي مع بريام وأخيل، لأن أخيل ظن بريام سيكون أكثر اطمئنانًا بوجود فتاة طرواديّة منه في وجود مقاتلين إغريق مدججين بالسلاح. أمِلتُ -على أقل تقدير- أن يقول ألكيموس وأوتوميدون الحقيقة بخصوص ما يعرفانه، لكنني شككتُ أن ولاءهما لبيروس، باعتباره ابن أخيل، سيطغى على كل شيء آخر.

اقتحمَت كساندرا أفكاري، فقالت: «أريد رؤية أبي مدفونًا، أريد رؤية بيروس يحبو على يديه وركبتَيه فوق التراب».

فجأةً، أردتُ الابتعاد عن الجو الخانق في هذه الغرفة. وقفتُ بغتة، ولم تحاول كساندرا استبقائي هذه المرة، رغم أنها رافقتني إلى الباب. قالت: «سآتي لرؤية أمي، إنما ليس بعد». شعرتُ أن الوعد بمنزلة مكافأة، تربيتة على الرأس لكوني فتاة صغيرة جيدة. يا لها من ساقطة متنازلة! كانت ترى نفسها على أنها في مركز الشبكة التي تُغزل حول بيروس، لكنني ظننتُ أنها تخادع نفسها في ذلك. كانت كساندرا بنت أبيها بكلّيتها، بعيدة بسلوكياتها وخبرتها عن كل النساء الأخريات تقريبًا إلى حد تعجز معه عن تقدير المدى الكامل لسطوة هيكوبا، لكن كالخاس مدرك لها، وكان ثمة شيء ما في صوته كلما ذكر هيكوبا؛ رقة لم تكُن موجودة بقية الوقت من غير شك. لعله أحبها في شبابه، ولعله في مكان ما تحت طلاء الوجه، تحت الكلبيّة والتآمر، لا يزال يفعل.

27

في تلك الليلة، كما صارت العادة، قدمتُ وأندروماخي النبيذ على العشاء. وصلنا في وقت مبكر قليلًا، وبدأنا بصب المشاريب الأولى. كانت المشاعل موقدة، والأسل الغض مُسجّى، وطقم السفرة الذهبيّ يبرق على طاولة بيروس. لاحظتُ أنه يشرب من الكأس التراقية، وكنتُ قد رأيتُها قبلًا بالطبع، وقتما كان أخيل حيًّا، في الأيام العشر الأخيرة قبل وفاته، لكنني رأيتُها هذه المرة بعينَين جديدتَين، لأني عرفتُ أن بريام كان يحملها وقتما حاولت هيكوبا إقناعه بألا يذهب إلى معسكر الإغريق، ألا يلقي بنفسه إلى رحمة أخيل غير الموجودة.

بينما كان الرجال يأكلون ويشربون، أخذت المشاعل تتقد والحرارة تتصاعد، وبقيتُ أنظر عبر الطاولة إلى أندروماخي. بدت في غاية النحل والشحوب، وظننتُ أنها أردأ حالًا مما كانت مذ توفيَت أمينا، لكنها بدت تتدبر أمرها، وإن لاحظتُ أنها لا تزال تتحاشى النظر إلى الرجال الذين تخدمهم. كانوا يتكلمون عن الألعاب: أيُّ حكم أعمى البصر (كلهم)، فريق من كان قمامة، من يرجِّح فوزه في سباق العربات. بدا أن الألعاب تجري على خير ما يرام، وجرت معركة ضارية واحدة بعد مباراة مصارعة أصابت أحد المتسابقين بعجز دائم، لكن لم تحدث قلاقل حقيقيّة أخرى. سُررتُ لأجل ألكيموس، الذي بدأ يزداد ثقة من يوم لآخر.

وقتما آنَتْ مغادرتنا، أُمِرت أندروماخي بالبقاء، فألقَت نظرة يائسة من فوق كتفها بينما توارت في غرفة الجلوس. قررتُ الذهاب، وزيارة كوخ النساء، وبحلول وصولي إلى هناك، كانت الفتيات قد جهّزن طبخة دجاج بالليمون الحامض والثوم، في غاية البساطة، لكنها شهيّة، وقد ازددن مهارة في هذا فعلًا، ثم جلسنا خارجًا لنأكل. كانت مايري إحدى الفتيات اللاتي ما

زِلن يُقلِقْنني، إذ كانت كتلة صامتة مكتئبة. وبالتأكيد، كنا نحن النسوة نميل إلى رؤية بعضنا بعينَي آسِرنا، وأخشى أنني آثمة بذلك مثل غيري. لمَ بحق الجحيم اختارها بيروس؟ فهي هائلة البدانة، بدينة حد أنها تتهادى كالبطة في مشيتها، وبدا جليًا أنها مستحية من جسدها؛ ذلك أنها ظلت تهدج في المكان بنفس الثوب الأسود عديم الشكل كل يوم مذ وصلَت. وبجوارها جلسَت هيلي، هيفاء شديدة، صلدة بهية، تشع نضارة، ومع ذلك، رغم التناقض الصارخ، بدَتا أنهما قد عقدتا صداقة. على أقل تقدير، كانت مايري تتكلم إلى هيلي بين الحين والآخر، ما كان أكثر مما فعلَته مع أيٍّ سواها.

أخيرًا، رُفعت الأطباق، وشُيّد موقد النار، وأُخرجت الطبول والمزامير. كانت قيثارة ألكيموس قد أُعيدت إليه في أفضل حال -حرصتُ على ذلك-، غير أنه وبكل لطف وجد آلة أخرى أقل روعة لتستخدمها الفتيات. رفعَت واحدة من الفتيات الأهدأ يدها، وقالت إن بوسعها العزف بعض الشيء، «لكن ليس ببراعة أمينا». مرّ شبح -تمكنتُ من رؤيته تقريبًا- على المجموعة عند ذكر اسمها.

ومن فورها، وثبت هيلي واقفة، وراحت تصفق بيدَيها جذبًا للانتباه، وتعلن أن كلنا سيتعلم أغنية جديدة؛ أغنية شُرب. راحت إحداهن تنظر إلى الأخرى؛ النساء لا يغنون أغاني شُرب، لذا تابعت هيلي، وتعيَّن على جميعهن رفع كؤوسهن، وشُرب عبة طويلة كيّسة أولًا.

كانت أغنية شُرب حقًا من صنف الأغاني التي اعتاد البحارة غناءها في ليرنيسوس في الحانات والمواخر، على امتداد صدر المرفأ.

بعد المقطع الأول قهقهت الفتيات، وظهرت الصدمة على بعضهن، لكن بدا أن جميعهن راغبات بتعلم الأغنية. كانت تُسمَع إصدارات من هذه الأغنية تُغنَّى في كل أرجاء المعسكر، لا تتطابق اثنتان منها، وإن دارت كلها حول امرأة ذات نهمٍ للعلاقات الحميمية، ولم تتوقف إلا وقتما أقحم أحدهم رمحًا في أسفلها. ومن الغنيّ عن البيان أن اسم هذه المرأة.. كان هيلين على الدوام.

أمِلتُ أن تتحلى هيلي بالحصافة لتتوقف قبل المقطع الأخير، فقد مات الكثير من نساء طروادة هكذا، وأعرف أن واحدة من الفتيات كانت قد رأت سلفتها الحامل تُجَر من مخبئها، وتُطعَن بالرمح، لكنني لم أكتشف ما انتوت

هيلي فعله قط، ذلك أنها لم تكُن قد تخطت المقطع الثالث وقتما تقيأت مايري، والتفت الجميع، وراحوا يحدِّقون. جثوتُ بجوارها، ولمستُ جبهتها؛ كانت تتعرق قليلًا، لكن لم أشعر بسخونة زائدة، وتحققتُ أسفل فكّها، فلم أجد تورمًا. قلتُ: «هيا بنا، فلنأخذكِ إلى الداخل».

وجدتُ الأسرّة مُعدَّة سابقًا، فجعلتُها تستلقي، وغطيتُها ببطانيّة. لاحظتُ أن هيلي تحوّم في المدخل، فقُلت: «ستكون على خير ما يرام». لم أقلق بتاتًا، ظننتُ أن اضطرابًا معديًا قد انتابها فقط، ما كان مُفرط التكرر في المعسكر. «مايري.. حاولي أن تحظي ببعض النوم».

لم أرغب تحديدًا بالعودة إلى المجموعة حول النار، إذ أرهقني التخديم في الردهة، وبدأ كاحلاي بالتورم، كنتُ محتاجة إلى سريري. بدأ الغناء مجددًا (أغنية أكثر لياقة نسبيًا، وسرّني سماعها)، فظننتُ أن بوسعي الانسلال. كنتُ في الواقع قد بلغتُ الشرفة وقتما اندفعَت هيلي من الباب خلفي:

- لا يمكنكِ الرحيل وحسب! لستُ أعرف ما ينبغي فعله.

- ستكون على ما يرام. ما عليكِ إلا وضع وعاء بقرب سريرها في حال تقيأت ثانية.

حدَّقت إليَّ:

- لستِ تعرفين، أليس كذلك؟ كيف لك أنتِ ألا تعرفي؟!

وبغتة، كأنما أُلقي عليَّ دلو ماء بارد، عرفتُ، إلا أنكم بالتأكيد قد خلُصتم كلكم إلى ذلك قبلي، أليس كذلك؟ أيمكنني القول فقط دفاعًا عن نفسي: إن الحمل في امرأة بدينة، أولُ حمل، ولا سيما حينما تحاول المرأة إخفاءه، ليس سهل الكشف كما قد تحسبون، لكن لا فرق... لقد كنتُ حاملًا، فكيف أمكنني ألا أرى؟

«بالطبع، سأبقى. عودي أنتِ إلى البقية، وأبقِهم في الخارج قدر ما تستطيعين».

عدتُ إلى الكوخ، وقرفصتُ بجوار مايري. كانت تتعرق فعلًا الآن، وكان وجهها بدرًا مشعًّا بين الأضواء المترجرجة لمشاعل الأسل المتخللة الأسرّة:

«أما زلتِ تشعرين بالغثيان؟»؛ هزت رأسها، وتحركت شفتاها، وتعيَّن عليَّ الانحناء أمامًا لأتلقف الكلمات: «أعرف النهاية».

الحمل؟ حسنًا، لا توجد جوائز لهذا، لكني أدركتُ حينئذ؛ كانت تعني الأغنية.

«لن ينزل هذا بك!»، رغم أنني وفي نفس لحظة كلامي، فكرتُ في قرارتي: «لمَ لا؟ ما الذي تغير؟»، فقلتُ وأنا أربِّت على ساقها: «ستكونين على خير ما يرام».

كنتُ محتاجة إلى ريتسا أكثر من أيّ وقت مضى في حياتي، كنتُ محتاجة إلى ريتسا، بيدَ أني تمكنتُ من سماع مجموعة من المقاتلين الثملين تسير مارّة في الجوار، وسيكون ثمة الكثير غيرهم، في كل مجمع، في كل أرجاء المعسكر. لم يكُن بمقدوري الذهاب لجلبها، وبكل تأكيد ما كنتُ لأرسل واحدة من الفتيات. بطريقة أو بأخرى، سيتحتم علينا تدبُّر أمرنا وحسب. آلاف النساء يلِدن يوميًّا، وبعضهن دون أيّ عون يزيد على ما تتلقاه كلبة تلد. كم عساه يكون صعبًا؟!

جثوتُ بحذاء مايري، وسألتُها عمّا إذا كانت تنتابها آلام منتظمة، فأومأت برأسها، وحين سألتُها: «متى بدأت؟»، أجابَت: «ظُهر اليوم». إذن فقد مضى عدة ساعات على مخاضها بالفعل، ولم تخبر أحدًا. كلما حاولتُ فهم سلوكها بدا أكثر جنونًا، رغم أني لا أظنها تفكر سويًّا البتة، يا لها من بائسة!

دخلت أربع فتيات أو خمس لجلب بطانيّاتهن، ملقيات نظرات جانبيّة إلى مايري بطريقة مستحية وفضوليّة، ومحرجة بعض الشيء. أمكنني سماعهن يُلقلقن وهن عائدات إلى النار. كُنّ مثارات جدًا؛ يسهرن حتى وقت متأخر، ويشربن النبيذ تحت النجوم... طفلات حقًا.

كانت مايري مُشوّشة، فجلستُ بجوارها أراقب كل موجة ألم، وهي تستحوذ عليها، وتبلغ ذروتها، وتنحسر. راحت تُقوّس ظهرها وقتما يزداد الألم شدة، وتئن، لكنها لم تصدر صوتًا آخر. ستحتاج إلى شيء ما لتعض عليه لاحقًا، فلا يمكننا المجازفة بإيقاظ المجمع على صرخات لا يمكن إخطاؤها لامرأة تمخض. تكلمَت في الفترات الفاصلة بين نوبات ألمها أكثر مما فعلَت قبلًا، على الأقل معي. كانت أَمَة في مطبخ أُسرة عظيمة، وُلِدت في العبوديّة،

وافترضتُ أن أبا الطفل هو مالكها، فغالبًا ما استُخدمت الإماء، وحتى أولئك غير الجذابات مثل مايري للترويح الجنسيّ، لكني أخطأتُ، إذ إن الأب عبد مثلها؛ رجل كان يعمل في المزرعة، ويجلب بانتظام مؤونة الخضار والفاكهة إلى باب المطبخ. قالت مايري: «وذات يوم، جلب لي الورود». ظهرَت عجائبيّة تلك اللحظة مرئيّة على وجهها. وبعد ذلك، بدأت تنسل لرؤيته كلما استطاعت في البستان، في حظيرة القش، وحتى في الحقول...

أتعلمون أنني حسدتُها حقًا؟ إذ تزوجتُ مرتين، وكنتُ جائزة شرف أخيل العظيم، لكن لم يجلب رجل ورودًا لي من قبل. في أثناء حديثنا، بدأتُ أفهم لمَ انسجمَت هي وهيلي. لا يمكن لامرأتين أن تكونا أقل تشابهًا، لكنهما تشاركتا تجربة العبوديّة، ولم يعنِ سقوط طروادة انتقالًا من الحريّة إلى القيد لأيّهما، بل بدّلتا استرقاقًا بآخر، هذا كل ما في الأمر!

بعد فينة، بدأت الفتيات بالانجراف عائدات إلى الداخل، جالبات معهن رائحة دخان الخشب. وبعد أن تهامسن بهدوء، خلعن عنهن ثيابهن، واستقررن للنوم. واحدًا واحدًا، أُخمدت مشاعل الأسل حتى كان الضوء الوحيد الباقي نابعًا عن السراج بجوار سرير مايري. ورغم كل الجيَشان، غطّت معظم الفتيات في النوم سريعًا، فقد أنهك الطعام الساخن والنبيذ والهواء النقيّ قواهن، لكن ليس جميعهن؛ ذلك أنني أمسكتُ، وأنا أجول بنظري في الغرفة بأكثر من التماعة لبياض عين في الظلمة.

طالت الليلة واستطالت، وإذا ما حدث شيء، فهو أن نوبات ألم مايري صارت أضعف، وأكثر تباعدًا، حتى إنها تمكنَت من الوسن بينها. أظن أنني لا بد قد غططتُ في النوم أيضًا، ذلك أنني قفزتُ وقتما قبضت مايري على يدي قائلة: «عليّ أن أتبول». كان الدلو في الركن القصيّ من الغرفة. كيف بحق السماء...؟! حسنًا، لا مناص من فعل ذلك. رفعتُ أنا وهيلي مايري إلى وضعيّة الجلوس، ثم على قدمَيها. استغللتُ فرصة تجريدها من ثوبها الأسود، ولم تكُن ترتدي تحته إلا قميصًا أبيض رقيقًا. ربّاه ما أضخمها! بطريقة ما، تدبرنا جرّ أقدامنا بين صفَّين من الأسرّة؛ هيلي تشد، وأنا أدفع من الخلف، موقظات الجميع في سير العملية. سندنا مايري بينما قرفصَت فوق الدلو، وتقبَّض وجه هيلي جراء الجهد، وقد كانت هيلي تفوقني قوة بكثير.

ما انبجس من مايري لم يكُن شلشلًا كتومًا يليق بسيدة، بل تدفقًا مثل فرس تبول! شُدهتُ للحظة، لكن من ثم أدركتُ أن ماء الرأس قد نزل، وهذا الشيء الوحيد الذي يعرفه الجميع عن المخاض، أليس كذلك؟ أن الماء ينزل. نظرتُ أنا وهيلي، إحدانا إلى الأخرى، ثم إلى الطريق الطويلة عودةً إلى سرير مايري (بضع ياردات ليس إلا، نعم، لكنها كانت طريقًا مفرطة الطول)، ثم تكلمت هيلي إلى أقرب الفتيات: «آسفة يا حبِّي، نحن بحاجة إلى سريرك».

بدَت الفتاة مبهوتة -كانت قد استيقظَت للتو، المسكينة!-، لكنها نهضَت من فورها، وأنزلنا مايري على سريرها. ذهبَت هيلي لتجلب الفانوس، ووضعتْه قريبًا على الأرض. بحلول هذا الوقت، صارت الفتيات جالسات كلهن، ولا أظن أحدًا نام ثانيةً في تلك الليلة. بعد ذلك، صارت نوبات الألم أشد بكثير، وبدأت مايري بالصياح، فعقدتُ عقدةً في خماري، وأعطيتُها إياها لتعض عليها، لكن فمها كان ناشفًا، وظلت تلفظها.

فهمستُ: «عليكِ أن تهدئي». لم أحتَج إلى قول المزيد، إذ عرفَت مايري السبب خير معرفة، لكن كل نوبة ألم كانت تنزل أشد من سابقتها، فأشعَلت الفتيات مشاعل الأسل خاصتهن، واستقررنا كلنا ننتظر. عند بداية كل نوبة، كانت مايري تعض على العقدة، وكان بالإمكان رؤيتها تحارب شاقةً طريقها إلى قمة كل موجة، ثم تتخبط هابطةً الجانب الآخر. سكون لبضع لحظات، ويبدأ التضيُّق مجددًا. واظبَت هيلي على منحها رشفات مياه، لكنها لم تقدر على إبقائه في معدتها، فرحنا نرطب شفاهها المتشققة وحسب، وكل هذا أمام جمهور من الفتيات المصدومات غير القادرات على المساعدة، أو فعل أيّ شيء، إلا أن يكُنّ موجودات.

لا أعلم كيف قدرت مايري ألا تصرخ، لكنها فعلت، وإن ظلت بعض أصوات القباع المريعة تأتي من خلف الخمار. قبل أن يبدأ شيء جديد بالحدوث، رأيتُه أولًا على وجه مايري، إذ بدَت ذاهلة، فألقيتُ نظرة على هيلي للتأكيد، لكنها هزت رأسها وحسب. مايري، التي كانت في غاية الامتنان لكل ما فعلناه، صارت فجأةً شكسة ونزقة. لم يكُن أيّ شيء نقوله، أو نفعله صحيحًا، وفي المرة التالية التي حاولت هيلي فيها ترطيب شفاهها، دفعَت الكأس بعيدًا بعنف بلغ من الشدة أن زلقه على الأرض.

سألتُها: «ماذا تريدين؟»، لم تعرف ما تريد. وحينئذ، مع نوبة الألم التالية، بدأت بالدفع. ظننتُ أن الأمر سينتهي عاجلًا، وأننا على بعد دقائق فحسب. كان كل نفَس مسحوب يُلفَظ في صرخة معاناة، وظللتُ أقول: «صه!»، وأنا أنظر بتوتر إلى الباب، لكن الصرخات خرجت عن سيطرة مايري.

وقفَت هيلي، وهسهسَت للفتيات: «غنِّينَ! هيا، لا تجلسن وحسب، غنِّينَ بحق الجحيم!»، وكان الغناء ما فعلنَه. أظن أنهن لا بد غنَّين كل أغنية يعرفنها، هتفت هيلي: «أعلى!». لا شك في أن المقاتلين الذين كانوا لا يزالون يثملون حول المواقد قد سمعوا الغناء، وفكروا: «إنهن يحظين بوقت طيب». تحت حجاب الضوضاء، ظللتُ أنا وهيلي نتبادل النظرات، مذعورتَين من مدى جهلنا. لذا رحنا نراعي الألم تلو الآخر، وكوفئنا أخيرًا بوقْع أقدام أندروماخي على الشرفة. دخلت مطأطئة رأسها، عاضّةً على أسنانها، لا ترى شيئًا أو أحدًا، وعندما رفعَت رأسها أخيرًا، ورأت الكل صاحيًا، وثمة امرأة على الأرض؛ تأنت، وبدت حائرة:

- ماذا يجري؟

فقالت هيلي:

- إنها في المخاض.

- مخاض؟ (خفضَت أندروماخي نظرها إلى مايري، وهزت رأسها، في إيماءة تقول: «لا يهُمني») عليَّ أن أغتسل.

وبقولها ذلك، مشَت عبر الفتيات الخائفات خروجًا إلى الفناء، وسرَت دمدمة في الغرفة. نظرتُ أنا وهيلي واحدتنا إلى الأخرى، ثم تبعتُ أندروماخي إلى الليل خارجًا. كانت النار لا تزال تضطرم، وثمة قِدر مليء بالماء الساخن ينتصب على العشب بجوارها. بعد أن جثمت أندروماخي فوقه، وفرجت بين ساقَيها، راحت تهرش نفسها بضرواة مستخدمةً قطعة كتان طُويت لتشكل لبادة، فأدرتُ وجهي عفويًّا، وإن لم يبدُ أنها تمانع وجودي. لم تعد بحاجة إلى الخصوصيّة الآن، بما أن جسدها لم يعد ملكها. عرفتُ ذلك الشعور، وذبُلت الكلمات الحانقة التي كنتُ على وشك قولها فوق شفتيَّ، فأشحتُ بنظري منتظرةً أن تجهز.

قالت، وهي تلقي اللبادة في القِدر: «حسنًا إذن، لنرى ما بوسعنا فعله».

تبعتُها إلى الكوخ، ونفرتُ ثانيةً من الاكتظاظ وروائح كل تلك الأجساد وحرارتها. جثت أندروماخي عند قدمَي مايري منتظرةً نوبة الألم الثانية، ثم، وعلى الفور، فعلَت ما لم أشعر أن بوسعي فعله؛ رفعَت قميص مايري حتى خصرها، وحاولَت رؤية ما كان يجري. سرّني أني لم أفعل ذلك، لأنه كان ليصيبني بالهلع وحسب، فما كنتُ أنظر إليه بدا غير ممكن ببساطة. انحسر الألم، وأطلقَت مايري تلك الصرخة الطويلة الصارّة، وتركَت رأسها يسقط.

فقالت أندروماخي:

- لستِ تحاولين، عليكِ أن تدفعي!

- إنني أدفع!

- ليس بالشدة الكافية.

كان ذلك خشنًا، لكن بدا أن الخشونة تنهض بمايري من بلادتها، وسواء أكان ذلك مصادفة أم لا، فقد نزلت نوبة الألم التالية أشد. همست لي أندروماخي: «كما تعلمين، تحت كل هذا الدهن، هي ضيقة حقًا». لاح عليها القلق، وإذا كانت هي قلقة، فأنا كنتُ فائرة. قلتُ: «هيا مايري، يمكنكِ فعلها». هزت مايري رأسها، وصفعتها أندروماخي، ليس بشدة، لكن أيّ صفعة في ذلك الوقت وحشيّة: «انظري إليَّ يا مايري، انظري إليَّ، لقد خسرنا كل شيء؛ منازلنا وعائلاتنا.. كل شيء، لكننا لن نخسركِ».

يا لمايري المسكينة! لا بد أننا بدونا شياطين تستحثها لتفعل المستحيل. استدارَت إلى هيلي، التي أمسكَت بيدها، وقالت: «هيا»، ومن ثم نصف ضاحكة، قالت محاولةً التنكيت: «ما الذي سأفعله دونك؟».

هزت مايري رأسها، كانت النوبة التالية قد بدأت بالفعل، فقالت أندروماخي: «رائع! يمكنني رؤية رأسه، له شعر أسود طويل جميل، مثلك بالضبط». لم أستطع رؤية شيء إلا كرة دامية، لكن بدا أن الكلمات غايتها تحميس مايري.

قالت أندروماخي: «هيا، سينتهي الأمر عاجلًا».

رحنا كلنا نحث مايري، ونحبس أنفاسنا ونحجبها بغير وعي على إيقاع أنفاسها. لم يعد أحد يسمع صرخات معاناتها الآن، فقد منعنا انكبابنا على

النوبة التالية من ذلك. أومأت أندروماخي التي كانت واضعةً يدها على التلة الصلبة لبطن مايري: «ابذلي قصارى طاقتك في هذه، هيا، نفسًا عميقًا، احبسي، وادفعي». وظهر رأس الطفل، وبينما شاهدنا استدار، كما لو أنه يحاول المساعدة، كما لو أنه يعرف كيف يُولَد! فقالت أندروماخي: «والآن الكتفان، هيا، نوبة ألم واحدة إضافيّة، وينتهي الأمر».

انبثاق، وانطراح، ثم صار في الغرفة شخص جديد، شخص لم يكُن موجودًا قبلًا قط. لقد حضرتُ الكثير من الولادات مذ ذلك الوقت، وأنجبتُ أطفالًا، لكن لا شيء يحضّرك لتلك اللحظة أبدًا. مثل تلك اللحظة التي يموت فيها أحدهم، يحل ذلك الصمت المستطيل بعد آخر أنفاسه صادمًا دائمًا، مهما يطُل ترقُب الموت.

حملته أندروماخي، وفركت صدره حتى أطلق آهةً واهية حائرة. بادئ ذي بدء، كان باللون الأرجوانيّ المزرق لبرقوقة ناضجة، لكن بالتدريج، وبينما واصل التأوه، بدأ بالتحول إلى لون أحمر صحيح.

حملَتــــه... فركَت صدره... بدأ بالتحول.

صارت الغرفة بالغة الهدوء، لا صوت إلا البكاء المهزول للطفل. أدركتُ ما كان مفقودًا: صيحة النصر التي تعقب ولادة صبي. اعتقدتُ أن هذه قد تكون المرة الأولى في كامل تاريخ طروادة التي لا تُقابَل فيها ولادة طفل ذكر صحيح بشيء إلا الهلع. لم تكُن أندروماخي قد ناولته بعد لمايري كي تحمله، وبدأ الجزع بالتجلي على وجه مايري، وفجأةً رغم أنها منذ لحظة فقط كان إرهاقها يمنعها حتى من رفع رأسها: تراجعَت جالسة، وانتزَعت الطفل من يدَي أندروماخي، وألقمَته صدرها. كانت حلمتها أكبر مما ينبغي، ولم أتبين كيف عساه يدخلها في فمه، لكن بعد بضع زعقات يائسة تمكن من ذلك، وبدأت خدّاه بالعمل بقوة. بعد نعرة دهشة بسيطة -من الواضح أن الشعور لم يكُن ما توقعَته-، لفظَت مايري زفرة رضا وارتياح.

دون تفكير، واصلت أندروماخي انكبابها على ما ينبغي فعله، وظهرت حاملةً ما يشبه كبد خروف في يدَيها، ومن الرحمة أن الفتيات كُنّ مادّات رؤوسهن ليعجبن بالطفل، وسمعتُ إحداهن تقول: «انظرن إلى أظافره!».

قبضت أندروماخي على ذراعي: «علينا أن نتكلم». تبادلتُ أنا وهيلي النظرات، وعلى الأرجح أن كلتينا تفكر: «إن هذا لكابوس!». تبِعنا أندروماخي إلى الفناء، حيث أمكننا أن نحظى بمحادثة خاصة لبضع دقائق بذريعة دفن المشيمة.

قالت هيلي: «كان ينبغي لكِ قتله، لن يكون وقْع الأمر عليها إلا أوخم إن فعلوها هم»، وهزت رأسها مشيرةً إلى المقاتلين الإغريق الذين يصرخون على الجانب الآخر من السياج، فقلتُ: «لا، لن يكون. فهُم الأعداء، ونحن يفترض بنا أننا صديقاتها».

قالت أندروماخي: «لقد فات الأوان بأيِّ حال»، فقالت هيلي: «أفاتَ حقًا؟». مرت لحظة حدَّقنا فيها إلى الهاوية. ثم قلتُ: «نعم، لقد أرضعَته».

الكثير من الرُضّع يُقتلون، أو يُتركون للموت؛ الصبية المشوهون، بكل تأكيد، لكن كم كبير من البنات الطبيعيّات تمامًا أيضًا. تقول القاعدة إن ذلك ينبغي فعله قبل أن ترضع الأم الطفل، وبانتزاعها إياه من بين يدَي أندروماخي، وإلقامه صدرها، كانت مايري قد أنقذت حياته.

في الوقت الحاليّ، بقدر ما تعرفه أيّنا، فالقرار القاضي بوجوب قتل كل الصبية الطرواديّين لا يزال نافذًا. وقد قتل بيروس ابن أندروماخي، فلا سبب لدينا لنثق به. لم أعرف ما إذا كان يتحلى بالشجاعة ليقتل رضيعًا الآن، بعدما بردت حماوة المعركة، لكني من غير ريب لم أنتوِ اكتشاف ذلك.

قلتُ: «فلنُقمّطه».

كان الطفل الطرواديّ يُربَط بلفائف القماط للأسابيع القليلة الأولى من حياته، ويُشد وثاقه إلى صدر أمه. لم يكن يُظهِر منه شيء إلا وجهه ويديه، وحتى هذه تُخفَى في طيّات وشاح أمه. أيمكننا الإفلات بفعلتنا بإخفاء جنس المولود؟ ظننتُ أن بوسعنا ذلك، طالما تذكرت الفتيات أن يدعين الطفل «بالوَلَد[1]»، أو بما هو أفضل: «بِهِيَ». قالت هيلي، ناطقةً بسطوة مطلقة: «سيتذكرن». أتراني استجليتُ أوهى أثر لقصدها «وإلا»؟ حسنًا، ماذا لو فعلتُ؟ أردتُها أن تكون قائدة، وكانت تستحيل إلى قائدة بالفعل.

(1) الوَلَدُ: كلُّ ما وُلِدَ، ويُطلَقُ على الذكر والأنثى، والمثنى والجمع، وترمي المؤلفة إلى ذِكر الطفل من غير تحديد جنسه. (المترجِم).

وهذا ما قررناه. جلبتُ ملاءة ومقصًا من كوخي، وشرعنا معًا؛ أندروماخي وهيلي وأنا، في تجهيز لفائف القماط، وحالما صار الطفل ملفوفًا، تكلمنا ثلاثتنا إلى الفتيات. أومأن برؤوسهن، وغمغمن بكلمات الموافقة، ولم يبدُ على أيّهن أنهن بحاجة إلى إقناع، فقد رأى الكثير منهن مناظر في طروادة لا ينبغي لأحد في عمرهن -أو في أيّ عمر- رؤيتها أبدًا.

منذ تلك اللحظة فصاعدًا، صار طفل مايري بنتًا. وفي اليوم التالي، ذكرتُ الولادة لألكيموس بشكل عابر في معرض حديثنا، ولم يُظهِر أيّ اهتمام البتة. وعلى العشاء، عقّب واحد أو اثنان من الرجال على الغناء، فقلتُ: «أجل، كنا نحتفل؛ لقد أنجبت مايري فتاة!»، ومجددًا، لا اهتمام، فولادة أَمَة أَمَةً لا يُعتبر أنباءً بالنسبة إلى أيّ شخص، إلا في كوخ النساء.. هناك.. غيّر ذلك الجو برمته؛ صار لدى الفتيات محط تركيز جديد، وتنعمت مايري بكونها محور الاهتمام، وبعد هبوط الظلام، وقتما كُنّ يجتمعن حول النار، كُنّ يمررن الطفل من زوج أذرع إلى آخر، وكأنه تميمة لحسن الحظ. كانت مايري تنظر باستحسان، مبتسمة، رغم ملاحظتي أنها دائمًا ما اطمأنت باستعادته. ثمة شيء ضارٍ في ذاك الحب. بدا أنها تقول: «لي، ليس لكُنّ، إنه لي».

أسأشعر أنا بما يشبه هذا وقتما يحين وقتي؟ أوه! أنا واثقة أن الكثير من النساء سيقُلن لي: «لا يسخُفنّ عقلك، بالطبع ستفعلين!»، «إنهم يجلبون الحُب معهم». يا ليتني نلتُ عملة ذهبيّة في كل مرة سمعتُ أحدًا يقول ذلك! هذا ليس صحيحًا، أعلم أنه ليس صحيحًا، فالحب لا يأتي دائمًا، ليس إذا كان الطفل نتيجة وصال قسريّ، ولا سيما إذا ما كان ولدًا ذكرًا يماثل أباه. شاهدتُ الكثير من الصبية المماثلين يكبرون، مُحاطين بخير رعاية، ومُطعَمين خير طعام، أو أفضل ما يمكن لأمهاتهم تقديمه، لكن بالكاد لُمسوا، أو عونِقوا، أو أُحِبوا. وصدقيني، هم لا يفلحون. لذا في كل مرة نظرتُ إلى مايري وطفلها، تساءلتُ: «كيف سيكون الأمر في حالتي؟»؛ أوه! كنتُ أضحك وقتما يربت المرميدنيّون على بطني، ويتكلمون عن ابن أخيل، لكنني كذلك ظننتُ أنه صبي.

ظلت أندروماخي الاستثناء في فوضى عبادة الطفل هذه. فاجأني انسلاخها قليلًا، إذ توقعتُ منها أن تعشق الطفل، لكنها عوضًا عن ذلك كانت نادرًا ما تنظر إليه. ذات مساء، وقتما حظينا ببضع دقائق بمفردنا، سألتُها عن السبب،

فقالت: «بعد أن توفيَ هيكتور، أصاب هيكوبا شيء من الجنون؛ كانت تنادي الطفل «هيكتور»، وليس مرة أو اثنتين، بل طيلة الوقت. أوه! دائمًا ما صوّبت نفسها، لكن بعد دقيقة أو اثنتين تعيد الكرة. أظنها كانت مرتبكة حقًا. ومن ثم في أحد الأيام، دخلتُ إلى الحضانة، ووجدتُها تحاول إقحام ثديها الضئيل الذاوي في فمه، فانتزعتُه منها، وصرختُ: «اخرجي!» بملء صوتي، لا بد أن القصر بأكمله قد سمع. تصوري ذلك؛ أن أقول لهيكوبا: «اخرجي!»، لكنه كان طفلي أنا، كان كل ما تبقى لي. لذا، هذا هو سبب عدم رغبتي بـ... (هزت رأسها، وأدركتُ أنها كانت تحاول ألا تبكي) إنه طفلها هي، ليس لي. لقد نلتُ محاولتي».

أما عن نفسي، فقد بُهتُّ من قوة مشاعري تجاه ذاك الصبي الصغير. لم يعنِ شيئًا بالنسبة لي، حقًا، ورغم ذلك كنتُ عازمةً بضراوة على إبقائه حيًا. اعتقدتُ أنه سيكون آمنًا ما دمنا في المعسكر. نادرًا ما كانت مايري تغادر الكوخ إلا للجلوس في الشرفة، ولم يُظهِر أيٌّ من المقاتلين الإغريق أيّ اهتمام بطفلها. ستكون رحلة البحر تحديًا أكبر، لكنه سيكون لا يزال في لفائف القماط، وظننتُ أن النساء سيُبقَين في العنبر على الأغلب. بأيّ حال، لم يكُن بوسعي القلق حيال ذلك الآن. ظللتُ أقول لنفسي: «إن كل شيء سيكون على ما يرام»، وبقدر معقول من الحظ، حسبتُ أن بوسعنا إنجاح الأمر.

28

بعد ثلاثة أو أربعة أيام من ولادة الطفل، استيقظتُ على صوت تحرُّك ألكيموس في الكوخ، ونهضتُ من فوري لأخدمه. عندما وضعتُ خبزًا طازجًا ونبيذًا أمامه، سألني عن حالي. بالكاد التقينا منذ وفاة أمينا، وإن كان ذلك بصورة رئيسيّة لانشغاله الزائد في تنظيم الألعاب. هذا ما أحببتُ أن أظنه بأيِّ حال. والآن، لم يبقَ إلا فعّاليتان؛ الملاكمة، وهي رياضة دامية تكفل التسبب بإصابات خطرة، لكنها رائجة، والخاتمة الكبرى للألعاب: سباق العربات، وقد قُرر إقامة هذه في ساحة التدريب على الرأس البحري حيث بُذِل الكثير من الجهد والوقت لتحسين المضمار.

سألني: «لمَ لا تأتين لرؤيتها؟»، أُخِذتُ على حين غرة بعض الشيء؛ ذلك أنه لم يقترح شيئًا من هذا القبيل قبلًا، لكن بالطبع قلتُ إنني سأفعل، وسأحب ذلك.

- ابحثي عني، هلّا فعلتِ؟ لا أريدكِ أن تقفي في المكان وحيدة. ستحدث بعض المراهنة الجادة، وأظن أن الأمور قد تتجه إلى الخشونة قليلًا.

- من برأيكَ سيفوز؟

لم أكُن مهتمة البتة بسباق العربات، أو بأيّ سباق، لكننا نتكلم مجددًا، وهذا ما يهمني. أردتُه أن يشعر أنني أهتم به، وكنتُ أهتم فعلًا.

- ديوميديس، كما أتوقع! (ولوّى وجهه، ذلك أن ديوميديس كان يفوز بكل سباق عربات) وإن كان ثمة فرصة أمام بيروس.

- بيروس؟ ليس أوتوميدون؟

فقد تولى أوتوميدون منصب سائق عربة أخيل بعد مقتل فطرقل، وكان يُعتبر عمومًا أفضل فارس في المجمع.

- لا، بيروس الأفضل بما لا يُقاس، وأوتوميدون سيكون أول من يخبركِ بذلك أيضًا. (ثم فرّغ كأسه) بالطبع، يكاد يكون معدوم الخبرة، لكن، لستُ أعلم. لديه الفريق الأحسن على الأرجح.

كنتُ أعرف الفريق، الكل يعرفه؛ إيبوني وفينيكس، الفحل الأسود والكُميت. شاهدتُه يقودهما عودةً من طروادة، وجثة بريام المدمّاة تتخبط خلفه. فكرتُ في قرارتي: «ابن حرام!»، وأنا أبتسم، بينما تبعتُ ألكيموس إلى الباب، ولوّحتُ مودعةً إياه.

قررتُ أنني سأذهب إلى السباق، وسأحاول إقناع أندروماخي بالمجيء معي، فباعتبارها جائزة شرف بيروس، ينبغي لها أن تكون هناك، مستعدةً لتكليله إذا ما فاز، ولمسح جبهته، أو أيّ شيء آخر يحتاج إلى المسح، إن لم يفعل. بكلا الحالين، سيدور شُرب مسرف حقًا في الردهة في تلك الليلة، ويتعيَّن عليَّ أن أكون حاضرة، لأن أندروماخي تمقت أشد المقت المشي جيئةً وذهابًا بين الطاولات متخشبةً نفورًا، ابنة ملك أُجبِرت على لعب دور خادمة سوقيّة. قلتُ في رأسي: «يا لأندروماخي المسكينة!»، ثم، وعلى نحو ثوريٍّ: «يا لي أنا المسكينة! كان عليَّ فعلها».

وجدتُ أندروماخي مستيقظة، ومرتدية ثيابها، والفتيات في مؤخرة الفناء يشاهدن مايري تُحمِّم الطفل، وكان من المثير للعاطفة دائمًا رؤية كيف امتلكَت نبذة الإنسانيّة تلك بعينَيها الحالمتَين الفقاعتَين السوداوَين القدرة على اجتذاب الجميع. تمنيتُ لو بوسعي أخذهن جميعًا لمشاهدة سباق العربات، ذلك أن الخروج كان ليسديهن خيرًا؛ النزهة الخفيفة إلى ساحة التدريب شيء يُشتِتهن عن أساهُن، لكن لم يؤذَن لأيّهن بمغادرة الكوخ، في حين كان من الصواب البيّن بذاته أن على أندروماخي الحضور.

مشينا صعودًا على الطريق المنحدرة دون كلام كثير. كانت لا تزال متحفظة في تعاملها معي -ومع الجميع-، غير أني ظننتُها تتحلى بحيويّة أكثر قليلًا في هذا الصباح، وقد أحاطت فستانها ببعض العناية. كلما ازددنا ارتفاعًا كان عصف الريح يزداد ضراوة، لكن لم يبدُ أنها تُرهبنا على طول

الطريق، كما جرت العادة أن تفعل، رغم أننا ظللنا نندفع في أشواط ركض طفيفة لا إراديّة كلما أمسكَت بنا هبّة أشد عزمًا. شعرتُ -كما اعتدتُ أن أشعر وأنا طفلة صغيرة- أن الريح نفَس رب يملؤني حياة. كم بدا المستقبل مليئًا بالأمل والإمكانيّة آنذاك! لا يبدو كذلك الآن، لكن الريح وإشراقة النهار أوحَت رغم ذلك باحتمال وجود حياة أفسح، وأكثر حريّة وراء تخوم المعسكر.

تخطَتنا حشود من المقاتلين الإغريق على الطريق، وتوقفنا جانبًا لنمنحها المساحة اللازمة. كان التدفق الرئيسيّ ليأتي بعد انتهاء الملاكمة، غير أن حشدًا غفيرًا كان موجودًا بالفعل؛ رجالًا فضلوا الحضور مبكرًا، وتأمين نقطة مَشرَف كيِّسة. قال ألكيموس: «إن مراهنة جادة ستحدث»، وكان المرء ليشعر بتوتر ذلك.. بالإثارة المضافة. اعتاد الإغريق المقامرة في كل شيء، وسمعتُ مرة مجموعة من المقاتلين يرفعون رهانات على قطرتَي مطر تسيلان على ترس. وصحيح أنهم كانوا يضحكون، لكن الأمر لم يكن مزحة بالكامل.

وجدنا المتبارزين متجمعين بالفعل، وكان المشهد بأسره مغمورًا بضوء أصفر ليمونيّ يزداد تشبُّعًا بالألوان، ويقلّ حامضيّة مع ارتفاع الشمس. تلألأت العربات، والتمعَت ظهور الخيل. لا بد أن الساسة مستيقظون من قبل الفجر بمدة، يحرصون أن يكون كل شيء بأفضل حال ممكن. عند نهاية السباق، سيبزغ رجال بلون الرماد يقودون خيولًا وسِخة من غمائم التراب، لكنهم قد شرعوا وكلهم يبدون مثل فيبوس أبولو، وهو يقود عربة الشمس. عند خط البداية بين الحشد، استجليتُ شعر بيروس الأحمر، وضفائر ديوميديس السوداء اللامعة. كان مينيلاوس هناك أيضًا، ومن البيّن أنه منتوٍ المنافسة، الأمر الذي فاجأني بعض الشيء، ذلك أنه استحال في الأشهر الأخيرة بدينًا أحمر الوجه، ليبدو بغتة أكبر من سنه بكثير.

كان أجاممنون حاضرًا، باذخ الملبس، جالسًا على كرسيه الأشبه بالعرش، يتكلم إلى أوديسيوس، وتخفق رايات موكناي الحُمر والذهبيّة في الريح من خلفه. وافق أجاممنون على التبرع بالجوائز؛ حصان سباق للفائز، وقِدر برونزيّ ضخم للثاني. أمعنتُ النظر، وأراحني أني لم أرَ فتاة أَمَة تُجرّ من سقائف حياكة أجاممنون، وتُجبر على الوقوف مرتجفة بجوار خط النهاية. تذكرتُ سباق العربات في ألعاب جنازة فطرقل وقتما منح أخيل صديقتي

إيفيس جائزةً أولى. كانت قد ذابَت في مجمع ديوميديس، وبما أن نساءه نادرًا ما يُسمح لهن بمغادرة أكواخهن -إذا ما سُمح لهن أصلًا- لم أرَها مذ ذاك، لكنني بذلتُ قصارى جهدي لنفض الذكرى، لأن هذا الحدث: سباق العربات، بحضوره أنيقي الملبس وراياته الخفّاقة، هو أقرب ما يمكن للمعسكر تدبيره من مناسبة فاخرة.

ظهر نسطور في عربة يقودها أكبر أبنائه. كان آخر الواصلين من الملوك، وانطلقَت دفقة تهليل هائلة وقتما حيّا أجاممنون. في غضون ذلك، رحتُ أمسح الجماعة خلفهم بحثًا عن كالخاس الذي وثقتُ أنه سيحضر، واستجليتُه أخيرًا، في مؤخرة الحشد تمامًا، جسدًا طويلًا، أبيض الوجه، يحمل عصا منصبه الذهبيّة. ما فاجأني أنني رأيتُه يدفع بمناكب بعض شبان سكيروس الذين أخذوا يهزؤون بردائه جهارًا. كانت قلة الاحترام هذه شيئًا لم أره قبلًا قط، وقد ضايقني. فكالخاس رجل أشم، ومن الجائز جدًا أنه تحت كل الطلاء والتصنع.. حسّاس. كان محاصرًا، ولم يساعده أحد، لكن في تلك اللحظة تمامًا أعلن نفخُ الأبواق أن السباق موشك على البدء، فاندفع غلمان سكيروس إلى الأمام ليساندوا بطلهم.

عند إشارة ألكيموس، تسلق السائقون عرباتهم، وعندما استقروا راح يمشي على طول الصف حاملًا خوذة ألقوا أسهم القرعة فيها. وبعد هزّها جيدًا، قدّمها لأجاممنون الذي سحب الأسهم، ونادى الأسماء. كان صوته أضعف كثيرًا مما أتذكر، ولاحظتُ أن بعض الرجال حولي بدوا مندهشين. فاز ديوميديس بموقع حسن، وهذا أمر مؤسف، كونه جعل مآل السباق أقرب إلى قضاء محتوم. كم رجلًا هنا قد يتحلى بالثقة ليراهن ضده؟ لا بد أن القلة الذين فعلوا يشعرون بالاغتمام الآن، مع أني سمعتُ ألكيموس يقول: «إن ديوميديس لم يمتلك الفريق الأحسن»، وعلى الأرجح أن إيبوني يتربع وحده في منزلة الحصان الأفضل في الحلبة، لكن من ناحية أخرى، فديوميديس أخبَرُ بما لا يُقاس البتة.

رفع سائقو العربات سياطهم عند إشارة أطلقها ألكيموس، وراحَت أعرُف خيولهم تنساب في الريح، وعجلاتهم تثير سُحُبًا من الغبار. في بعض الأماكن، كانت العربات تتخبط بعنف فوق الأخاديد في الأرض، لكن السائقين

تشبثوا بطريقة ما، وراحوا يتسابقون عبر السهل مبتعدين عنا. وفي المسافة البعيدة، لم يكُن من الممكن رؤية شيء إلا نقطة الانعطاف، وهي شجرة ميتة محاطة بجلاميد جرانيتيّة. هنا ضاق المسار مجبِرًا العربات على الاجتماع، وهذا موقف يحتمل الخطر؛ إذا ما تشابكَت عجلاتهم، فثمة احتمال حقيقيّ أن ينقلبوا، ما يُنزِل إصابات خطيرة -وربما قاتلة- بالرجال والخيول على حد سواء. هناك تكمن كل المهارة عند نقطة الانعطاف، حيث يمكن للمرء أن يسبق، لكن عبر مجازفة هائلة فقط، وإن كانت مدروسة.

كان مينيلاوس في المركز الأول وقتما وصلوا إلى المنعطف، لكن بدا ديوميديس متأخرًا عنه بضع ياردات ليس إلا، متهيئًا لإدراكه. وفي المركز الثالث كان بيروس يقود مثل مخبول، كما لو أنه يظن نفسه وخيوله خالدين. ومن ثم، وبشكل يثير الحنق، حجبتهم غمائم الغبار المتصاعدة من الحوافر الخابطة جميعًا عن الرؤية. فتأوه الجمهور، وأعقب ذلك صمت موتور، بينما جاهد الجميع أنفسهم ليروا من سيكون في الطليعة بعد أن نجحوا في اجتياز المنعطف. بانت ظلال العربات والسائقين القابضين على سياطهم في سحابة كدِرة من التراب الأحمر، وأمامي مباشرة، صرخ رجل: «ديوميديس!»، فقال الرجل الواقف بجواره: «بالطبع لا، إنه مينيلاوس، هل أنتَ أعمى؟!»، ثم وبطريقة إغريقيّة قُح بدأ المشاجرة حول الأمر، وكلٌّ منهما مصرٌّ أنه محق، رغم أن كليهما عاجز عن رؤية شيء. ربما كانوا ليتلاطموا لو لم يشتمهم الرجال من حولهم ليصمتوا.

خبَت الدمدمة بينما راح الجميع ينتظرون ظهور السائقين ناشِفي الريق. توقعتُ ديوميديس، وأظن أن الجميع توقع ديوميديس، حتى أولئك الذين كانوا يشجعون غيره، وحينما بزغ أول شكل ظليل أخيرًا من السحابة، أطلق فريق ديوميديس هتافًا غليظًا، لكن وجه سائق العربة كان مكسوًّا بالتراب، ولا يمكن تمييزه، فراح الناس يُحدِّقون بدلًا منه إلى الخيول؛ واحد أسود، وواحد كُميت... أم هما غير ذلك؟ إذ أن كليهما مغطىً بالتراب إلى درجة لم يكن بمقدور أحد معها التأكد من لونهما، لكن بعدئذ، وبينما اندفعَت العربات بضراوة ناحيتنا، نزع السائق الأول خوذته ليكشف عن لبدة من الشعر الأحمر الملتهب.

بالكاد تدبر ألكيموس، الذي يُفترض به أن يكون محايدًا، ألا يهتف، لكن هديرًا بملء الصوت تدفق من أفواه المرميديّين حولي. أيمكن لأيّهم إدراكه؟ كان هذا السؤال التالي. خلفه بأقل من دقيقة، لم يكن ديوميديس كما توقع الجميع، بل مينيلاوس. جعل بيروس يجلد فريقه، ويصرخ محتلًّا الصدارة، ومن ثم تخطى خط النهاية. هاج المرميديّون وماجوا، وهرعوا لتهنئته، وراحوا يتجمهرون حول عربته مثل نحل في قفير، لكن بدلًا من ترك نفسه يسقط فوق أذرعهم الممدودة، تسلق بيروس حافة عربته، ثم ظهر إيبوني، ومن هناك قفز على الأرض، حيث ألقى بذراعَيه حول عنق إيبوني. ظل يقول: «فتاي.. فتاي»، ورص وجهه على رأس الحصان، وأغمض عينَيه؛ لحظة سلام في خضم ذلك الاصطخاب. شعر الجميع بها، وغبطوها أيضًا، كما أظن... الاتحاد الكامل بين الإنسان والحصان. ثم مد بيروس يده، وربت على فينيكس، حرصًا منه ربما على ألا يشعر بالإهمال، لكن بدا واضحًا للعيان أن هواه الحقيقيّ كان إيبوني.

في تلك اللحظة، حدث أن نظرتُ حولي، ورأيتُ كالخاس -وطلاء وجهه يتصدع بفعل الحرارة- يراقب بيروس. كان يبعد عني نحو خمس ياردات أو ستٍ، لكن حتى من تلك المسافة، أمكنني الشعور بالكراهية التي تنبعث منه.

عند خط النهاية، بدأت مماحكة ما بعد السباق المعهودة، إذ حلّ ديوميديس في المرتبة الثالثة، وكان ساخطًا، لأن بيروس أخرجه من المضمار. قال: «أحمق غبيّ صغير!»، بصوت صاخب بما يكفي ليسمعه الجميع. هو لم ينجرح، لكن كبرياءه قد فعل بكل تأكيد. فقال ألكيموس لبيروس: «لا ترد عليه، إنه يعزّي نفسه وحسب»، وراح يسوقه بحزم، ويده على كتفه ناحية أجاممنون، الذي كان منتظرًا ليهب الجوائز. في هذه الأثناء، قفز أوتوميدون إلى العربة، وعقد الألجُم حول خصره متجهزًا للعودة بها إلى المعسكر. عانق بيروس أجاممنون، ثم استدار إلى الحشد رافعًا كلتا ذراعَيه، وقبضتاه تلكمان الهواء. تدفق المرميديّون إلى الأمام هاتفِين أعظم الهتاف، ثم رفعوه على مستوى الكتف، وحملوه نزولًا على الطريق في أعقاب عربته، مثل مستعمرة نمل -كما مرّ ببالي- تحمل يرقة غضة غضاضة بارزة، عودةً إلى قريتهم.

التفتُّ إلى أندروماخي، فلوَتْ قسماتها، وقرأتُ أفكارها، وقلتُ: «أوه! لا تقلقي، فعلى النحو الذي سيشربون فيه الليلة، سيفقد الوعي قبل ذلك بكثير».

29

أقام بيروس وليمة عظيمة احتفالًا بنصره. جِداء وخِراف تُشوى على أسياخ، ونبيذ ينساب كالماء. كان مينيلاوس ضيف الشرف، رغم أن بقية الملوك قد حذوا حذو أجاممنون، وتخلفوا عن الحضور. خطب بيروس خطبة أطنب فيها بالثناء على مينيلاوس؛ على بسالته وحكمته وفروسيّته، واعتذر، أو كان على شفا حفرة من الاعتذار عن محاولة إخراجه عن المسار. وقتما وقف مينيلاوس ليرُد، صدح التهليل له صَدحًا صامًّا للآذان، فالجميع يحب الخاسر الخليق، ورغم أنه لم يستطع مقاومة إبداء تعقيب لاذع أو اثنين حول الشبان النزقين الذين يقتلون وينجون من العقاب؛ كان بجملته خطابًا دمثًا. اختتم خطابه بقوله إنه يأمل أن تتحد المملكتان في المستقبل في تحالف أوثق، نظرًا لأن بيروس قد قبِل عرض مينيلاوس بتزويجه بنته.

حسنًا، فار فائر الردهة، وكان المرء ليظن أنهم كلهم سيتزوجون أيضًا. وقفتُ في المؤخرة، وراقبتُ، أفكر في كم كان بيروس آمنًا! كم كان محمودًا، ومبجلًا! وأطلّت دودة غضب عمياء صغيرة برأسها في دماغي، وراحت تتمايل من جانب إلى آخر.

ما إن انتهت الخطابات حتى بدأ الشرب الثقيل. الجميع غنى، والجميع صفق، والجميع رقص، وفي مرحلة ما، في لجّة كل هذا، أشار أوتوميدون لي ولأندروماخي بأن علينا الانسحاب، فمشيتُ مع أندروماخي عائدة إلى كوخ النساء، وفاجأني أنها توقفَت أسفل الدرجات، وعانقَتني. لم يُرسل في طلبها في تلك الليلة، ولا هيلي، لكني شككتُ أن النساء عند المواقد قد واجهتهن ليلة عصيبة. لستُ آمل إلا أن يكُنّ قد نِلنَ حصة من النبيذ.

بدا المجمع مقفرًا وقتما أفقتُ في الصباح التالي، وبالتدريج، خلال بضع الساعات اللاحقة، ظهر رجل أولًا ثم واحد آخر، وراحوا يتجمعون حول المواقد يصيحون مطالبين بالفطور، رغم أن قلة منهم تمكنَت من أن تأكل كثيرًا، إذ أن البعض عند مرأى الطعام فقط عاد رأسًا إلى السرير.

ساعة بعد ساعة، أخذت السماء تكفهر حتى صارت بحلول الظهيرة سوداء تقريبًا. كل شيء بدا مَيروقًا، بما في ذلك جلود الناس، كما لو أن اللونَين الوحيدَين في العالم كانا الأصفر والأسود. هي في الطبيعة ألوان منذرة، وبالفعل كان ثمة شعور متصاعد بالتهديد في ذلك اليوم. أشار عدة رجال إلى السحابة الآخذة شكل سندان، المتدلية فوق الخليج، لكن قال آخرون إنها علامة حسنة، فالعاصفة هي ما يحتاجون إليها بالضبط؛ رعد.. انهمار.. مطر مدرار، ومن ثم تتغير الريح أخيرًا.

كان العشاء في تلك الليلة أمرًا مكبوتًا. لم يشعر أحد برغبة في الإكثار من الطعام، ورغم أن الشبان الأصغر سنًا راحوا يداوونها بالتي كانت هي الداء، فقد شرب الأغلبية النزر اليسير. عوَت الريح في الردهة، وجعلها غياب الصياح والغناء المعهودَين تبدو أصخب من ذي قبل. شعر الجميع برغبة في الخلود إلى النوم مبكرًا، وبعض الرجال كانوا واقفين بالفعل، يهمون بالمغادرة وقتما حدث اصطخاب عند الباب، فاستدرنا جميعًا لننظر عندما دخل منادو أجاممنون، ومضوا على طول الممشى الأوسط. بدا بيروس متفاجئًا، لكنه وقف على الفور ليحييهم، فانحنوا له، ثم أوضحوا أن لديهم ما يقولونه له على انفراد. غادر الردهة بعد أن دعا ألكيموس وأوتوميدون ليتبعاه، ورغم أن الموجودين تلبثوا فينة، يحدوهم الفضول لمعرفة ما يجري؛ لم يرجع.

تركتُ أندروماخي عند باب كوخ النساء. كان الهواء رطبًا رطوبة جائرة، لكنني رغم ذلك لم أشعر أنه طقس رعد. في العادة، تُخيّم فترة سكون مُتوعد قبل أن تندلع عاصفة، لكن لا سكون في تلك الليلة، بل نفس العويل المتواصل لريح لم يكُن بوسعها الاستراحة، ولا ترك أحد يستريح، وسرني أن دخلتُ، وأوصدتُ الباب.

جاء ألكيموس بعد ساعة، وقال:

- لقد دعا أجاممنون إلى عقد اجتماع، ظهيرة الغد. (ثم جلس على السرير، وبدأ بحل أبازيم صندله) أحسبه من المفاجئ عدم إقباله على فعل ذلك من قبل.

لدى تذكُّري وجه أجاممنون المنكوب، تساءلتُ عمّا إذا كان في حال يسمح له باتخاذ قرار:

- أليس هذا أمرًا حسنًا؟

- إذا ما كان يجمع شمل الناس، فبلى، لكن الخطورة تكمن في أنه سيجعل الشقاقات علنيّة فحسب.

- أليست علنيّة بالفعل؟ أقصد أن أجاممنون لم يأتِ إلى الوليمة.

- حسنًا، ليس بإمكانه الذهاب حقًا بوجود مينيلاوس، أليس كذلك؟ أيمكنكِ تصوره جالسًا هناك، ومينيلاوس يعلن الزواج؟ كان من المفترض أن تتزوج بابنه.

فقلتُ:

- فتاة مسكينة!

بدا صفْر التعابير. كان قد ألقى عنه غلالته الآن، وعندما انحنيتُ لألتقطها، قبض على ذراعي:

- هل أنتِ على ما يرام؟

- أنا بخير.

أفلَتني، لكن ربما على مضض. للحظة، لاح احتمال وجيز متناهي الصغر بأننا قد نقضي الليلة معًا. شعرتُ فجأةً أن عليَّ التكلم؛ قول شيء.. أيّ شيء:

- أتندم على الزواج بي؟

- لمَ قد أندم على ذلك؟

- لأنه لم يكُن خيارك.

- لكنني متزوج بثاني أجمل امرأة في العالم، كيف عساي أندم على هذا؟!

أيُّ صنف من الرجال يحدِّق عميقًا إلى عينَي زوجته، ويخبرها أنها ثاني أجمل امرأة في العالم؟ حسنًا، ألكيموس بالطبع. قد لا يعجب المرء دائمًا ما

يقوله، لكن يمكنه أن يثق تمامًا أنها الحقيقة كما يراها. لا أظن أني عرفتُ رجلًا أصدق قبلًا، وبلا شك، هذا سبب اختيار أخيل إياه. أذكر قول أخيل إنه يكره الرجل الذي يقول غير ما يضمر بقدر كرهه بوابات الموت. حسنًا، لا يمكن لأيّ شخص اتهام ألكيموس بذلك أبدًا.

كان لا يزال جالسًا على حافة السرير، وعلى ما يبدو يحاول التفكير بشيء يقوله:

- أفرحني قدومكِ لمشاهدة السباق.
- لقد استمتعتُ به.

وهذه كانت خاتمة الأمر، ذلك أنني استدرتُ عند الباب، ونظرتُ خلفًا، لكنه كان يجذب الأغطية بالفعل، فحملتُ شمعة، وأخذتُ جمالي ذا المركز الثاني إلى السرير؛ سرير ضيق، وقاسٍ. سرير ألكيموس أكبر، لكن لا يقدر سرير أبدًا على الاتساع بما فيه الكفاية ما دام يهجع أخيل بيننا؛ أخيل العظيم.. أخيل الساطع.. أخيل اللامع.. أخيل الإلهيّ...

عشنا حياتنا في ذلك الظل الشاسع. كان هذا عيب زواجي، ولم أبصر إلى تصويبه سبيلًا. أعسى ألكيموس يراني بعد ولادة الطفل بصفتي امرأة وحسب، أو يكتسب بعض الإيمان بنفسه؛ الإيمان بأنه لم يكُن دائمًا، وعلى نحو لا يعوض في المرتبة الثانية؟ ربما...

جوهر الإشكال هو أن ألكيموس يعتقد -أو بالأحرى يفترض- أنني أحببتُ أخيل، وما زلتُ أحبه، ولم يكُن بالتأكيد الوحيد الذي يضمر هذا الاعتقاد. بدا الناس آنذاك -والآن- مُسلّمين بأنني أحببتُ أخيل، ولمَ عساي لا أفعل؟ فقد حظيتُ بالرجل الأسرع والأقوى، والأشجع والأوسم في زمانه، في سريري، كيف لي ألا أحبه؟

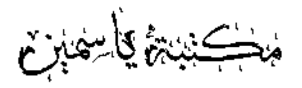
لقد قتل إخوتي!

نحن النساء كائنات عجيبة؛ لا ننزع إلى حُب أولئك الذين يقتلون عائلاتنا.

لكن ثمة بُعد آخر لهذا، ومن وجهة نظري، فهو بُعد أقل إراحةً بكثير. في ليلة قدوم بريام إلى معسكر الإغريق ليطلب من أخيل منحه جثة هيكتور، اختبأتُ في عربته، وهي تتدحرج تجاه البوابة، مدركةً طوال الوقت أن أخيل

يسير بجوارها. كان بوسعي البقاء في العربة، كان بوسعي المواصلة قاطعةً كل الطريق إلى طروادة، لكن كنتُ آنذاك لأواجه نهب مدينة أخرى.. استعبادًا آخر. كانت عندي أسباب وجيهة لهجر محاولتي الفرار، لكن عندما سألني أخيل لمَ رجعتُ، قلتُ ببساطة: «لا أعرف»، فأومأ برأسه وحسب، لأن الأمر غير العاديّ هو أنه كان عارفًا طيلة الوقت بما أفعل، ولم يحاول منعي. أنا رجعتُ، وهو كان متجهزًا لتركي أرحل، لذا وقتما التقينا مجددًا، لم تعُد من أيّ منحى بسيط علاقة بين أَمَة ومالكها. بعض العُرى التي توثق الناس أعمق من الحب. رغم أننا إن أردنا أن ننطق بلسان كلبيّ، فبوسعنا القول إني ومنذ البداية عازمة على النجاة، وإني عرفتُ أن فرصي فيه أحسن في معسكر الإغريق، في ظل أخيل، مما ستكون عليه أبدًا في طروادة.

إلى أين أودى كل هذا التفكير بي؟ إلى اللامكان. ما زلتُ هاجعة في سرير ضيق، أنصتُ إلى الريح، مدركةً المهد الذي بدأ بالتأرجح للتو. في أيامي الأولى في المعسكر، كنتُ أصلي أحيانًا، كي تتغير الأمور. لم أصلِ لذلك الآن، لا حاجة، فالطفل النامي سيجلب ما يكفي من التغيير، وسواء أكان زينًا أم شينًا، لا أمل في إيقافه إلا بقدر الأمل في إيقاف المد.



30

عصفت الريح هوجاء طوال الليل، وفي الظهيرة، عند دخول زُمر الرجال إلى الميدان، واجهوا علامات ماثلة على أضرار العاصفة؛ فقد انقلب تمثال أرتميس الذي كان في موضعه من الحلقة الأكثر كشفًا بين كل الآلهة في الليل، مجبِرًا المقاتلين على تسلُّقه أو -بدافع بعض الشعور الحائر بالاحترام- إطالة الطريق بالالتفاف حوله. لم يكُن سقوطه مفاجئًا تمامًا، ذلك أنه يميل مبتعدًا عن الريح منذ أشهر، على نحو أشبه بالأشجار الملتوية على الرأس البحريّ. بيدَ أن سقوطه بدا في الضوء الشاحب مشؤومًا، وقد رأيتُ أكثر من رجل يرسم الرمز الطارد للعين الحاسدة بينما يمر متثاقلًا.

كنتُ في طريقي إلى ردهة السيد نسطور، آملةً أن أرقب الاجتماع من الشرفة. وقتما وصلتُ، كان نسطور قد غادر بالفعل. رأيتُه يشق طريقه عبر الحشد، متكئًا شديد الاتكاء على ابنَيه الكبيرَين، لا يرفع ذراعَيه عن كتفَيهما إلا مدةً تكفيه ليشكر هتافات الحشد. لاقتني هيكاميد محييةً عند الباب، ولدى تجاوزي العتبة شممتُ سكّرًا محروقًا وقرفة حلوة. رأيتُ الكثير من الصواني المصفوفة على الطاولات المستطيلة في الردهة، وحسبتُ أنها لا بد قد قضت الصباح بطوله تخبز. بعد وقت غير طويل، وصلَت كساندرا برفقة ريتسا، وسرتني رؤيتها رغم أنني كنتُ أمقتُ طريقة معاملة كساندرا إياها. شعرتُ بأن علاقة معقدة قد نشأت بينهما، إذ شهدت ريتسا أسوأ لحظات هوَس كساندرا، وأعانتها وساندتها عبرها، وهذا جعلها شخصًا تعتمد كساندرا عليه، لكن تستاء منه أيضًا، وحتى تخشاه. عرفَت ريتسا أكثر مما ينبغي، ورأت أكثر مما ينبغي. وقتما رأيتُ كم الفظاظة في ملاحقة كساندرا لها بالأوامر، وكم الاحتقار الذي بدا منها، انزرع فيَّ خوف على ريتسا، ولم يتحسن رأيي

بكساندرا بكل تأكيد. لاحظتُ أنها أخذت حلويات من صينيّة هيكاميد، وبالكاد تلفظَت بكلمة شكر، فكانت ردة فعلي أن شكرتُ هيكاميد باستفاضة بالغة جعلَتها تتراجع خطوة متفاجئة.

بعد محادثة متكلفة دامت بضع دقائق، حملنا أطباقنا إلى الشرفة. أخذ الميدان يمتلئ بسرعة، وكلما دخل أحد الملوك، كان يعلو هتاف غليظ من شيعته، ويتصعد إلى هدير بينما يتخذ مجلسه. صار الجميع حاضرين في آخر الأمر، وكل الأعين حاطّة على كرسي أجاممنون الخالي. هو آخر من يصل في كل اجتماع، ودائمًا ما يكون دخوله رسميًا، ومسرحيًا، ومسبوقًا بالمُنادين، ومرفوقًا بصخب الأبواق. وعند اتكائي على السور، أمكنني رؤية كم بدا عجوزًا وسقيمًا، رغم أن رداءه كان باهرًا، وصورته مهيبة! وأشك فيما إذا كان من رأوا ما يعدو ذلك كثُرًا. علينا تذكُّر أنني قد رأيتُ أجاممنون في غرفة ضيقة للغاية.. ضيقة أكثر مما يجب. وفي بعض الأوقات ليلًا، ما زلتُ أشعر بجسمه المتعرق فوقي.

لمسَت ريتسا ذراعي: «أأنتِ بخير؟»، فوضعتُ يدي فوق يدها، دون أن أنطق كلمة.

رحتُ أشاهد التحيّات. مشى أوديسيوس وأوتوميدون عبر الميدان للقاء أجاممنون الذي في لحظة كياسة نادرة رفع نفسه على قدمَيه بعدئذ، وذهب ليكلم نسطور، وما كان غيابه واضحًا هو أيّ تحيّة بين الأخوين. ظل مينيلاوس -سواء عامدًا أم لا- ينظر دائمًا إلى الاتجاه المعاكس، وجلس بيروس قبالة أجاممنون مباشرة، على مسافة يمنع بُعدها من التواصل اليسير، لكن كان من الطبيعيّ لأجاممنون أن يسلّم عليه بطريقة ما، فقد قدّم له الجائزة الأولى في سباق العربات منذ يومين فقط، غير أنني لم أرَ أثرًا لذلك. كان أجاكس الضئيل يقرض لحيته (الهزيلة بعض الشيء في أحسن أحوالها)، ويلقي نظرات موتورة يمنة ويسرة، فقد اغتصب كساندرا في معبد أثينا، وها هو مقيد مثل جَدْي اختير للأضحية. لم يُحيِّ أحدًا، وكان عجيبًا كيف أن بعض الناس حيَّوه!

وأخيرًا، وقف أجاممنون وتنحنح، وراح يرنو بعينَيه القاتمتَين ثقيلتَي الجفنَين إلى الحضور، وقال: «بحلول هذا الوقت، كان ينبغي أن نكون جميعًا

في الوطن. (جذب بهذه الكلمات القليلة انتباه كل رجل هناك) حتى أنت يا إيدومينيو، لو مُنِحتَ ريحًا حسنة، لكان ينبغي أن تكون في الديار مع زوجتك العزيزة وأطفالك. حتى أنت يا أوديسيوس، كنتَ قطعتَ شوطًا بعيدًا إلى إيثاكا بحلول الآن. ومع ذلك، ما زلنا ها هنا، ممنوعين من المغادرة بمشيئة الآلهة. ولسنا نعرف حتى ما الإساءة التي اقترفناها».

قلتُ في قرارتي: «حقًا؟».

«لكن من طبيعة الآلهة أنها غالبًا ما تجعل العقاب سابقًا لمعرفة الإساءة. لذا، سألتُ كالخاس، وهو عرّاف ذائع الصيت، غالبًا ما وجّه استشاراتنا في أوقات مضت؛ أن يتكلم مجددًا اليوم. لجميعكم، لن أقول إلا: أصيخوا السمع، وتفكّروا في كلماته».

طلع كالخاس متسربلًا بملابسه الكهانيّة الكاملة، وأوشحة أبولو القرمزيّة ترفرف من عصاه، من بين صفّين من الأكواخ، فخمد الدويّ الذي تلا خطاب أجاممنون من فوره. كان شخصية مألوفة في الميدان، ليس محبوبًا كثيرًا، وربما يتعرض للهزء أحيانًا، لكنه رغم ذلك محترم بصفته عرّافًا. سيتذكر كثير من الحاضرين أنه وقتما ألمّ الطاعون بالمعسكر، كان قد نطق جهارًا بحق أجاممنون، قائلًا إن معاملته المهينة للكاهن هي ما استفزت غضب أبولو، وسبّبت إرساله سهام طاعونه معجّلة إلى المعسكر، لتقتل الإنس والوحش على حد سواء. كره أجاممنون كالخاس لذلك، لكنه كان محقًا، أليس كذلك؟ فحالما أعاد أجاممنون ابنة الكاهن لأبيها، لم تنزل إصابة واحدة جديدة بالطاعون، وشُفي بعض المصابين سابقًا شفاءً أعجوبيًا. لقد انبرى لأجاممنون آنذاك، ونطق حقًا، لذا كانوا مستعدين للإنصات إليه الآن.

لكن كالخاس لم يطلب منهم أن ينصتوا. قال: «انظروا... انظروا إلى تماثيل الآلهة»؛ استدارَت الرؤوس في طول الحشد وعرضه.

«إنها هنا منذ عشر سنوات، مثل أيٍّ منكم. واحد من أول الأمور التي فعلها السيد أجاممنون بعد أن رسَت السفن، كان الأمر بإخلاء مساحة حيث يمكن تكريم الآلهة، ونُحتَت هذه التماثيل، ونُصبَت، ومذ ذاك الوقت وكل الخلافات في الجيش وبين شتى الملوك تحدث تحت أنظارها. لقد اعتدنا جميعًا وجودها، وربما تعبرون الميدان، ولا تنظرون إليها أبدًا. منذ يومين، أُجريَت بطولة

الملاكمة هنا، وقبل ذلك المصارعة، لكن كم منكم تجشم عناء رفع نظره إلى الآلهة؟ كم منكم لاحظ قدر البهت والتفسُّخ الذي صارت إليه تماثيلهم؟ ليلة البارحة، طاح تمثال أرتميس في العاصفة، وقد عبَر الكثير منكم من فوقه ليبلغ مكانه في الاجتماع. صدمة، أليست كذلك؟! تلك الفُرجة في الدائرة، ومع ذلك، فلا بد أن قاعدة تمثالها تتعفن منذ سنوات».

نظرتُ إلى التماثيل مثلما فعل الجميع؛ الطلاء متقشر، والخشب متعفن، وأنف بوسايدون مفقود، وعيْنا أثينا البوميّتان كامدتان، وأبولو مائل ميلانًا خطرًا إلى جانب واحد، كما لو أنه ينحني قلقًا فوق أخته الساقطة.

«والآن، لستُ أقول إن إهمال تماثيل الآلهة قد أغضبهم إلى درجة إرسالهم هذه الريح عقابًا. إنما أقول إن إهمال التماثيل دليل على إساءة أعظم بكثير؛ تخاذل في الاحترام الذي ندين به لذوَات أعظم منا بكثير».

كان كالخاس يتعرق في الحر، طلاء وجهه يتقشر، والخطوط الداكنة حول عينَيه تسيل، وقد جعله ذلك، إضافة إلى طوله الفارع، يبدو هو نفسه مثل تمثال متفسخ، ما يشبه إلهًا ثالث عشر!

قال: «أيها الأصدقاء، كلنا يعلم أنه وقتما تسقط مدينة عظيمة، تُفعل فِعال لا تحدث في عالم مثالي، وهذا ليس خطأ أحد، لستُ ألوم أحدًا، فالضرورة الوحشيّة للحرب التي فرضتها الآلهة نفسها على الإغريق، تجعل تصرفات كهذه حتميّة، لكن رغم ذلك، تظل الحقائق. لقد دُنست معابد الآلهة، وجُرّت نساء احتمَين خلف المذابح، واغتُصبن، وحتى الكاهنات العذارى لم يُرحَمن».

حرص كالخاس على ألا ينظر إلى أجاكس، لكن كل مَن سواه نظر ناحيته. أدركتُ فجأةً أن كساندرا واقفة بجواري، وعندما ألقيتُ نظرة إلى الأسفل، رأيتُ ابيضاض براجمها، وهي تقبض على السور.

واصل كالخاس: «ومن ثم، أُضرمَت النار في المعابد، وبعضها أُحرقت عن بكرة أبيها. أبينكم من يمكنه القول إن هذا ليس مبعث إساءة فاحشة؟ لكن الآلهة رحيمة، ولا تحتاج إلى ترميم معابدها، لكنها سترضى إذا ما أُصلحَت تماثيلها، وقدم الملوك القرابين أمامها، بعد أن يطهر كل رجل في المعسكر نفسه».

كان هذا أخف العقابات وطأة، ذلك أن فريقًا من النجارين المهرة -وثمة الكثير منهم في المعسكر- قادر على إصلاح التماثيل في غضون أسبوع. بدا أجاكس مرتاحًا -كما ينبغي له-، وحدثت ضجة عامة في المعسكر، ضجة ترويح التوتر. لكن كالخاس لم يتحرك، بل انتظر الجمهور ليستقر مجددًا، ثم قال: «في الكشف عن مشيئة الآلهة، أخوض مخاطرة الإساءة إلى قائد عظيم، رجل مفضال في بسالته ومهارته في القتال»، والتفتَ إلى أجاممنون قائلًا: «لا بد لي من طلب حمايتك يا سيد أجاممنون».

فرفع أجاممنون يده: «لك ما طلبتَ. انطق بلا خوف، كما تأمر الآلهة».

فقال كالخاس ثانية: «أصدقائي.. (أكان له صديق واحد في كل هذا الحشد الغفير؟ أشكُّ في ذلك!) «أصدقائي، كلنا يعلم أن زيوس برحمته قد سنّ قوانين للبشر، سيحرص العاقل على الإذعان لها، إذا ما كان يرغب برؤية أولاده وأحفاده يفلحون. وفوق كل ذلك، فقد سنّ لنا زيوس قوانين الضيافة، وصداقة الضيافة، والرباط المقدس الذي يربط المضيف والضيف معًا إلى الأبد. ونحن نعلم أيضًا أن هذه الرابطة متى ما تشكلت، تطغى على كل الولاءات الأخرى. ليس مباحًا لأصدقاء الضيافة أن يقتل واحدهم الآخر، حتى وإن كانوا يحاربون على أطراف متضادة في حرب ما. سيتذكر بعضكم أن ديوميديس واجه صديق ضيافة جده على أرض المعركة، ورفض قتاله متحريًّا الأصول بالمعنى الضيق للكلمة. لم يلُم أحد ديوميديس على ابتعاده عن تلك المواجهة، لأن قتل صديق ضيافة لا يُسوَغ أبدًا، ولا حتى في الحرب».

هبط الحاضرون إلى هدوء بالغ. لم يستطيعوا تبيُّن وجهة ما يجري، فقد ذُكر ديوميديس، لكن ليُبرَّأ ليس إلا، وبدا أجاكس المفضل لدى الجميع لدور كبير المسيئين خارج الموضوع. قال كالخاس: «والآن أبلغ الجزء العسير، كلكم يعلم أن أخيل العظيم وقتما كان حيًّا بيننا، قتل هيكتور ابن بريام، وكانت رغبته في الانتقام عارمة حد أنه جرّ جثة هيكتور عودةً إلى المعسكر، مُنزِلًا بها جراحًا لا حصر لها. جاء الملك بريام إلى أخيل ليلًا بمفرده، واستُقبل بكل أمارات اللياقة والاحترام، وعندما غادر بريام المعسكر، وجثة هيكتور في عربته، مشى معه أخيل إلى البوابة بكامل عدته وعتاده، وتجهز للدفاع عنه حتى أمام أقرانه الإغريق. ليس هناك من شك وارد في أن رابطة صداقة ضيافة

قد تشكلت بينهما، وتلك الرابطة آلت إلى ابن أخيل؛ السيد بيروس الذي قتل بريام على مذبح زيوس في طروادة. لقد قتل صديق ضيافة أبيه على مذبح زيوس، الرب الذي وهب الإنسان قوانين الضيافة. أيمكن أن توجَّه أيّ إهانة أعظم من هذه للرب؟ أصدقائي، إنه زيوس بذاته، أبو الآلهة والبشر، مَن يُبقينا محبوسين على هذا الشاطئ».

صارت كل الأعين معلقة على بيروس الآن. وبدا تالهًا؛ ينقّل نظرته المشدوهة من جانب إلى آخر. من الجليّ أنه لم يفكر ولو للحظة بأن نتيجة الاجتماع قد تكون كذا، ورأيتُ أوتوميدون ينحني إلى الأمام، ويضع يدًا مثبّتةً على كتفه.

تابع كالخاس: «والآن قد تقولون إن السيد بيروس لم يكُن عارفًا بالرابطة بين أبيه وبريام، وهذا قد يكون صحيحًا بحق، لكن إساءة ارتُكبَت عن جهل لا تزال إساءة، لذا أخلُص الآن إلى العقاب الذي يطلبه زيوس. يجب أن يُدفَن بريام بكل التكريم الذي يليق بملك، لكن قبل أن تُشعل المحرقة، ينبغي للسيد بيروس أن يضحي بفحله الأسوَد؛ واحد من الفريق الذي كان يقوده وقتما فاز بسباق العربات».

وثب بيروس على قدمَيه: «لا! لا، أيها الكَوْمة العطنة من خراء الكلاب، سأراك تبلغ الجحيم قبل ذلك».

مد ألكيموس يدًا ليردعه، فدفعه بيروس جانبًا، وانطلق عبر الميدان مستلًّا سيفه، وهو يمضي. هرع حراس أجاممنون إلى الأمام ليحموا كالخاس، الذي انكمش متراجعًا إلى تمثال زيوس رافعًا كلتا يديه ليحمي وجهه. بدا أن بيروس تردد في اللحظة الأخيرة، وطال تردده مدة كافية ليمسكه أوتوميدون من شعره، وينتر رأسه خلفًا. ثم تقدم ألكيموس أمام كالخاس رافعًا يديه ليظهر أنه أعزل، وتراجع الحراس بأمر من أجاممنون. وبحلول هذا الوقت، صار المرميدِيّون يطوّقون بيروس، الذي تعيَّن عليه أن يعاني إذلال تجريده من سلاحه، وجره بعيدًا على أيدي رجاله.

عمّ الاضطراب في كل أرجاء الميدان. كان الرجال قائمين من مجالسهم يلوّحون بأذرعهم ويصرخون، وطالب أجاممنون بالانتظام عدة مرات قبل أن يتدبر، جعل صوته مسموعًا. وقتما هدأ الحضور أخيرًا، شكر كالخاس على

كلماته الحكيمة، وقال إن انزعاج بيروس مفهوم، فهو شاب صغير في السن، وكما يعرفون جميعًا، فالشبان يفتقرون إلى حسن التقدير، وينبغي أن يتلقوا الإرشاد من الأكبر والأحكم... وهكذا كان واثقًا من أن السيد بيروس وقتما يحظى بوقت للتفكر سيرى الصواب، ويذعن للآلهة.

وبهذا، تشكل موكب أجاممنون من جديد، وغادر الميدان تاركًا مينيلاوس يتأمل في حقيقة أن حليفه الوحيد المتبقي في هذا المعسكر، الرجل الذي وعده للتو بالزواج بابنته؛ كان معيرًا. في غضون ذلك، بدأ المرميديّون في فوضى شاملة بالتحرك في جمهرة يتوسطها شَعر بيروس الأحمر، وكأنهم يحملون رفيقًا جريحًا من أرض المعركة. عدتُ إلى داخل الردهة، جلستُ على مقعد، وأرحتُ يديَّ على الطاولة، وجلسَت كساندرا التي تبعتني إلى الداخل قبالتي.

قالت:

- حســنًا، ماذا تفهمين من ذلك؟

لم أكُن محتاجة إلى سؤالها عمّا فهمَته هي؛ كان بؤبؤاها متوسعَين إلى درجة جعلَت عينَيها تبدوان سوداوين. تساءَلت عن مدى ارتباطها بخطاب كالخاس، الذي من نواحٍ عديدة لم يشبهه. لا تفسير أحلام، ولا إشارة إلى تحليق الطيور، ولا حتى عقاب بحر محصور في الأفق.

- كم من ذلك كان كلامكِ؟

هزت كتفَيها:

- أيشكل هذا فرقًا؟ لقد تعلمتُ ألا أتعلق أكثر مما ينبغي بنبوءاتي الخاصة، فهي لم تُصدَّق قط إلا وقتما أمكنني حمل رجل على نقلها. (نقرَت بأصابعها على الطاولة) ما زلتُ منتظرة سماع رأيك.
- لستُ أدري. بالطبع أريد رؤية بريام مدفونًا، لكنني أتمنى لو لم يخلط كالخاس الأمر بانتقامه الشخصيّ.
- شخصيّ...؟ أوه! أتقصدين الحصان؟ (كانت تحدّق إليَّ، وعيناها الصفراوان أكثر سطوعًا من أيّ وقت رأيتُهما فيه) إنه ليس كافيًا، لا يقترب من الكفاية، لكنني سأقبل به.

تبعتنا ريتسا وهيكاميد، وبدأت هيكاميد من فورها تنشط في تحضيرات العشاء، استعدادًا لعودة نسطور قريبًا.

فوقفتُ: «أظن أن علينا المغادرة».

كان الحشد يخفّ وقتما غادرنا الردهة، لكنني قررتُ المشي على طول الشاطئ بأيّ حال. كنتُ أعرف أن لا داعي للعجلة، فسيكون ألكيموس في الردهة مع بيروس وأوتوميدون، يحاول إعادة الأمور إلى نصابها. لم أحسده على هذه المهمة، فجوهريًّا، ينبغي أن يقتنع بيروس بالإذعان إلى الآلهة، والتضحية بالمخلوق الوحيد الذي بدا قادرًا على حُبّه، فيما خلا نفسه. ولم أكُن واثقة من الاستثناء.

31

رحتُ أتسكع على طول الشاطئ، وعندما بلغتُ المجمع مضيتُ رأسًا إلى كوخ النساء. وجدتُ معظم الفتيات في الفناء الخلفيّ، حيث تتجهز مايري لتحمم الطفل. كان راقدًا على بطانيّة، حُرًا من لفائف القماط والحفاض، يصدر أصوات قرقرة بسيطة راضية، ويركل بقدمَيه، وواحدة من الفتيات تحمل ورقة كتان لتحمي عينيه من الشمس. حالفنا حظ وافر من حيث حالته المزاجيّة، إذ كان يغط في النوم على الصدر، ثم يستيقظ، يرضع، وينام مجددًا. لم يجذب الانتباه قط بالصراخ من المغص لساعات من غير انقطاع، كما يفعل الكثير من الرضّع الأبكار، لكننا كنا أردأ حظًا بقليل من حيث مظهره. معظم الأطفال الذين يراهم المرء جائز أن يكونوا من كلا الجنسين، لكن ليس هذا؛ كان ملاكمًا ضئيلًا بحق، حتى أصابعه المفتولة بدت مثل قبضات.

خرجَت أندروماخي، وجلسَت بجواري، بينما رحتُ أسرد عليها ما حدث في الميدان. ضربنا تخمينات حول ما قد يفعله بيروس، واتفقنا على أننا غالبًا لن نُطلب لتقديم النبيذ على العشاء في تلك الليلة. لم يكُن الطفل بعيدًا عنها أكثر من بضع أقدام، لكنها لم تنظر إليه ولو لمرة واحدة، ورجعَت إلى الكوخ بعد مدة وجيزة.

بعد فينة، استلقيتُ على ظهري، وأغمضتُ عينيَّ، ورفعتُ وجهي إلى الشمس. كانت الغيوم الداكنة قد تفرقت، رغم أن الريح لا تزال تعصف بضراوة مثل أيّ وقت مضى، ومع ذلك كان المكان أكثر استتارًا من أيّ مكان آخر في المعسكر. تلاشت قفقفة الفتيات في المدى، وأظن أنني لا بد أخذَني الوسن، لكني بعدئذ خُضضتُ مستيقظةً فجأةً، مدركةً تدافعًا حولي، بينما تتحامل الفتيات على أنفسهن ليقفن. وعندما فتحتُ عينيَّ رأيتُ بيروس يشمخ

فوقي، فوق الجميع، وهناك رقد الطفل يقرقر ويغرغر، ويحاول إقحام قبضته في فمه. ألقى بيروس نظرة إليه، ورأيتُ سحنته تتغير، وإن شككتُ في أنه قد استوعب حقًا ما رأى؛ طفلًا عاريًا، وواضح جدًا أنه ذكر، لكن هذا لم يعنِ أنه لن يتذكره لاحقًا. إنها لمصيبة! نهضتُ واقفة ببطء، فانحنى وسأل إذا ما كان بوسعه التكلم إليَّ؛ وافقتُ بلا ريب، ومضينا إلى داخل الكوخ معًا. كان الجو باردًا في الداخل، لكن ذلك لم يُفِد إلا بإبراز كم الترنح والضلال الذي شعرتُ به. لم يجدر بي ترك نفسي أغط في النوم.

كانت عدة فتيات جالسات على أسرّتهن، يتحدثن، وواحدة منهن تمشط شعر أخرى. التفتْنَ بينما دخلنا، بَدَوْنَ فزعات بكل معنى الكلمة عند مرأى بيروس، فأشرتُ برأسي إلى جانب، وأسرعن خارجًا.

قال بيروس:

- لقد اقترح ألكيموس أن أتكلم إليكِ.

ثم صمت.. لا شيء، فانتظرتُ، أحاول باستماتة التفكير في شيء ما.. أيّ شيء، لأشتته عما رآه للتو.

- هلّا ذهبنا إلى الردهة في الطرف المقابل؟ (مثير للشفقة، لكنه أفضل ما وسعني فعله)، فالمكان مكتظ هنا.

كان هذا أقل بداعةً حتى، نظرًا لكوننا واقفين معًا في غرفة خالية من سوانا، لكن لم يبدُ أنه شكك في ذلك، بل مشى تلقائيًّا تجاه الباب وحسب. مشينا عبر الفناء، وصعودًا على درجات الشرفة إلى الردهة باهرة الإضاءة. كان أسل غض قد فُرش، والطاولات جاهزة للعشاء، ورأيتُ أن التجهيزات كانت متقدمة تقدمًا لا بأس به بحلول وقت إلغاء بيروس العشاء. بدأ يمشي عابرًا الممر الأوسط، وبالطبع تبعتُه، توقعتُ أن أؤخَذ عبره إلى غرفة المعيشة، لكن بدا أنه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة، وجلس بدلًا من ذلك إلى الطاولة الرأس على كرسي أخيل، لافًّا أصابعه داخل أفواه الأسود المزمجرة. انتصبت بجوار صحنه الكأس التراقية بإفريزها المزيّن برؤوس خيول لها أعرُف مسترسلة، فمد يده وتناولها، شابكًا أصابعه الثخينة حول عنقها.

- يقول ألكيموس إنك كنتِ هناك ليلة قدوم بريام.

قلتُ:

- نعم، كنتُ.

سأل الأسئلة نفسها التي سألها كالخاس، وجاوبتُ الأجوبة نفسها. كان البقاء منسلخةً أكثر صعوبة بالنسبة لي هذه المرة، لأنني كنتُ جالسة في الغرفة التي وقعت فيها هذه الوقائع. آنذاك، كنتُ واقفة خلف كرسي أخيل، مرهقة، وقدماي تؤلمانني، وأتحرّق شوقًا إلى انتهاء الأمسيّة. غير أن أخيل رغم إقلاعه عن التظاهر بالأكل، ظل جالسًا متراخيًا على كرسيه. لم يتسنَّ لأيّ شخص المغادرة حتى يغادر هو، لكنه بدا خدِرًا تقريبًا، مثلما بدا غالبًا في الأيام التي تلَت وفاة فطرقل. مرة في اليوم، وأحيانًا مرتين، كان ينهض نفسه ليشد وثاق جثة هيكتور إلى عربته، ويجره، بعد أن يطلق صيحته العظيمة للمعركة، ثلاث مرات حول جثوة قبر فطرقل، ليرجع إلى المعسكر بخيول مرغّاة، ووجه مكسوّ بالأوساخ. وعندها، يترك الجثة في فناء الإسطبل مسلوخة، كل عظامها مكسرة، وبشق الأنفس يمكن تمييز أنها جثة رجل. أحيانًا، وقتما كان أخيل يتهادى عائدًا إلى الردهة، كنتُ أرى وجهه مشوَّهًا بنفس الجراح التي أنزلها بهيكتور. لقد رآها، وأعرف أنه فعل، فقد شاهدتُه يرنو إلى المرآة، رافعًا يديه في حيرة ليلمس جلده.

كان بيروس ينصتُ مليًا وقتما وصلتُ إلى خاتمة القصة: «قال أخيل: «أوه! بلى، سأقاتل. لستُ بحاجة إلى طرواديّ ليعلمني الواجب تجاه ضيف!»».

- أواثقة أنتِ أن ذلك ما قاله؟

- بالحرف الواحد.

- نعم، لكن أتعتقدين أنه كان ليفعل ذلك حقًا؛ يقاتل الملوك الآخرين، لأجل بريام؟

- أعتقد ذلك، نعم، لم يكُن رجلًا يقول شيئًا، ويفعل آخر.

- حسنًا، إذن.. أفترض أن عليَّ قبول الأمر. لقد كانا صديقَي ضيافة. (كان يصفع سطح الطاولة بكلتا يديه، حركة مكبوتة بغرابة لم تُجدِ شيئًا في سبيل إخفاء العنف في الداخل) إنني متحسر على إيبوني فقط. لمَ ينبغي له أن يموت؟ لم يفعل شيئًا خاطئًا!

أكان ينتظر مني التعاطف مع حصانه حقًا؟ لكن الأمر الغريب هو أنني تعاطفتُ فعلًا. لم أرغب في أيّ وقت برؤية إيبوني هالكًا قط.

قلتُ:

- عليَّ أن أذهب.

فوقف من فوره:

- سأوصلكِ إلى كوخك.

- أوه! لا داعي، ما زال النهار واضحًا.

وقف على الدرجات، وطفق يراقبني أعبر الفناء. سرّني أنه لم يصر على مرافقتي إلى بابي. وعلى ذلك الحال، انتظرتُه حتى دخل ثم انسللتُ إلى كوخ النساء، حيث وجدتُ الفتيات محتشدات حول مايري التي كانت مذعورة، كما يجوز لها أن تفعل. خضتُ محادثة وجيزة عاجلة مع أندروماخي وهيلي، واتفقنا أن علينا إخراج الطفل. كان التكلم إليهما خيرًا، ذلك أني لو تُركتُ بمفردي، أظنني كنتُ لأُشلّ خوفًا من المبالغة في رد الفعل، من خلق مشكلة في سبيل حلّ أخرى. إذا ما فرّت، فستعرض مايري نفسها لكل العقوبات التي تُنزَل بالإماء الفارّات، وإنها لعقوبات بربريّة. كان من المريح معرفة أن البقية متفقات على الأخطار، فبيروس رجل حانق حاقد، صحيح أنه أهل سخاء غزير، وشجاع، لكنه همجيّ كذلك. فقتلُ طفل أندروماخي أمر جرى في الأعقاب المعجّلة للمعركة، وتحت أوامر مباشرة من أجاممنون. لا بد أن الضغط للامتثال كان هائلًا. لكن ماذا عن أمينا...؟ أيّ عذر يُبنى على ذلك، حقًا؟ لا، ليس لدينا سبب للثقة به. إذا ما أُجبِر على التضحية بإيبوني -ولم يكُن بوسعي استجلاء مهرب له من ذلك-، فستكون ردة فعله نشر الألم حوله إلى أكبر قدر ممكن من الناس. وبعد أن تعرض للإذلال على الملأ، سيرغب بوَسْم سلطته على رجاله، وعلى الإماء اللاتي كذبنَ عليه، ثانية، وتحدَّينه، ثانية. لم أخَل أن بوسعنا ترقب أيّ رحمة منه بتاتًا. وبطريقة ما، سيتحتم علينا إخراج الطفل، وينبغي أن يُنجز ذلك الليلة، بينما جميع من في المجمع منهمك بمتطلبات دفن بريام. وهكذا، اتفقنا ثم افترقنا. ذهبت هيلي لتنقل الأخبار المؤسفة إلى مايري، ورجعتُ أنا إلى المنزل لأنتظر، نظرًا لأن لا شيء يمكن فعله قبل هبوط الظلام.

32

بعد مراقبته بريزيس تمشي عابرةً الفناء، يستدير بيروس عائدًا إلى الردهة. السُرُج والشموع تلقي حلقات من الضوء على الصحون الفارغة. يجب أن يكون جائعًا بحلول هذا الوقت، وفي الحقيقة، يجب أن يكون ساغبًا، فهو لم يذُق لقمة منذ الفطور، لكنه ليس كذلك. وإن كان يغزوه شعور ما، فهو بعض الغثيان. تحرك، يقول لنفسه، لكن قدماه قد ضربتا جذورًا في الأرض. سالخًا الألفة عن عينَيه، يلاحظ ظلالًا تتصارع في العوارض الخشبيّة، نفس المعركة التي تخوضها كل يوم، تخلق شعورًا بالصراع مهما يكُن الاجتماع الجاري في الأسفل أنيسًا، وهذا لا يعني أنها أنيسة دائمًا. يفكر بهذه الخواطر التافهة الأشبه بالطُفاحة السطحيّة، كي لا يفكر بـ...

لا بد أنه يقف مكان وقوف بريام بالضبط تقريبًا في تلك الليلة، يحدِّق إلى صدر الردهة، إلى رجل يجلس متراخيًا على كرسيه، خَدِرًا مثل عَظاءة في يوم بارد. ولا يزال خطِرًا مع ذلك، فهو ينتقل من الخمول إلى الثائرة القاتلة في غضون ثوانٍ. كم قدر الشجاعة الذي لا بد تطلّبه البدء بتلك المشية على طول الممر بين الطاولات، وجدار من الظهور القوية ينتصب على كل جانب.

يبدأ بيروس المشي على خطوات بريام عبر الردهة تجاه الكرسي الخالي في آخرها، وإن لم يبدُ أنه يتحرك البتة، بل أقرب إلى أن الكرسي يأتي ناحيته. يتوقف أمامه، متأملًا استحالة أن يركع مثلما ركع بريام من قبل. كان قد قبض على ركبتَي أخيل (وضعيّة المتضرع)، وقال: «أنا أفعل ما لم يفعله رجل قبلي قط؛ أُقبِّل يدَي الرجل الذي قتل ابني».

وهنا حيث يفلت الأمر من يدي بيروس بالكامل، فحتى هذه النقطة يظن أنه يستوعب. لقد أظهر بريام بسالة جبارة في قيادته عربته وحيدًا وأعزل

إلى معسكر الإغريق، وكان أخيل ليتأثر بذلك.. كان ليتأثر بالبسالة دائمًا، لكن أهذه كلمات رجل شجاع حقًا؟ تبدو أشبه بالخضوع. ومع ذلك، كان في هذه النقطة أن بدأ سلوك أخيل بالتغير. فجأةً، يدعو بريام إلى غرفته الخاصة، ويجلب له أفخر النبيذ، ويخدّم عليه على العشاء، مثل خادم من العوام كما يبدو. لمَ لم يستدعِ ألكيموس وأوتوميدون إلى الغرفة، ويجعلهم يفعلونها؟ فقد كانت وظيفتهم التخديم على ضيف ملكيّ. وها هي ذي.. كلمة «ضيف». لم يكُن ضيفًا! لقد كان متطفلًا سار من الفناء إلى الداخل وحسب، لكن أخيل نفسه استخدم كلمة «ضيف»...

كان ذلك شيئًا بدا أن الجميع يتفق عليه؛ أن أخيل وبريام قد بدآ الليلة عدوَّين، وأنهياها صديقَين (صديقَي ضيافة) إلى حد أن أخيل كان مستعدًا لقتال أترابه الإغريق دفاعًا عنه. كيف يمكن للقاء واحد أن يدفع رجلًا إلى الانشقاق إلى درب مختلف عن الدرب الذي كان يتّبعه، بعزم لا يحيد مثل هذا، حتى ذلك الحين؟ لا يفهم بيروس الأمر. لقد تكلم إلى ألكيموس، وإلى أوتوميدون، وإلى بريزيس، ويعلم ما حدث بالضبط في تلك الليلة، لكنه لا يعي شيئًا منه. كيف يمكن لأبيه الذي كان بليّة الطرواديّين للعشر سنوات الأخيرة أن يصادق بريام، ويعرض عليه المساعدة وقتما تسقط طروادة؟! في أعمق وأحلك زوايا ذهن بيروس، تكمن فكرة أن أخيل لو عاش كان ليدافع عن بريام على درجات المذبح.

أين الجميع بأيّ حال؟ يقلّب نظره في الردهة الخاوية، ثم يتذكر أنه قد ألغى العشاء. أحسن... الليلة وقت يختلي فيه بنفسه، ذلك أنه في الغد... في الغد... الكل يقول إنه ما تطلبه الآلهة. لا، إنه -والجحيم- ليس كذلك. إنه ما يطلبه أجاممنون، ولا حتى ذلك، إنه ما يطلبه كالخاس. كان ينبغي أن أقتل ابن الحرام، لا أن أركل عجيزته وحسب. آه، حسنًا، لقد فات الأوان الآن...

الردهة وأصداؤها المطلسمة لا تُحتَمل، فيذهب إلى غرفة الجلوس، حيث كما جرت العادة؛ قد جهز أحدهم الجبن والنبيذ. يصب لنفسه كأسًا، ويبتلعها دفعة واحد، ثم يتناول الإبريق، ويشعر أن الحياة تضج في المرآة من خلفه. يرفض أن يعيرها أيّ اهتمام، ويصب لنفسه المزيد من النبيذ، و... مضجرًا مضجرًا يضع الكأس ببطء!

لا، استمر، استمر، افعل ما تفعله دائمًا!

لا يمكنه التجاهل أكثر من ذلك، لذا يستدير ويمشي ناحية المرآة، لكن بدلًا من أن يكبر انعكاسه مع اقترابه، يتضاءل حتى لا يكاد يكون أكثر من نقطة ضوء. سابقًا، وليس منذ زمن بعيد، اعتاد أن يرتدي درع أخيل، ويقف أمام المرآة مضيِّقًا عينَيه حتى تتغبّش الصورة، ويصير تصديق أن الرجل الواقف أمامه هو أخيل نفسه ممكنًا، فهو صورة عن أبيه، الكل يقول هذا، لكن ما يراه الآن هو أُنيسيان مهين. هو يعرف خير معرفة أن هذا ليس أخيل، أو أيّ تجلٍ آخر للحياة الآخرة. إنه هو... شطفة مقتطعة من دماغه الخاص.

ليس ثمة هروب إلى بابا الآن، أليس كذلك؟ لم يكُن ثمة هروب قط. أوه! لا بد أنه أمر قاسٍ، أن يكون المرء يتيمًا. بالطبع، فلا يوجد أيّ أطفال آخرين بلا آباء في اليونان، أليس كذلك؟ بربك يا رجل، تمالَك نفسكَ.

يحدِّق إليه.. إلى هذا الأُنيسيان المُستهزئ ذي الوجه الكاريكاتيريّ المأخوذ عن وجهه هو، ويتذكر بغتة شيئًا مريعًا، وهذا أحد الأمور التي يبرع هذا المخلوق فيها؛ اجترار ذكريات من الثفل في قعر الذهن، ولا تكون ذكريات طيبة أبدًا. بعد أول محاولة لدفن بريام أُحضِر هيلينوس للاستجواب. كان الرجل قد عُذب قبلًا، على يد أوديسيوس، وكان مستقتلًا ليخبرهم بكل شيء يعرفه، ما كان لا شيء. ومع ذلك، استلّ بيروس خنجره، وراح يقلّبه بتفكر مرارًا وتكرارًا، لتكشف الحركة عن ضوء أزرق على النصل. كان قد لاحظ -دون أن تبدو عليه الملاحظة- الخوف على وجه هيلينوس، والتوتر في عضلاته. لم تكن هناك من حاجة لاستخدام القوة، لكنه رغم ذلك ضغط الخنجر في بطن هيلينوس، وحشره قليلًا فقط، ما يكفي لجعل ساقية دم رقيقة تسيل. لم يحدث ضرر حقيقيّ؛ ألم ضئيل فقط، لكن لم يكن ثمة حاجة إليه. إنه مُستحٍ من الفعل الآن.. مُستحٍ من الإثارة التي شعر بها، ويشعر بها مجددًا، وهو يتذكر التردد اللاطوعيّ لأنفاس هيلينوس. فِعلة حقيرة لئيمة فَعلها، ولا تليق بجملتها بابن أخيل العظيم.

لكن هذا أنت، صحيح؟ صبي صغير أقذع، ينتزع أجنحة الذباب. أتتذكر فعلك ذلك؟

لستُ مضطرًا إلى الإنصات إليك.

أوه! لكنك تفعل، أليس كذلك؟ وستفعل دائمًا.

مستدعيًا كل قوته، يدير ظهره إلى المرآة، ويجذب عباءته منطلقًا خارجًا إلى الليل.

في الخارج، يتوقف قليلًا، وهو يتنفس هواء الليل البارد. الإسطبلات؟ لا، فرغم تعطشه إلى قضاء الوقت مع إيبوني، يمنعه خوفه من الألم. لاحقًا ربما، أو صباح الغد.. مبكرًا.. آنذاك سيذهب، ويشرف على تحضير الجريش المُخدّر -بل أفضل بعد، سيحضّره بنفسه-، ويزيّن إيبوني، ويهندم عُرفه، لكن ليس الآن، ليس الليلة. الليلة، يرغب بـ... بمَ يرغب؟ بالعقاب. إجابة مفاجئة، نظرًا لكونه لا يعلم أيّ جريمة يُفترض أنه ارتكبها، ولا يقبل أنه محط اللوم فعليًّا. كيف يُفترض له أن يعرف بصداقة الضيافة بين بريام وأخيل؟ إساءة ارتُكبَت عن جهل لا تزال إساءة. لا أعذار، ولا تسامح، ولا رحمة، ليسَت الآلهة إلا متعنتة. هو العقاب إذن، لكن ينبغي أن يُنزل العقاب به، لا بإيبوني.

ليس راغبًا بالصحبة، وبأيّ حال، لا توجد أماكن كثيرة في المعسكر قد يُرحب به فيها؛ سيذهب إلى البحر. لدى انطلاقه عبر الممر بين الكثبان، يدرك مرة أخرى أنه يتبع خطوات أخيل، مثلما يفعل حيثما يذهب في المعسكر. كيف تراه شعور أن يختار دربه الخاص...؟ لم يكُن ذلك ممكنًا قط. عند خروجه إلى الشاطئ، يرى موجة عملاقة تنفجر رعدًا وسُحبًا من الرذاذ، وخلف ذلك أمواج أخرى تتجمع بالفعل. عند حافة المياه، يقلع صندله راميًا إياه، ويترك غلالته تسقط حول كاحلَيه، ويُعد نفسه لبضع دقائق من البرد القارس قبل أن يتقيأه البحر على اليابسة من جديد. لا قفز درفيليّ الطراز مع الموجات له. يخوض قليلًا، ويشعر بخضخضة العُباب الصاعد على ركبتَيه، ثم عند تراجعه، بانسلال الرمل من بين أصابع قدميه. أترى أخيل العظيم حتى قد سبح في بحر كهذا؟ أوه! نعم، بكل تأكيد قد فعل، واستمتع بذلك أيضًا! يتقدم بيروس إنشًا أو اثنين بعد، بينما يستعرض البحر عضلاته متجهزًا لهجومه التالي...

«لم أكُن لأفعل ذلك لو كنتُ مكانك».

صوت رزين مبتهج. يستدير بيروس بسرعة، ويكاد ينقلب بينما تدركه الموجة التالية. يعجز عن رؤية أيّ شيء لعين. بسخافة، يرفع يدًا إلى عينَيه، كما لو أنه يقيهما من الشمس، رغم أن القمر هو ما يُبيّض الحصباء المبللة عند قدمَيه. يبدو الجسم الظليل الذي ينظر إلى الأسفل من على كَوْمة حصى

عالية، وكأنه يتمتع بقدمَين هائلتَين للغاية. يرتعد بيروس بعض الشيء، رغم إدراكه بعد ثانية أن ذلك ليس إلا هيلينوس، وقدماه لا تزالان ملفوفتَين بعدة طبقات من الخِرق. إنها لمصادفة مثيرة للعجب أن يراه بهذه العجالة بعد تذكُّر غَرز سكين في بطنه (وإن كان غرزًا طفيفًا، ولا يمكن أنه قد آلمه، أو ليس ألمًا ممضًا)، وتحمله الغرابة على الصمت. ينتظر من هيلينوس أن ينطق، لكن هيلينوس يهم بالابتعاد بالفعل، ربما شاعرًا بأن الصمت مُهدد.

يقول: «لا، لا تذهب»، فيقف هيلينوس من فوره. «ما الذي تفعله هنا؟»، يبدو ذلك مثل بداية استجواب آخر، وهذا آخر ما ينتويه.

- في الحقيقة، جئتُ لأغسل قدميَّ.
- حقًا؟
- أجل، فكما تعلم... الملح يفيد.
- أفترض أنه يفعل.

باحتراس، يجلس هيلينوس، ويبدأ بحلّ الخِرق. وبعدما تردد مدة يصعد بيروس المنحدر تجاهه، لكن ببطء، ولا يقترب أكثر مما يجب.

- قد يكون من الأفضل تركها تتهوّى.

يلوّي هيلينوس أصابع قدمَيه:

- نعم، أحسب أنك محق.

الجلد يشفى، لكن العقل لا. يعرف بيروس أن أوان إنهاء هذا اللقاء المحرج قد آن، وإن كان يقول لنفسه إن هيلينوس من بدأه، فهو ليس في مزاج يسمح بالتكلم البتة، لكن الفضول يحدوه الآن ليعرف لمَ فعل، لذا، مُخالفًا حُسن تقديره يراقب هيلينوس، وهو يخوض في الماء، ويجفل عند إزباد موجة حول كاحلَيه. ليس متزنًا على قدمَيه، رغم أنه يتقدم قليلًا قبل أن يستدير، ويجاهد نفسه لبلوغ الشاطئ. دون سابق تفكير، يمد بيروس يده إليه، فيقبض هيلينوس عليها، ضاحكًا بحَرَج من ضعفه، تاركًا نفسه ليُسحَب إلى اليابسة، ثم يُرخي يديه على ركبتَيه منقطعَ النفَس جراء الجهد. هو شديد السُمرة، وذو شعر غزير على رجلَيه، فتّله الماء إلى أهلة ودوائر، تمامًا مثل النُسُق التي ترسمها بعض

أصناف الطحالب البحريّة على الصخور. بطريقة ما، تُخلي رؤية هذا التشابه فسحة في ذهن بيروس، ويبدأ بالاسترخاء، يبدأ بالانفتاح بعض الشيء.

«تبدوان أفضل بكثير». تعليق سخيف، نظرًا لكونها المرة الأولى التي يراهما فيها. لم يبدُ أن أيّ شيء يقوله يخرج كما يجب.

«صرتُ أمشي أفضل قليلًا»، يرسل هيلينوس نظره إلى البحر، ثم يرجع به إلى بيروس:

- أستسبح؟

- لا، أظن أنني سأتخلى عن ذلك.

- غاية في الحكمة. (يتردد قليلًا) غدًا يوم حافل.

يقول بيروس، محاولًا إبقاء صوته محايدًا:

- لا بد أنك مغتبط.

- إنه الفعل الصائب.

- لستُ بحاجة إلى طرواديّ لـ... (يعض على أسنانه لاجمًا الكلمات) ليس سهلًا -كما تعلم- أن يكون المرء ابن أخيل.

يُصدر هيلينوس صوتًا بذيئًا:

- أوَتظنه أمرًا سهلًا أن يكون المرء ابن بريام؟ على الأقل لم تخُن أباك.

- لم أحظَ بالفرصة، أليس كذلك؟ لم ألتقِ المقيت قط.

لكن هذا إجمال وحشيّ زيادة، وصادق زيادة، حد أنه يفزعه مرجعًا إياه إلى كهفه.

- من الأفضل أن أذهب. ما زال ثمة الكثير لفعله.

يلتقط بيروس غلالته وصندله، ويبدأ بالمشي متجاوزًا هيلينوس الذي يضع يدًا على صدره ليوقفه.

- إنني آسف بشأن الحصان. لقد كان فريقًا رائعًا.

تبًا للفريق. إنه إيبوني! الألم لا يُطاق. يومئ برأسه بفظاظة، ويوسّع خطاه، لكنه لم يكُن قد ابتعد إلا بضع ياردات وقتما نادى هيلينوس من خلفه:

- وقتما كان أخيل العظيم حيًا، تحدى حتى الآلهة.

دون أن يتجشم عناء الالتفات، يصيح بيروس من فوق كتفه:

- أنّى لكَ أنتَ معرفة ذلك؟!

- الكل يعرف.

يهز بيروس رأسه فقط، ويعجّل مشيه؛ عليه الخلاص من البحر والرمل، والسحُب السوداء المنجرفة التي تُرمِّل القمر، عودةً إلى عالمه؛ القش والتِبن، وروائح الجلد وصابون السروج، ودفء كتف إيبوني، والانحناءة القوية لعنقه. عندما يصل إلى الإسطبلات، يجدها مهجورة. أين جميع الساسة؟ على الرأس البحريّ في الغالب. كلهم؟ كم رجلًا يتطلب بناء محرقة جنازة؟ إلا أنه لن يكون البناء ما يستغرق وقتًا، بل نقل الجذوع. يلاحظ أن أكشاك خيول عربات النقل خالية. على كلٍّ، لا يشكل غياب الرجال فرقًا، فالخيول قد أُطعمَت وسُقيَت، واستقرَت كلها لتخلد إلى النوم، وهو يفضل الوحدة بأيّ حال، لكن في لحظة تفكيره بذلك يهرع الصبي الأبله من غرفة التسريج، بصاقه يتطاير، ويتلعثم وهو يعرب عن توقه للمساعدة، فيرده بيروس بتلويحة من يده، ويمشي على طول صف الأكشاك. يصهل إيبوني مُرحّبًا، وينتقي بيروس بضع تفاحات ذابلة من كيس بجوار الباب، ويمنح واحدة لفينيكس أولًا، متظاهرًا كما يفعل دائمًا بحُب متكافئ لا يشعر به. أمر مُلغز ما يجعل بعض الخيول استثنائيّة، والبعض لا. روفُس كان استثنائيًا، وإيبوني كذلك.

بعد عبوره الممر الضيق، يضع تفاحة على راحة يده، ويمدها، ويتناولها إيبوني بلطف وتهذيب. الكثير من المضغ، وزبد من ريق أخضر على زاويتَي فمه، يتبعه عدة إيماءات وهزات من الرأس الجلَل. المزيد! «واحدة فقط إذن، لكنها الأخيرة؛ لقد نلتَ تبنك». لا يمكن أن تزيد المكافآت على ما ينبغي، ذلك أن روتين إيبوني يجب أن يبقى طبيعيًا بقدر المستطاع حتى اللحظة التي يرفع بيروس فيها سيفه. يلتقم إيبوني التفاحة التالية عن راحته. ثمة رُوَال أخضر يغطي أصابع بيروس الآن، فيمسحه على جانب غلالته، ويلتقط حفنة من القش النظيف، ويبدأ بمسح إيبوني. وليس ذلك ضروريًا، فشَعر إيبوني يسطع، مثلما يفعل دائمًا (إنه يُحاط بعناية أحسن من الكثير من الأطفال)، لكن بيروس يستمتع بفعلها. يتقوّس جسده بفعل التمسيد، ويستسلم للذة. ثمة ما هو منوِّم مغنطيسيًا في هذا، وإيبوني يشعر به كذلك، فتسري ارتعاشات وترجرجات عبر جلده. ليس

يندم على الماضي، ولا يتهيّب المستقبل، لكن في مؤخرة ذهن بيروس، ثمة دائمًا فكرة تدور حول ما سيجلبه الصباح. لم يبقَ إلا ساعات الآن. بينما يمرر يده فوق عنق إيبوني، يُقدر الزاوية والقوة الدقيقة للجرح؛ ذلك أنه هذه المرة لا ينبغي أن يحدث أيّ لهوجة خرقاء معيبة.. لا ينبغي لإيبوني أن يموت ميتة بريام.

يلقي بيروس القش أخيرًا، ويتراجع. هو يرغب في قضاء الليلة في الإسطبلات، في الجلوس مديرًا ظهره للحائط، مختطفًا أيّ قدر يستطيعه من النوم، لكنه يعجز عن ترك نفسه تفعل ذلك؛ ذلك أنه يحتاج إلى الراحة، وإيبوني يحتاج إلى روتينه الطبيعيّ. مبكرًا في صباح الغد، سيأتي ويشرف على تحضير الجريش المخدّر، رغم تساؤله عمّا إذا كان ذلك ضروريًا. أعسى إيبوني عند رؤيته حشود الناس تتجمع على الرأس البحريّ، يظن أنها بداية سباق آخر؟ إنه يحب السباق، ولأنه لم يتعرض لسوء معاملة قط، فهو لن يخاف، حتى وقتما يرفع بيروس السيف.

وقتما كان أخيل العظيم حيًا، تحدى الآلهة. تساءل عمّا كان هيلينوس يعنيه بذلك، وما إذا كان يقترح حقًا أنه ليس لزامًا على إيبوني الموت. إذا كان كذا، فهو أحمق. لا ينتظر الرجلَ الذي يتحدى الآلهة إلا الجنون والتهلكة. أخيل فعل. مرخيًا رأسه على رأس إيبوني، ينفخ بيروس بلطف في منخرَيه المضطرمَين، مثلما اعتاد فيما مضى، منذ أمد بعيد، أن يفعل مع روفُس، ويقول: «آسف يا إيبوني، آسف.. آسف.. آسف. لستُ ذلك الرجل».

بعد بضع دقائق، وهو يعثر كيفما اتفق على درجات الشرفة إلى الباب الرئيسيّ للردهة، يعجز عن ملاحظة رجل بارك في الظلال، لذا يشعر بخضة وقتما يتحرك. إنه هيلينوس بالطبع. لا وقت لهذا الآن، ولا صبر:

- ماذا تريد؟

- كان أبوانا صديقَي ضيافة، وهذا يعني أننا كذلك أيضًا. أقل ما يمكنك فعله هو تقديم بعض الطعام.

ينظر بيروس -وقد فتح فمه ليرفض بالفعل- إلى هيلينوس في الأسفل، ويدرك أنه بردان وجائع، وفزِع ووحيد. ثم يتذكر خواء غرفة معيشته؛ المرآة المستهزئة، والقيثارة الخرساء. حقًا، ما سيفعل غير ذلك؟ لذا يتنحى إلى جانب، ويوسِّع فتحة الباب قليلًا، ويسمح للمستقبل بالدخول.

33

حلّ الظلام أخيرًا في الخارج. قبل مغادرتي الكوخ، ملأتُ زبدية بتوت العُلَّيق، وأضفتُ حفنة من العصيدة اللزجة التي كان المقاتلون الإغريق مدمنين عليها إدمانًا لا تفسير له. وجدتُ مايري جالسة على سريرها، وطفلها يكرع من صدرها. بينما هيلي تُحوّم خلفها.

«ابقي ساكنةً للحظة»، سحقتُ بعض العُلَّيق على جانب الزبدية، ومزجتُها باللزوجة الرماديّة، وبدأتُ ألصقها على وجهها وصدرها. ليس كثيرًا، لكن ما يكفي لإقناع السؤول بالتراجع خطوة.

سألت هيلي:

- ماذا يُفترض بهذا أن يكون؟

- طاعون.

- طاعون؟ إنه لا يشبهه في شيء.

- ألديكِ أيّ أفكار أفضل؟

ناولتني مايري الطفل بينما فردَت الوشاح لتلفّه داخله. شعرتُ بوزنه الدافئ بين ذراعيَّ، وبرطوبة طفيفة على صدري. عندما خفضتُ نظري، رأيتُ عينَيه تبدآن بالانغلاق. نَم.. كُل.. نَم مجددًا. كان ثمة عروق زرقاء دقيقة على جفنَيه، وبثرة حليب صغيرة على شفته العليا. وقتما تجهزَت مايري، أعدتُه لها، وشعرتُ بخواء مرتعش حيث كان دفؤه. تجمعَت الفتيات حول مايري ليودِعنها، يرنون إلى طيّات وشاحها ساعياتٍ وراء لمحة أخيرة لوجه الطفل. كانت واحدة أو اثنتان منهن تبكين، فقد استثمرن الكثير من الأمل في ذاك الطفل، أكثر مما ينبغي بكثير. جميعنا فعل.

حينما صارت مايري مسجّاة بثوبها الأسود، قلتُ لها أن تلقي وداعًا أخيرًا، ومضيتُ لأنتظر بجوار الباب. جاءت أندروماخي، وتمنَّت لي حسن الحظ. تساءلتُ عمّا إذا كانت مغتبطة في سرّها، لأن مايري وطفلها راحلان. كانت المفاجأة -كما تكون غالبًا- هيلي، التي تبعتني ومايري إلى الشرفة، وقالت: «أنا قادمة»، بنبرة لم تَحتمِل أيّ جدال. «أوه! لستُ قادمة لأبقى، أعرف أني لن أقدر على البقاء، إنما ثمة أمان في كثرة العدد، وبأيّ حال، أنا لها».

جذبَت عباءتها إلى الخلف، ورأيتُ أنها كانت تحمل سكينًا، شيئًا خبيث المظهر ذا مقبض عظميّ ونصل طويل. لا بد أنها قد سرقَتها من الردهة في إحدى الأمسيّات التي رقصَت فيها بعد العشاء. لم أجِد منظرها مطمئنًا البتة. كانت هيلي قوية، لكنها لا تضاهي مقاتلًا إغريقيًّا، وفكرتُ في أنها ستسلمهم سلاحًا وحسب، وقد كانت ذات قوام جذاب، يرجح أن يجذب انتباه أيّ عابر. شعرتُ أنني ومايري سنكونان أكثر أمانًا وحدَينا، لكنها أرادت القدوم، ولم يكُن بمقدوري حرمانها من فرصة قضاء بضع دقائق إضافيّة مع صديقتها.

قلتُ في مضض: «حسنًا». أمكنني الانتباه إلى أنهما كانتا تنتظرانني لأرأس الطريق، فهما لم تخرجا من الكوخ منذ وصولهما، فيما خلا رحلات هيلي الوجيزة عبر الفناء إلى الردهة، لذا لا تمتلكان أدنى فكرة عن مخطط المعسكر. فقلتُ:

- سنسير على طول الشاطئ، هيا بنا من هذا الطريق.

قالت هيلي:

- إلى أين نحن ذاهبات؟

- إنني آخذة إياهما إلى كساندرا.

- أنتِ تثقين بها، أليس كذلك؟

- لا، لكنني أظن أنها ستوافق على المساعدة. وهي تتمتع بقدر معيّن من السطوة.

لقد فكرتُ بهذا طويلًا. ريتسا وهيكاميد كانتا لتساعدا لو أمكنهما ذلك، لكن بواقعيّة، ما عساهما تأملان فعله؟ كان ينبغي أن تكون كساندرا.

تدرجنا حول حواف الفناء ملتزمات الظلال بقدر المستطاع. كانت أعصابي مشدودة خوفًا من أن يستيقظ الطفل فجأةً ويصرخ، وعندما عبرنا حلقة ضوء نابعة عن مشعل، لاحظتُ أنه صاحٍ، لكنه لم يتحرك، ولم يصدر صوتًا. ربما سكّنته حركة المشي، أو ربما، مثل الكثير من صغار الحيوانات، كان يدرك أن عليه البقاء صامتًا وقتما توجد مفترسات في الجوار. سرعان ما تركنا ضوء المشعل والمواقد خلفنا، وانطلقنا نعبر الممر المؤدي إلى الشاطئ. أخذ ظِل القمر يختفي خلف الغمائم السوداء، لكن العتمة لم تزعجني، فقد كان هذا واحدًا من الممرات التي غالبًا ما عبرتُها قبل الفجر، أو أحيانًا في وقت متأخر من الليل في أيامي الأولى في المعسكر. ليس في هذا الوقت في العادة، ذلك أنني كنتُ مُكلّفة بتقديم النبيذ في الردهة.

عندما خرجنا إلى الشاطئ، بدأتُ أسترخي قليلًا، غير أنني بعدئذ جمدتُ على الفور عند مرأى رجلَين يقفان على حافة المياه. كان أحدهما قد خاض قليلًا، وبدا يتجهز للسباحة، وسمعتُ صوتَيهما بين تكسّر الموجات، لكنني عجزتُ عن استيضاح الكلمات. بدا أحدهما يشبه بيروس بعض الشيء، لكنني لم أستطِع التيقن، لأن شعره بدا أسود تحت ضوء القمر. لم أجرؤ على التحرك خشية جذب انتباههما، لكننا كنا بحاجة إلى قسط من الراحة بأيّ حال، فقد كانت مايري تلهث لالتقاط أنفاسها. لم تكُن لتُصنّف امرأة سليمة في أفضل حالاتها، وقد خسرَت دمًا جمًّا بعد الولادة. لدى التفاتي إلى يميني، رفعتُ طرفي إلى الرأس البحريّ، ورأيتُ أشكالًا داكنة لرجال يحملون مشاعل، ويتحركون في المكان، وظلالهم العملاقة تترجرج على العشب. لا بد أنهم يبنون محرقة جنازة بريام. حدَّقتُ إلى يساري باحتراز خارج ظِل ممر الكثبان، ورأيتُ أن الأرض خالية. كان واحد من الرجلَين على حافة المياه قد التقط غلالته، وراح يوسِّع خطاه مبتعدًا، وبعد برهة نهض الآخر لاحقًا به.

صار تنفُّس مايري أكثر سهولةً الآن، فقلتُ: «هيا بنا، فلنتابع سيرنا».

لشعوري بأن الشاطئ مكشوف أكثر مما ينبغي، قدتُ الطريق على طول سطر السفن المحمولة الذي يطوّق الخليج. كنا نتحرك في انبثاقات سريعة، مندفعات من رقعة ظِل إلى التالية. منذ لحظة وصولي إلى المعسكر، كانت الدندنة المتواصلة لحبال الأشرعة على الصواري قد لازمَت أحلامي. كنتُ

أحسّه آنذاك صوت دماغ لم يعُد في قوس صبره مَنزَع، لكنني بتُّ أقوى الآن، ومُسخِرةً جُلّ تركيزي لإيصال مايري والطفل إلى برّ الأمان، أو ما كان يبدو أمانًا في المعسكر، إذ لا توجد ضمانات لأيّ شخص.

وقتما صِرنا بموازاة الميدان، اندفعَت مجموعة كبيرة من مقاتلين، يحمل الكثير منهم مشاعل من بين السفن، وانسالوا إلى الشاطئ. شرع معظمهم بالركض، متجهين في الغالب إلى المجمع التالي بحثًا عن المشروب، لكن صادف أن انتبه لنا ثلاثة متخلفين عنهم، ونحن واقفات في ظِل هياكل السفن، تلكّأ واحد منهم للحظة، ثم هز كتفَيه، وتحرك مبتعدًا.

«مرحبًا يا فتيات!».

كان الرجل قبالتي نحيلًا، وعرقانًا، ومُبالغًا في الثمالة. ليس فاحشًا، ولا مُهددًا، أو ربما ليس بَعد. لم أرَ طريقة لتفاديه، ولا طريقًا للعودة: أي في واقع الأمر كنا محاصرات في فرجة ضيقة بين سفينتَين، فلففتُ ذراعي حول مايري، وجعلتُ من حمايتي لها أمرًا بالغ الوضوح. فعلت هيلي المثل، لكنني شعرتُ بها تتصلب، وأمِلتُ أنها لم تكُن تستل السكين. قلتُ: «نحن في طريقنا إلى المستشفى، إنها مصابة بالحُمّى. ما كنتُ لأقترب منها زيادةً»، فتمعّن في مايري، التي كانت تتعرق وتنهج من غير حاجة إلى التمثيل، فنصف ساعة من التخبط عبر الرمل الرخو كانت قد أنهكت طاقتها عن آخرها. «أظن أنه الطاعون»، وبعد أن فهِمَت التلميح، جذبت هيلي حجاب مايري عن وجهها وعنقها، في حين قبضتُ على الوشاح لأحرص على بقاء الطفل خفيًّا. عند رؤيتها على ضوء المشعل في ظِل السفن، بدَت القشور الأرجوانيّة التي كانت غير مقنعة البتة في الكوخ مرعبة تمامًا، ذلك أن خشية الوباء مزية راسخة للحياة في المعسكر، فمنذ أقل من عام حدث تفشٍ خبيث بحق، ومعظم الرجال يعرفون شخصًا ما مات إثره آنذاك. تجمد الرجل في مكانه، وصاح آخر من خلفه: «هيا! دعكَ من ذلك»، فاستدار وفرّ، رغم أنه وقتما بلغ مسافة آمنة توقف، وتمنّى لنا حظًّا ميمونًا. لمحتُ بطرف عيني وميض سكين هيلي: «ألا تُبعدين ذلك الشيء اللعين؟!».

وإن كان عليَّ الاعتراف بأنني شعرتُ بحال أفضل بوجود هيلي، فقد كان تدبُّر مايري والطفل بمفردي ليكون أكثر مشقة. على ذاك النحو، انتهى بي

الأمر أن أحمل الطفل، بينما سندَت هيلي مايري، ولحسن الحظ لم نلتقِ أحدًا آخر. سمعنا صراخًا، وغناءً صادرًا عن رجال يشربون حول المواقد، رغم ظنّي أنهم كانوا أخفت من المعتاد إلى حد ما. لم يعرف أحد ما ينبغي له توقُّعه بالضبط في اليوم التالي. وصلنا أخيرًا إلى مجمع أجاممنون، ولأول مرة، لم يكُن أمامي وقت للإسهاب في شعور الوَحشَة الذي دائمًا ما دهاني في لحظة عبوري البوابة. يقبع المستشفى أمامنا مباشرة، وضوء الفوانيس داخله يجعل الخيش يتوقد. تركتُ البقية خارجًا، وغطستُ من تحت السديلة، وبحثتُ عن ريتسا. ثمة امرأتان على المقعد تملآن أباريق نبيذ، لكن ريتسا ليست بينهما. لا بد أنها مع كساندرا، لم أستطِع التفكير في مكان آخر قد تكون فيه.

ذاعت من ردهة أجاممنون أصوات أكل وشرب، وغناء متقطع، وضحك، وصلصلة قدور وصحون، لكن الفناء في الخارج كان ساكنًا. طرقتُ باب كساندرا، ففتحَت خادمة، وبدا من الواضح أنها كارهة إدخالنا، لكن آنذاك سمعتُ كساندرا تسأل: «من في الباب؟»، فصحتُ باسمي، وبعد دقيقة دعَتنا الخادمة لندخل. وقفَت مايري وهيلي محتارتَين في أول مدخل الباب، بينما مضيتُ إلى غرفة المعيشة، وكلمتُ كساندرا. وجدتُها محلولة الشعر، ترتدي ثوبًا أصفر لا يلائمها، وقلادة أمي.

«ما الأمر؟»، لم تنظر في عيني، وبلغني انطباع أنها خَجِلة من أن تُرى على هذه الشاكلة؛ لابسة بقصد الإثارة والإغواء، وليست تبرع بذلك لافتقارها التام إلى الخبرة. بالطبع، سينتهي العشاء في الردهة عاجلًا، وستكون منتظرةً دعوة إلى سرير أجاممنون. تساءلتُ عن شعورها تجاه ذلك، فمن المفهوم أن ترى نفسها تجتاح بوابات هاديس مكلّلة بالغار، يهلّل لها جميع موتى الطرواديّين بصفتها فاتحة، لكن أمامها الكثير من الاستلقاء على ظهرها بينما يلهث أجاممنون، ويتعرق فوقها لتجتازه قبلًا، لكن أعساها لم تمانع ذلك؟ بل ربما استمتعت به، فهي لم تختَر أن تكون كاهنة عذراء، إنما اتخذَت هيكوبا هذا القرار نيابةً عنها.

كنتُ على وشك تفسير مجيئي، وقتما دخلت ريتسا، التي لا بد سمعَت صوتي، حاملةً تاجًا وخمارًا، فصاحت بها كساندرا أن تضعها، وقالت بعد أن

استدارت ناحيتي ثانية: «إذن؟ بمَ يمكنني خدمتك؟»، وبدت نبرتها مُسربلة بالعدوانيّة.

شرحتُ المشكلة، ولاعتقادي بأن الطفل قد يكون خير مُحامٍ عن نفسه، ناديتُ مايري وهيلي لتدخلا. كانت مايري قد حاولَت حفّ العُلَّيق «القروح»، فصار وجهها الآن بكامله أرجوانيًّا، وبدَت هيلي شرِسة. ألقَت كساندرا نظرة ناحيتهما مودعةً إياهما على الفور في طبقة بعيدة عن مجال اهتمامها أشد البعد. أزاحت مايري طيّات وشاحها عن وجه الطفل في اعتقاد واضح أن مرآه قد يثير إشفاق كساندرا، ورفَّت نظرتها إليه بالفعل رفة وجيزة، لكن تعابيرها كانت عصيَّة على القراءة. لا بد أنها قد هجرَت الأمل بالأمومة منذ سنوات، وبما أنها بكل وضوح مصدقة نبوءتها القائلة بأنها وأجاممنون مقدر أن يموتا قريبًا، فلا احتمال للأمومة في المستقبل أيضًا. ما عسى الطفل يكون في نظرها سوى منبع ألم، وربما ندم! ظننتُ أنه قد يقسّيها بَعْدُ ناحيتنا، لكنها في الحقيقة أشاحت عنا فقط، والتقطَت التاج، وبدأَت تعبث به شاردة الذهن، ثم قالت أخيرًا: «أوه! حسنًا. أحسب أن بوسعها العمل في المطبخ»، ونظرَت إلى ريتسا: «هلّا اعتنيتِ بذلك؟». ألقَت ريتسا نظرة إليَّ، ثم فردَت ذراعَيها، وقشَّت مايري وهيلي عن الباب، كما لو كانت تسوق إوزًّا!

ربما توقعَتْني كساندرا أن أغادر معهما، لكنني قعدتُ قبالتها بدلًا من ذلك. أردتُ أن أمنح هيلي وقتًا وفيرًا لتودّع صديقتها، فانتظرتُ حتى سمعتُ الباب الأمامي ينغلق:

- لستِ تُقدّمين النبيذ على العشاء إذن؟

- أنا زوجته.

فقلتُ:

- أوه! نعم بالطبع. الأمر مختلف تمامًا.

هناك كنا، امرأتان تشاركَتا سرير أجاممنون، ومضطرتان إلى التكلم، لأن الأخلاق الحميدة تستوجب ذلك، لكن المحادثة كانت تسير ببطء ومشقة وحسب، يثقلها ما لم نقُله. لم تستطِع حمل نفسها على النظر إليَّ. أشك في أن كساندرا قد حظيَت بمحادثة حميميّة مع امرأة أخرى بحياتها. وأخيرًا، بعد وقفة مُربِكة، قالت:

- كيف كان الأمر بالنسبة لك؟

- وحشيًّا.

أرسلَت نظرة في اتجاهي.

- كان حانقًا على أخيل، وكان ينفِّس عن حنقه فيَّ.

- كل مرة؟

ضحكتُ:

- ليست إلا مرتين. ومن ثم وقف في الميدان، وأقسم بكل الآلهة أنه لم يمسسني.

- أصدّقه أخيل؟

- لا! (نظرتُ إليها) أنتِ زوجته، وإنك لمحقّة، ليس الأمران سيان.

- يقول كالخاس إن الزواج ليس شرعيًّا.

- هو شرعيّ إن قال أجاممنون إنه كذلك، فهو الشريعة.

كنتُ أحاول مد ريتسا بوفرة من الوقت لتوطّن مايري. أملتُ أن الأمر سينجح وحسب، وأن الطباخ في مطبخ أجاممنون لن يعترض، لكنهم دائمًا ما بدوا بحاجة إلى عمال، ومايري تتمتع بخبرة في أعمال المطبخ. لم يكُن أجاممنون ليعرف حتى بوجودها هناك. قلقتُ أكثر على هيلي، ذلك أنها ليست امرأة سهلة المصادقة، وهذه الخسارة لن تكون بسيطة، لكن حقيقةً، وجدتُ كساندرا في هذا الوضع المُغيظ الدفاعيّ صعبة على التحمُل إلى حد ما، وكان انفتاح الباب مَفرَجًا. رفعتُ بصري متوقعةً رؤية ريتسا، لكن دخلت الخادمة تنقل دعوة أجاممنون. نهضَت كساندرا، وراحَت تنظر بعجز تام إلى التاج والخمار، فالتقطتُهما، وبدأتُ أدبّسهما في مكانهما. بدَت منفعلة، ذلك أن الأضواء الحمراء داخل أحجار الأوبال جعلت تتقلْقَل مع كل نفَس. كانت تفصل بين وجهَينا بوصات فقط، لكنها تحمّلَت أصابعي في شعرها، وأنفاسي على جلدها، وتمكنَت من تجاوز المسألة المُربِكة بأَسرها دون أن تنظر في عينيَّ ولو مرة واحدة. قالت، وهي تتراجع إلى مسافة أكثر إراحة: «متأكدة أن ريتسا سترجع عاجلًا، ومُرحَّب بكِ إن شئتِ انتظارها».

بعد أن غادرَت، جلستُ وحيدة تحت ضوء السراج حتى عادت ريتسا وهيلي دون مايري: «لا تقلقي بشأنهما، سيكونان على خير ما يرام. سأراقبهما على الدوام، والطباخ ليس شخصًا سيئًا». ضممتُها متمنيةً لو حظينا بفرصة أفضل للكلام، لكن شاعرة بوطأة إيصال هيلي بأمان إلى كوخ النساء. مشَت ريتسا معنا إلى الباب، ولوّحت مودّعة.

مشينا على طول الشاطئ، ملتزمات بقدر المستطاع بحِمَى السفن. كان القمر يغدو ويروح على صفحة الماء، وهيلي لا تزال لم تنطق. لو أنها إحدى الفتيات الأخريات للففتُها بذراعي، وربما ضممتُها، لكن لا يمكن فعل ذلك مع هيلي. لم يكُن الجسد الذي مرّنَته أشد التمرين، وعرضَته بأتمّ الغطرسة مخصصًا للمس، بل كان درعًا -كما ظننتُ- أكثر منه لحمًا.

تودعنا عند باب كوخ النساء. لم أشعر برغبة في الدخول، وسيكون بمقدور هيلي إخبارهم بما حدث. في اللحظة الأخيرة، عندما كانت موشكة على عبور العتبة، نظرَت خلفًا، ورفعَت قبضة مجموعة، وبدا أنها تقول: «لقد فعلناها، لقد أخرجناهما».

ظهر ظنها أنهما صارا في أمان الآن واضحًا، وربما كانا كذلك، آمَن بأيّ حال من بقائهما في مجمع بيروس.

34

لم تجرِ العادة على أن تحضر النساء الجنازات، لذا لم أتوقع الذهاب إلى جنازة برِيام. ومنذ الصباح الباكر، طفق المعسكر يطنُّ ترقُّبًا. شيّد المرميديّون محرقة عملاقة على الرأس البحريّ قرب مراعي الخيل، وجُلِب درع بريام من غرفة التخزين، ولُمِّع حتى ائتلق. أما عن نفسي، فكان ينبغي ليوم من الجلوس وحيدةً في كوخي أن يكون يوم سلوان حقيقيّ -رغم شحّه-، لكن بدلًا من ذلك شعرتُ بهلع متصاعد. لم أعرف أين أريد أن أكون، لذا في آخر الأمر قررتُ الخروج والمشي على الشاطئ وحسب، والتفكير ببريام، وأمينا كذلك.

في العادة، يكون الشاطئ مهجورًا في هذا الوقت من النهار، لكنه اليوم مسودّ بحشود الرجال المجتمعين عند حافة الماء ليطهروا أنفسهم. معظم الرجال يدهنون الزيت على أبدانهم، وعادةً ما يكون هذا فعلًا بهيجًا بعد حمّام ساخن، لكن هنا، والريح تذرو التراب في كل مكان، تراب يلتصق بالزيت، ويتعيَّن سحجه سحجًا أليمًا، يعقبه غمس في البحر البارد المرقّط بسحُب من الزبد الأصفر الوسِخ... ليس بهيجًا جدًا. شرع أحدهم بإنشاد ترتيلة لزيوس، لكن غرق صوت المغني في نشاز من الصرخات وقتما لطم الماء المالح الجلد المسحوج.

احتميتُ قرب السفن، ورحتُ أراقب، لكن انعزالي العمديّ بدأ يبدو أنانيًّا بعد بعض الوقت، فثمة آخرون في المعسكر لديهم أسباب أسى أكثر مني، هيكوبا -على سبيل المثال- هيكوبا قبل الجميع. لذا أدرتُ ظهري للشاطئ، الذي صار أكثر اكتظاظًا من المعسكر، وشققتُ طريقي إلى كوخها. وجدتُها خارج السرير لابسةً غلالة نظيفة، تلمع بقعتان دقّيتان على خدَيها المضنيَّين، لم يكُن إلا منذ عهد قريب أن ظننتُها لن تعيش يومًا آخر، لكنني قد افترضتُ

ذلك من غير حساب القوة الخالصة للإرادة التي حملَتها على المواصلة. ركعتُ لألمس قدمَيها، وعندما وقفتُ جذبتني إلى ذراعَيها وعانقَتني، وبالكاد لمس تاجُ رأسها ذقني.

قالت، وهي تسوّي شعرها لتحرص أنه مُرتَّب: «لقد أرسلتُ في طلبِ أوديسيوس».

أرسلتِ في طلبه؟ إنها أمَته! وأنا أنظر إلى عينَيها البراقتَين بريقًا محمومًا، ظننتُ أن عقلها قد ولّى أخيرًا، فلا تنطق بهذا إلا امرأة مخبولة. قلتُ بأقصى نبرة مهدئة قدرتُ عليها: «حسنًا، كما تعلمين، قد لا يأتي...»، فربّتت على ذراعي بعطف بادٍ: «سيفعل».

كانت على قدر من الحماسة منعها من الثبات، فظلت تشنّ غزوات وجيزة على أنحاء الكوخ، مثل بنت صغيرة مُنِحَت ملابس جديدة لعيد ميلادها، ولمّا يُسمَح لها بارتدائها. أخيرًا، أقنعتُها بالقعود والحفاظ على طاقتها. قلتُ: «إنها طريق طويلة، ولستِ ترغبين بإنهاك نفسك». لم أكُن مصدّقة أنها ستذهب إلى أيّ مكان. ناولتُها كأسًا من النبيذ المُخفَف، لكنها نحّته جانبًا بعد بضع رشفات فقط. رفعَت بصرها وقتما أظلَم المدخل، وكان جليًّا أنها تترقب رؤية أوديسيوس، لكنها لم تكُن إلا هيكاميد جالبةً خبزًا وجبنًا؛ جبنًا أبيض هشًا نديًا مصنوعًا بالأعشاب، وخبزًا ساخنًا من الفرن، لكن هيكوبا لم تستطِع أكل شيء، وبدا قلة احترام من طرفنا أن نأكل دونها.

قالت هيكاميد:

- نسطور ذاهب إلى الجنازة. يقول كالخاس إنه يتعيَّن على كل الملوك أن يحضروا.

تهلّل وجه هيكوبا:

- حسنًا، إذا كان بوسع ذاك العجوز الهرِم الأعوه الوصول إلى هناك، فإنني -والجحيم- لواثقة أن بوسعي ذلك. سأمشي إذا ما اضطُررتُ، أو سأطلب من أحد أولئك الشبان أن يحملني على ظهره.

فقلتُ:

- لن تفعلي!

لم يغلب أن تمكنتُ من التعامل بحزم مع هيكوبا، لكن هذا كان مبالغًا فيه بحق.

بعد بضع دقائق، عتّم شكل آخر الباب المفتوح، ومرة أخرى رفعت هيكوبا بصرها. سمعتُها حقيقةً تزفر اسم أوديسيوس، لكنه لم يكن هو أيضًا، بل كساندرا؛ طويلة، وشابة، ومكينة، وباذخة الملبس، ملكة موكناي المستقبليّة فعلًا. قد لا تتمتع بالمنزلة إلا بضعة أيام، أو أسابيع في الحد الأقصى، لكنها كانت منتوية تحقيق أقصى استفادة منها. تحاملتُ وهيكاميد على نفسَينا لنُحَييها، وهمدَت هيكوبا همودًا شديدًا.

لم يبدُ لقاءً بين أم وابنة. كنتُ قد قضيتُ وقتًا طويلًا من حياتي أفتقد أمي حد أنني توقعتُ دموعًا، عناقاتٍ، وفاقًا... لكن لم يحدث أيٌّ من هذا. تقدمت كساندرا -على مضض، كما ظننتُ-، وجثَت ولمسَت قدمَي أمها قبل أن تقدم خدها في عناق مُحرِج على طول الذراع. كانت ترتدي ثوبًا أخضر مع حزام من الزخرفة المتقنة، وبدَت غريبة غرابة طائر استوائيّ في الكوخ الضئيل الحقير. بعدما انتهى العناق، قعدَت هيكوبا على عقبَيها، وراحت ترنو إلى كساندرا بعينَين ساطعتَين مرتابتَين. شعرتُ بكثير من الألم الكامن فيهما، لكنها أبقَته مخفيًّا جيدًا.

قالت، وهي تستوعب الفستان، والشعر المُزيّن بإسهاب، والقلادة، والخواتم:

- كساندرا، تبدين بخير حال.
- أنا بأحسن حال. (وقفة موتورة) أتعرفين أنني متزوجة؟
- أجل، إذن فقد فعلها حقًا... عليَّ القول إنني لم أحسبه سيفعل قط. ما تظنين سيكون رأي زوجته في ذلك إذن؟
- أتصور أنها لن تُسَر.

دون تكليف نفسها عناء إخفاء نفورها مما يحيط بها، قعدَت كساندرا، طاويةً قدمَيها بعناية تضاهي عناية قطة. أيًّا تكُن محاولات التواصل الحقيقيّ التي قد تجنح لها هاتان الاثنتان، فلا يمكن إلا أن تُعاق بوجود آخرين، لذا أشرتُ برأسي ناحية الباب، وتركناهما أنا وهيكاميد وحدهما. خارجًا في الشرفة، شعرتُ بالحبور لمرأى ظَهر ريتسا العريض، وكتلة شعرها الكثيف

قشّيّ اللون، فجلستُ بجوارها، تعانقنا، وبكَينا قليلًا، ثم استدرنا لنرقب الرجال يصلحون التماثيل في الميدان.

- إذن، أنتِ خادمة كساندرا الآن؟

- يبدو كذلك.

- أتذهبين إلى المستشفى أبدًا؟

- ليس كثيرًا، فقد انخفض قَدر العمل عن سابق عهده. بضعة شبان حمقى يمزق بعضهم شقفًا من بعض، لكن هذا كل ما في الأمر.

لا فرق يشكله ذلك، فريتسا مُداوية، وبإمكان كساندرا جعل أيّ امرأة في مجمع أجاممنون خادمتها.

لمسَت هيكاميد ذراعي: «عليَّ الذهاب، فسيحتاج نسطور إلى الكثير من المساعدة ليجهز».

راقبناها تسير مبتعدة عبر الميدان، شاقةً طريقها بحذر بين الآلهة الساقطة.

سألتُ:

- كيف حالها؟

قاصدةً كساندرا.

- لا تزال متقلبة بعض الشيء. هي كالطفل أحيانًا، لكن، كما تعلمين... رأيتُها في أسوأ حالاتها، وهي تبول على نفسها في بعض الأوقات. وهي امرأة شمّاء. في بعض الأيام، لا يمكنها احتمال رؤيتي.

- ينبغي أن تكون ممتنةً امتنانًا مسرفًا.

- أجـــل، لكن كلتينا تعلم أن الأمر لا يسير على هذا النحو.

راقبنا فرقة من الرجال تخفض تمثال أثينا إلى الأرض، اثنان منهم يجذبان الحبال، والبقية يرفعون أيديهم ليثبتوها في حال عانت ضررًا أشد وطأة بعد جراء هبوط مباغت أكثر مما يجب.

قالت ريتسا:

- بأيّ حال، يجب أن تكوني راضية، فقد أُحرِقَت جثة بريام.

- ليس بعد!

- لا، لكنها ستُحرق. وبالنسبة إلى ذاك الوقح الصغير... كنتُ أخال كالخاس قادرًا على فعل أكثر من ذلك بكثير. أود لو أراه يتبع جثة بريام على أربع، لكنه سيفقد الحصان على الأقل، رغم أنه لا يساوي الكثير، أليس كذلك، حصان مقابل حياة طفل؟

تساءلتُ أيّ طفل تقصد، طفل أندروماخي؟ بوليكسينا؟ أمينا؟ لا بد أن الفتيات بدَون كالأطفال بالنسبة لها. كنتُ على وشك التعليق بشيء ما، لكن في تلك اللحظة هبط ظِل علينا، فرفعتُ بصري وكان.. على نحو لا يُصدَّق.. أوديسيوس. تنحينا على طول العتبة لنسمح له بالمرور، فغطس برأسه، ودخل الكوخ.

بدا على ريتسا الذهول بقدر ما شعرتُ به، فقلتُ:

- أتعرفين أنها بالفعل قد أَرسلَت في طلبه؟

- حسنًا، هذا يثبت صحة كلامي؛ تؤخَذين بحسب تقييمك لنفسك في هذه الحياة. في عقلها، لا تزال ملكة.

جاءت غمغمة محادثة من خلفنا؛ أوديسيوس.. هدير خفيض، وهيكوبا.. واهنة، ومنقطعة النفس، وعازمة، وكساندرا.. انتحاب أنفيّ نفّاذ وطفيف إلى أبعد حد.

- ما قدر علاقتها بخطاب كالخاس؟

هزّت ريتسا كتفيها:

- لستُ أدري. لقد صاغاه فيما بينهما، لكنهما ما كانا ليقدما على فعلها دونكِ. فعلى ما يبدو، لم يكن ألكيموس وأوتوميدون توّاقَين للتكلم، حتى أدركا أن كالخاس يعرف بأيّ حال.

قامت حركة داخل الكوخ، وبعد لحظة خرج أوديسيوس، أومأ برأسه لي، وتجاهل ريتسا، منطلقًا في اتجاه ردهته. عاجلًا بعد ذلك، خرجَت كساندرا أيضًا، وأمرَت ريتسا: «اذهبي إلى أمي، ستحتاج إلى مساعدة في هبوط الدرج».

نهضتُ بحدة وثبات، وتبعتُ ريتسا إلى الكوخ. بدت هيكوبا متحمسة أكثر من ذي قبل، على نحو خطير كما ظننتُ.

قالت:

- سيرسل عربة نقل، قال إن بإمكاني الحصول على عربته الحربيّة، إلا أنني آنذاك سأضطر إلى الوقوف.

فقلتُ:

- لا،لا، عربة النقل جيدة بما فيه الكفاية لي، فلستِ متباهية.

وهناك كانت واقفة في شرذمتها الصغيرة الرثة.. عنوانًا للتباهي.

عثرتُ على مشط، وبدأتُ أمشط شعرها الطويل الأبيض، معتقدةً أن ذلك قد يساعد في تسكينها، لكن لا شيء كان بوسعه تهدئتها في ذلك اليوم. كانت شَمِقة[1]؛ دائمًا ما عانيتُ في فهم حالاتها المزاجيّة، وليست هذي الحالة استثناء. كنتُ صغيرة جدًا على فهم أن النشوة وجه من وجوه الأسى الكثيرة. في الجنازة أمام الجيش اليونانيّ برمّته، ستمثل بريام، بل أكثر من ذلك؛ ستكون بريام، لأن هذه هي الطريقة التي نُجابِه فيها الحزن في النهاية، أليست كذلك؟ لا شيء راقٍ أو متمدّن في الأمر، مثل الهمَج؛ نبتلع موتانا!

لدى انتهائي من تزيين شعرها، سمعتُ عربة نقل تتوقف في الخارج، فقالت، وقد صارت قلقة فجأةً: «ستأتين معي، أليس كذلك؟». كنتُ منتويةً المشي، لكن بالطبع قلتُ إنني سآتي. أرسل أوديسيوس زوجًا من الخيول -بدلًا من البغال التي كانت معتادة أكثر-، وكلّف بقيادتها شابًا غض الوجه، موشّى بنُثَار من نَمَش أصهب. بدا شعوره بأن قيادة العربة أدنى مرتبة منه واضحًا، وظننتُ أنني تعرفتُه باعتباره سائق عربة أوديسيوس الحربيّة، بيدَ أنه كان في غاية الكياسة، وهو يحمل هيكوبا إلى مجلسها. كانت هيكوبا مرتبكة، ورضيّة وغنجة بعض الشيء حتى وقتما وضعها. حالما استقرت، راحت تنظر حولها باهتمام بالغ إلى الميدان، وتماثيل الآلهة، وحشود الرجال العائدين من الشاطئ. ربما كنا منطلقين في نزهة ممتعة. وبجوارها، جلست كساندرا تُحدِّق أمامها مباشرة بوجه من حجَر.

---

(1) شَمِقَ الولد: مرح مرحًا يشبه الجنون.

كانت الرحلة إلى موقع الإحراق طويلة وشاقة، وراحت عجلات العربة تترجرج فوق الأخاديد في ممر الرماد. اضطُرت هيكوبا أكثر من مرة إلى تثبيت نفسها على جانب العربة، لكنها ظلت كالعمود استقامةً من البداية إلى النهاية. كنا محاطين برجال خرجوا للتو من شعائرهم التطهيريّة في البحر، وفاحت رائحة عارمة للشعر المبلل، والرطوبة المحصورة في طيّات الجلد. بدوا متفاجئين لرؤية نساء (كما قلتُ، لا تحضر النساء الجنازات عادةً)، لكنهم تنحوا إلى جانب الممر ليسمحوا لنا بالمرور، وراح كُثُر منهم يحدّقون جهارًا إلى هيكوبا، كما لو كانوا مدركين أنهم يشاهدون التاريخ يمرّ.

سألت كساندرا السائق إلى أين يأخذنا، وعندما أشار إلى المكان قالت: «لا، علينا أن نكون أقرب من ذلك». وبحلول هذا الوقت، كانت هيكوبا قد رأت المحرقة الجنائزيّة، وأمسكت شفتَيها معًا، كما تفعل أحيانًا وقتما يهدد الحزن والغضب باجتياحها. هي الآن في عزلة لا يمكن لأيِّ قَدْر من الحُب أن يخترقها.

وأخيرًا، بعد طول انتظار، توقفت الرجرجة، وترجل السائق، ومضى لينضم إلى رفاقه. ركَنّا على جرف طفيف، لذا تمتعنا برؤية حسنة لكل شيء. لم يكُن ثمة قبر بكل تأكيد، فذاك سيُحفر لاحقًا ليتلقى العظام، لكن عوضًا عن ذلك، بنى المرميديّون محرقة جنائزيّة ضخمة تسمو عشر أو اثني عشر قدمًا على الحشد. أخذت الأرض تمتلئ سريعًا، ولا يزال الرجال يتدفقون عبر الممر، لكن الجروف العليا والرأس البحريّ كانت مرصوصة بكثافة بالفعل، وصارت العربة جزيرة في بحر من الرؤوس والأكتاف. لم يصل الملوك بعد، إنما هم منتظرون حتى يجتمع جميع الرجال قبل دخولهم.

وبالتدريج، بدؤوا بالظهور واحدًا واحدًا؛ أوديسيوس أولًا، الذي وقى عينَيه، وراح يمسح الجروف، ربما باحثًا عن هيكوبا. أيًّا ما كان، بدا أن نظرته حلّت علينا قبل أن يستدير ليُحيي أجاكس. تلقى نسطور هدير تهليله المعتاد، ولمحتُ هيكاميد تمشي بجوار عربته الحربيّة. وصل أجاممنون أخيرًا، وهذا من حقه، وألقى نظرة تجاه مينيلاوس مُرسلًا انحناءة ضئيلة متجاهلة. عمّ الصمت وقتما اتخذ مجلسه، إلا عن اللغو الأهوج للنوارس الدائرة في الأعلى. ثم انتظَر.

وأخيرًا، في المدى، ذاع صوت طبول وأقدام زاحفة. في البداية، لم يكن ثمة شيء آخر، نغمة الضرب الوحيدة تلك فقط، ثم راح موكب الجنازة يظهر للعيان على مهل. أعنتُ وريتسا هيكوبا على ارتقاء المقعد كي ترى، وكلتانا متشبثة بجانبها، مثلما يفعل المرء مع بنت صغيرة تريد المشي على طول جدار. ولم أقدِر على النظر ناحية ممر الرماد والموكب الزاحف تجاهنا إلا بعد أن شعرتُ أنها آمنة. كانت جثة بريام الملفوفة بإحكام بقماش ذهبيّ وأرجوانيّ، محمولةً على أكتاف ستة مقاتلين من المرميدنيّين، وظننتُ أنني تعرفتُ الغطاء الذي استخدمتُه لتجهيز سريره في ليلة قدومه لمرأى أخيل. مع دنوّهم، بدأ المقاتلون يضربون تروسهم بسيوفهم، مثلما اعتادوا أن يفعلوا كل صباح قبل الانطلاق إلى أرض المعركة. صوت مهيب، لكنه مُهدِّد أيضًا. ومن ثم، طاغيةً على صراع السيوف والتروس، بدأت المزامير تعزف مرثية أخيل؛ الموسيقى التي لم تفارقني، ودفعتني إلى حافة العتاهة إلا قليلًا، في الأسابيع التالية لوفاته.

جاء إيبوني من خلف جثة بريام مباشرة، يقوده صبي بليد ماهر في تهدئة الخيول، وإن كان لا بد يجد حتى هذا تحديًا. تحمس إيبوني لمرأى الحشود، وظل يقلّب رأسه، ويدور ويرقص حول نفسه. ربما بالنسبة إليه، بدت هذه مثل انطلاقة سباق عربات حربيّة آخر، لم يكُن لديه ما يُعلمه أنه قد كُلل من أجل التضحية. مشى بيروس مطأطَأ الرأس، متسربلًا بدرعه الكاملة على بُعد بضع خطوات خلف الحصان، وفي الواقع، كان كل المرميدنيّين لابسين دروعهم الكاملة، وإن افترضتُ أن هذا ليس إلا ملائمًا لموكب جنازة ملِك. عندما غادروا الممر، وبدؤوا يتحركون عبر حشود الرجال المرتدين غلالات وعباءات، شكّلوا جدولًا دخيلًا براقًا. المرميدنيّون: الرجال النمل. لطالما قلتُ في قرارتي: «يا له من اسم أحمق لرجال على هذا القدر من الحريّة الثابتة، على هذا القدر من الاستعداد لمساءلة السلطة، لرجال كان يبنغي لاحترامهم أن يكْتسَب دائمًا!»، لكن حينما رأيتُهم على هذي الهيئة، وسمعتُ وشعرتُ في اهتزاز العربة بجبروت وانضباط هذه الأقدام الزاحفة؛ فهمتُ، وأظنها كانت المرة الأولى، الذعر الذي كانوا يُلهبونه في أرض المعركة.

توقفوا أخيرًا أسفل المحرقة. حمَل الحَمَلة بريام صعودًا على الجرف شديد الانحدار، وسجّوه على النعش، في حين راح آخرون يشحّمون الجذوع بدهن البقر والزيت. أخذ الحشد يشاهد كل هذا بصمت تام، وإن كان بوسعي سماع هيكوبا تنشج بعض الشيء بجواري (أو بالأحرى ظننتُ أن بوسعي)، غير أني وقتما استدرتُ لأنظر، وجدتُ الصوت يخرج من كساندرا؛ لم تتحرك هيكوبا، ولم تنطق.

بدأ صوت انفراديّ ينشد ترتيلة ثناء لزيوس، وبالتدريج، واحدًا واحدًا، انضمت أصوات أخرى إليه حتى صار الحشد بأكمله ينشد:

«سأغني لزيوس،

زعيم الآلهة، وأعظمها

البصير، سيد الجميع...».

كنتُ قد سمعتُ تلك الترتيلة تُنشَد في المعابد في أصقاع العالم اليونانيّ كافة، لكنها لم تكُن مؤثرة قط بقدر ما كانت في ذلك اليوم. وبينما استمر الإنشاد، خرج كالخاس من زمرة الرجال خلف أجاممنون، ومضى ليقف عند قاعدة المحرقة، وعندما خبَت الموسيقى إلى الصمت، نادى بريام: «فلتتيسر أمورك في بيت هاديس. هؤلاء أعداؤك، يُحيّونك». وعلى الفور، عند إشارة من أجاممنون، أطلق الجيش ثلاث صيحات بملء الصوت لبريام: «بريام! بريام! بريام!»، وحلّقت النوارس التي كانت قد بدأت تستقر مجددًا، وراحت تزعق فوق رؤوسنا.

أومأ كالخاس برأسه إلى بيروس، الذي ألقى نظرة من فوق كتفه ناحية الرجال الواقفين خلفه، لكنه بعد ذلك تقدم خطوة. قاد الغلام الذي كان يُمسّد عنق إيبوني ليهدئه إياه إلى نقطة أقرب، وصهل الحصان مُسلّمًا عندما رأى بيروس. صمَت الحشد، واستلّ بيروس سيفه، ثم التفتَ ليواجه أجاممنون وبقية الملوك.

«البارحة، قال كالخاس أمامكم جميعًا إن عليَّ التضحية بحصاني «إيبوني» أسفل محرقة جنازة بريام. (ثم وقفة، نقّل طرفه فيها حول حلقة الوجوه المألوفة) لقد فكرتُ طويلًا ومليًّا، وبكل صراحة، لا أُصدِّق أن الآلهة تطلب ذلك مني».

شهقة حادة في كل مكان حولنا، وجعل الرجال يتلفّتون ليحدِّق واحدهم إلى الآخر، وتراوحت تعابيرهم من الدهشة إلى الصدمة، بل حتى الرعب. رفع بيروس ذراعَيه، وانتظر الصمت قبل أن يتكلم مجددًا.

«لذا سأقدم أضحية أخرى أكثر خصوصيّة».

رفع سيفه، وجذب ضفيرته الكثيفة إلى الأمام، وقطعها من أقرب نقطة استطاع بلوغها من الفروة. قد تبدو هذه التضحية تافهة، لكنها ليست مسألة سخيفة بالنسبة إلى الرجال الذين يشاهدون، إذ كان المقاتلون الإغريق -ولا يزالون- مفرطي الفخر بشعورهم الطويلة المسترسلة، بل إنهم يظنون حتى إن قوتهم تسكن فيها. يلقي الرجل خصلة شَعر على محرقة جنازة أبيه أو أخيه، لكن قصه بكامل طوله أمر نادر الحدوث. فعل أخيل ذلك من أجل فطرقل، ولا يسعني في هذه اللحظة التفكير بأيٍّ غيره. لم يستغرق القطع أكثر من بضع ثوانٍ، ثم استدار بيروس، وألقى ضفيرته على الجذوع عند قدمَي بريام، وقبض على مشعل من أحد الحراس قبل أن يتسنى لأيّ شخص إبداء رد فعل، وأشعل المحرقة. وعلى الفور، تدافع رجال يحملون المزيد من المشاعل على كَوْمة الجذوع يشعلون الضرام في أكبر قدر ممكن من الأماكن المتفرقة. ففي بعض الأحيان، يخفق اشتعال المحرقة مهما أُحسِن تشحيمها بالدهن، وقد حدث ذلك في جنازة فطرقل، لكن لم يكن هذا الخطر قائمًا اليوم، ذلك أن الجذوع اليابسة كالعظام بعد القحط الطويل استعَرت فورًا. نُفخت ريح شعواء تعصف من البحر مباشرة على ألسنة اللهب، مرسلة عمودًا من دخان أسود وشرر يدوّمان عاليًا في الجو، وكادت ألسنة اللهب تمسك برجل أو اثنين قرب قمة المحرقة، واضطُرا إلى القفز إلى برّ الأمان.

حالما رأت هيكوبا النار تشبّ في المحرقة، رفعَت صوتها تفجُّعًا في ولولة حزن خالية من الكلام. ظل حشد الرجال الغفير من حولنا صامتًا، وكان بيروس وكالخاس لا يزالان يحدِّق واحدهما إلى الآخر. كنتُ مدركة لسيف بيروس المسلول، ولصفوف المرميدنيّين المُخَوذين الآخذين بالاحتشاد خلفه، والانتشار إلى جانبَيه، حتى صار واقفًا في نصف دائرة مدججة بالرماح. رمق كالخاس أجاممون بانزعاج، فهز رأسه بعض الشيء، ولوّح له أن تراجع، وفي تلك اللحظة، طار عقابا بحر، كانا متخذَين عشًا على الرأس البحريّ

من فوق المحرقة، فأشار بيروس إلى السماء قائلًا: «انظروا! لقد قبِل زيوس أضحيتي».

لاءَم المرميديّين أن يصدقوا ذلك، وأشك أن أحدًا غيرهم فعل، لكن برؤيتهم راسخين خلف قائدهم، وواضح أنهم متجهزون للقتال، ومسلحون؛ لم يشعر أحد برغبة في الجدال.

ستظل المحرقة تضطرم طوال الليل، وفي العادة يظل أبناء الميت وأحفاده، وإخوته وأبناء أخوته بجوارها يراقبون، لكن لم يبقَ أحد ليفعل ذلك من أجل بريام. ربما يدب هيلينوس صعودًا إلى الرأس البحريّ بعد هبوط الظلام، ويؤدي آخر خدماته لأبيه، وربما لا يفعل، فقد يمنعه خوفه، أو خِزيه.

بدأ الجمع بالتفرق، وكان رجل أو اثنان من المارّين بجوار عربتنا ميّالين إلى التذمر: «لقد قال كالخاس ضحِّ بالحصان، لم يقُل أحد شيئًا عن الشَعر»، «لو كان واحدًا منا، لاضطُررنا إلى فعلها»، سادَت دمدمة اتفاق: «أجل، حسنًا، لكن هذي هي الحال، أليست كذلك؟ قاعدة تسري عليهم، وأخرى علينا. الأمر اللعين نفسه دائمًا». لم يكُن التبرم جهيرًا، لكنه كان لحوحًا، ولم يُبرَّأ بيروس، ليس بعد. وفي النهاية، فإما ستتغير الريح، وإما لا.

لا أظن هيكوبا سمعت كلمة من ذلك، فقد مضت تحدِّق إلى المحرقة المستعرة، والريح ترفع شعرها الأبيض حتى راح يدور حول رأسها مثل ألسنة اللهب. كنتُ لا أزال متشبثة بغلالتها، لكنني فوجئتُ رغم ذلك وقتما سقطَت، وذُهِلتُ، غير أنني أمسكتُها بسهولة كافية (كانت بوَزن الريشة)، وأنزلتُها إلى المقعد.

قلتُ برفق وقتما انتعشَت قليلًا: «لقد سار ذلك جيدًا. منحوه كل التكريم». أومأَت برأسها، وبدا أن ذلك عزّاها بعض التعزية، لكن كساندرا قالت بحدة: «كان ينبغي له أن يضحي بالحصان؛ لقد أوضحَ كالخاس ذلك أيّما إيضاح». لم يكفِها أن جثة أبيها قد أُحرقَت بكل التكريم الذي يليق بملِك عظيم، بل كانت لتلقي ببيروس في النار لو أمكنها ذلك، وتستخدم دهن جسده لإذكاء اللهب. تذكرتُ أخيل الذي ضحّى باثني عشرَ غلامًا طرواديًّا، فخار عائلاتهم وأملها، على محرقة جنازة فطرقل. كانا متشابهَين في شهوتهما النهِمة للثأر. ذات مرة، بعد بضعة أيام فقط من سقوط طروادة، ومرثيةُ أخيل تتردد بلا انتهاء

في رأسي؛ فكرتُ: «إننا بحاجة إلى أغنية جديدة»، وقد فعلنا. لدينا واحدة، لكن الأغنية لا تصير جديدة ببساطة، لأن صوت امرأة يغنيها.

رحتُ أرسل نظري بحثًا عن سائقنا، راغبة بإعادة هيكوبا إلى البيت والسرير بأسرع وقت ممكن، ورأيتُه أخيرًا يوسِّع الخطى صاعدًا التلة ناحيتنا. بدا قلقًا وقتما رأى هيكوبا، فقال لي: «لا تجزعي يا حُبّي، سنعيدها إلى المنزل في طرفة عين». انتظَر بضعَة متلكئين ليعبروا، ثم ترنحنا منطلقين، وهيكوبا تبرم طوال الوقت لتنظر إلى النار.

بعد مسافة ليست بالكبيرة، رأيتُ أندروماخي تمشي وحدها. لا بد أنها تُركت وقتما زحف بيروس والمرميديّون مبتعدين. التفتَت وقتما ناديتُها، فقلتُ: «لمَ لا تأتين معنا؟ ثمة مساحة جمّة»، فوافقَت، وساعدتُها على الصعود إلى العربة. حيّت كساندرا زوجة أخيها ببعض البرود، كما ظننتُ، أما هيكوبا فكانَت أكثر ترحيبًا، ومدت يدها لتصافح أندروماخي. وهكذا، مررنا ونحن نترجرج ونتمايل عبر الإسطبلات، ولاحظتُ أكاليل إيبوني القربانيّة ترقد ممزقة ومُداسة في التراب.

نزلتُ وأندروماخي أمام كوخ النساء، ورحنا معًا نراقب العربة تتدحرج عبر البوابات.

35

في وقت لاحق من تلك الظهيرة، بدأ المطر بالانهمار، وهذا تصريح متحفظ. كانت الأرض جافة إلى حد يمنعها من امتصاص الغمر المباغت، فتكاثرَت البِرَك فجأةً، وصارت كل تلة نهرًا. اكتسحَت أعمدة رماديّة هائلة من المطر المعسكر، تقودها ريح عصفَت بضراوة لا تَلين من البحر مباشرة. تساءلتُ عمّا إذا كان كالخاس قد بدأ يشعر بالتوتر، ثم قلتُ لنفسي: «لا، ليس عليه أن يفعل. فبوسعه دائمًا إلقاء اللوم على بيروس لعدم إطاعته الآلهة». خرجتُ أمشي بصرف النظر عن غزارة الانهمار، رغم أنني لم أقطع بضع ياردات حتى صار شعري ملتصقًا سطيحًا على جمجمتي. وأنا أرمش مخرجةً الماء من عينيَّ، كدتُ أصطدم بماخاون الذي لوّح بمرح، وهو يمرّ سائخًا في الطين، وصاح من فوق كتفه مشيرًا بكلتا يديه إلى السماء: «ما الذي قلتُه لك؟ محض طقس!».

شاع اضطراب مكين عبر المعسكر في ذلك المساء بينما أعمل الرجال فكرهم في حقيقة أن النوّ لا يزال يضرب، وأن بأساء المطر الجلّاد قد جعلت وضعهم أسوأ. جاء ألكيموس إلى البيت لوقت قصير، ثم غادر ثانية على الفور. كان عليه أخذ مجموعة عاملة إلى الرأس البحريّ، حيث كانوا يكافحون لإبقاء المحرقة مشتعلة، فحملتُ ردائي فوق رأسي، واتجهتُ إلى الردهة مطرطشةً الماءَ في طريقي، لأنه سيتعيَّن إرسال الطعام والشراب معهم، ولم أثِق بأيّ شخص آخر ليرتب الأمر. في طريق العودة، زرتُ الفتيات خطفًا، ووجدتهن خاملات وضجرات ونكدات، فقررتُ أن هذه ليست مشكلتي، ومضيتُ في مشوار آخر بدلًا من ذلك.

أينما ذهب المرء كانت تلاقيه رائحة الشعر الرطب والصوف المبلل. رجال غطوا رؤوسهم بعباءاتهم يحتشدون حول النيران، نيران تدخن وتبقبق، وتهدد بأن تخمد برمتها. كان اللحم نصف مطهوّ في أفضل حالاته، والنبيذ التعزية الوحيدة المُعوَّل عليها، وقد ازدردوا بالتأكيد الكثير منه. لا غناء، لا ضحك، لا محادثة، وقليل مما قيل كان تبرمًا في الدرجة الأولى. أوه! لا يزالون على استعدادهم للقتال من أجل بيروس حتى الآن، لو اضطروا إلى ذلك، لكن زعمه بأنه يعرف مشيئة الآلهة على نحو أحسن من كالخاس، كبير عرّافي الجيش، لم يرُق لهم، وكان معظمهم ليفضل أن يُضحَّى بإيبوني.

هطل المطر مدرارًا طوال الليل. تفرقت الجماعات حول النيران مبكرًا، وراح الرجال يترنحون مبتعدين بحثًا عن أيّ تسلية يمكنهم إيجادها داخل الأكواخ مهما تكن. بيدَ أنه في الأسابيع القليلة الماضية، أنزلت العاصفة قدرًا كبيرًا من الضرر، ولم يُرمم إلا النزر اليسير منه، وبالنتيجة أضافت الأسقف الدالفة إلى الانزعاج العام انزعاجًا. وقتما رجعتُ من مشواري، اكتشفتُ ثلاثة تسرّبات في كوخي الخاص، فأحضرتُ دلاءً من الفناء، وعثرتُ على قدر كبير بما يكفي ليحتوي القطرات التي كانت تقطر على الخوان. في خضم كل هذي الفوضى، جلستُ بالفعل، وحاولتُ الغزل، لكن الصوف بدا رطبًا، وكان يعجّ بتلك الكرات الصغيرة المزعجة التي يشق استخلاصها. من حيث جلستُ كان بإمكاني سماع الماء يسقط في الدلاء والقِدر، لكن صوت الرطمات أخذ ينِدّ على فترات متقلبة، وكل واحدة منها تُصدِر جلبة مختلفة بعض الشيء. لا بد أن هذا يبدو مثل مصدر إغاظة تافه للغاية، لكن صدقوني، بعد ساعة منه ظننتُ أنني سأفقد عقلي، لذا وضعتُ الصوف جانبًا، ومضيتُ إلى السرير. كان المهد يصرّ، والطفل يركل، وظننتُ أنني لن أنام أبدًا، لكن بعد ذلك، وبطريقة ما وأنا لا أزال أنصتُ إلى صوت المطر؛ غلبني الوسَن.

قبل الفجر بقليل، خُضضتُ مستيقظةً، وجلستُ ناشفة الريق، ومذعورةً أحدِّق إلى الظلام. للحظة، لم يسعني حتى تذكُّر أين أنا. فرحتُ أنصت، مجاهدةً نفسي لتمييز أيٍّ كان ما أيقظني. مجيء ألكيموس؟ إحدى الفتيات تطرق الباب؟ ثم، وببطء شديد، بدأتُ أدرك أن ما أسمعه هو السكون. بالطبع لم تكُن إلا هدأة ما قبل الفجر التي تلوّعنا منذ أسابيع بتجديد يوميّ للأمل

ليتحطم دائمًا. إذا ما حالفني أيّ حظ، فقد أتدبر ساعة أخرى من النوم قبل أن أُضطر إلى النهوض. برمتُ على جانبي، وجذبتُ الأغطية حتى ذقني، لكني عجزتُ عن القرار. طال السكون، واستطال. لم يكُن ثمة أيّ صوت البتة إلا تَكّ القطرات الساقطة في الدلاء. حتى المهد كفّ عن الصرير.

نهضتُ في آخر الأمر، وأخذتُ ردائي وخرجتُ. في كل أرجاء المجمع، كانت الأبواب تنفتح، ورجال دائخو الطلعة يتهادون خارجين، يرمشون في الضوء. بدت تحركاتهم متشنجة، متيبسة، كما لو أنهم حُلَل دروع تتعلم المشي. ألقيتُ نظرة إلى يميني، ورأيتُ الفتيات يتدحرجن خارجات من الكوخ، ويقفن على الدرجات، ينظرن حولهن، كما لو أنهن يرين المكان للمرة الأولى. الغريب أن أحدًا لم ينطق، وكأننا كنا فزِعين كلنا أن نكسر هذا الصمت الهشّ هشاشةً لا نهاية لها.

ثم صاح رجل ممزِقًا حريرَ الهواء الوثير، وعلى الفور انضم الآخرون إليه، ورقصوا وغنوا، وطرطشوا في البِرَك حتى كساهم الطين حد أفخاذهم، ثم راحوا يركضون. ركضوا على كف الطيش إلى السفن في فرار جماعيّ لم يكن له من توقُّف، رغم أني سمعتُ أوتوميدون يصيح بهم أن يقفوا.. أن يرجعوا. لم تكُن السفن مُحمَّلة، واثنتان منها كانتا بحاجة إلى ترميم، ليس بمقدورهم القفز على متنها، والتجديف إلى الديار وحسب. وبعد فينة، بدؤوا بإظهار الوعي، إذا ما كان الرقص والشقلبة على الرمل وعيًا. بانَ بيروس، وبدا في شعره القصير المُقرّض أشبه بصوص نصف ناضج. ومن خلفه وقف هيلينوس، كلاهما أحمر العينَين بفعل الدخان. لا بد أنهما قضَيا النوبة الليلية معًا، وربما نبّشا الرماد حتى يجمعا عظام بريام.

بعد التحدث إلى أوتوميدون، عاد بيروس إلى الداخل، وارتدى ثيابه، وخلال دقائق، انتقل كل النشاط إلى الشاطئ. تُركَت النساء وحدهن في المجمع، مثلما اعتدنا أن نكون كل صباح عندما ينطلق الرجال إلى الحرب. كانت تجربة غريبة؛ الإنصات إلى صرخات التهليل هذه، ومحاولة تخيُل ما مدلول ذلك بالنسبة لنا. كان مدلوله واضحًا بالنسبة إلى الإغريق، فهم راحلون إلى الديار. إلى أين كنا نحن راحلات؟ ونظرتُ إلى أندروماخي. لم يبقَ لها شيء هنا، فكل

من أحبّته في حياتها ميت، وعرفتُ رغم ذلك أنها لم تكُن لترغب بالرحيل. لقد وَلَدَت هنا، وموتاها يرقدون تحت التراب هنا، وهذا معنى الديار.

بدَت كل الفتيات مقهورات، يواجهن وحشة المنفى. ظللتُ أقول لنفسي: «إن شيئًا لم يكُن مؤكدًا بعد». وظل جزء مني يترقب أن تهب الريح مجددًا في أيّ لحظة، وإن لم أقُل ذلك للأخريات.

في النهاية، تجمّعنا معًا ببساطة، ورحنا ننصتُ إلى صراخ الرجال على الشاطئ، ونراقب هطول المطر.

36

كان أوديسيوس أول المغادرين، فطالما كان المنتظِر على أحرّ من الجمر، الأكثر استماتة لبلوغ الديار.

شاهدتُ هيكوبا تُساق بعيدًا، والتمّ جمع النساء على الشاطئ ليودعنها، رغم أنها بالكاد رفعَت نظرها عن سلم السفينة بين قدمَيها، وحتى عندما صارَت آمنة على متنها وقفَت في مؤخرتها، وراحت تُحدِّق من فوق رؤوسهن ناحية أبراج طروادة المسوّدة. صِحنا: «صحبتكِ السلامة، حظًّا طيبًا!»، ملوحين لها، وهي تغيب في المدى حتى صار شعرها الأبيض محض نقطة ابتلعها الضباب تمامًا.

عندما تشتتت النساء، رأيتُ رجلًا سامق الطول يتبختر بأناقة عبر الحشد، مثل مالك حزين رماديّ في بِركة بط. كالخاس -لا يمكن أن يكون سواه-، لكنه كالخاس كما لم أره من قبل؛ بلا طلاء وجه، بلا أوشحة قرمزيّة، بلا عصاه الرسميّة. كنت موشكةً على المضي في طريقي وقتما صاح مُسلّمًا، وعندما التفتُّ إليه، أدركتُ أنني كنتُ أرى وجهه للمرة الأولى، ألتقيه للمرة الأولى، هكذا بدا الأمر. أمكنني رؤية أنه لا بد كان بارع الجمال فيما سبق، لكن ما فاجئني حقًا هو قدر الخجل الذي كان عليه. لم ألاحظ ذلك فيه قبلًا.

بعد أن خيضَت الاستفهامات التقليديّة في تلعثم، قال:

- سأفتقدها.

- أجل، وأنا كذلك.

مشينا معًا، وعند إلقائي نظرة إلى الأسفل، رأيتُ أنه يرتدي الغلالة القصيرة نفسها التي يرتديها المقاتلون الإغريق، ما يعني أنني كنتُ ألتقي

ساقَيه للمرة الأولى أيضًا؛ كانتا حمشاوين[1]، وممتقعة من طول اعتقالها تحت التنانير الطويلة حتى الكاحل، وبالإجمال عار على الرجولة الطرواديّة. كانت ساقا هيلي أجوَد.

سألتُه:

- أقتربتَ من الاستعداد للرحيل؟

- لستُ راحلًا.

- لستَ راحلًا؟

- لا.

نظرتُ إلى مجمع أوديسيوس المهجور:

- لكن لن يبقى شيء هنا.

- ثمة طعام وفير في حدائق بريام، ولا أحسب أني سأبقى هنا إلى الأبد، أتوقع أني سأواصل المضي (وابتسم) لأرى إن كان بوسعي إيجاد مدينة لم ينهبها أخيل...

- لكن لمَ؟

- لمَ أبقى؟ أريد العودة إلى طروادة. لم أكُن قد جاوزتُ، لستُ أدري... الثانية عشرة؟ وقتما أُخِذتُ إلى المعبد، كان والداي فقيرَين، ولم أتفق مع أبي، وكان حلًّا رديئًا، كما أتصور، لكنني لم أختَره. والآن أريد العودة.

- إلى طروادة حقًا؟

هز كتفَيه. لم أرَ ضرورة لإيضاح الأهوال التي سيواجهها هناك، فهو يعرف خير معرفة.

قال:

- أريد العودة إلى المنزل وحسب. أليس هذا ما نريده كلنا بحق؟ أن يُعيد الزمن...؟

- أجـــل، لكن ليس في حكم العادة أن يُعتبر ممكنًا.

(1) حَمِشَ الرجلُ: كان دقيقَ الساقين، ويقال عن ساقيه أنهما حمشاوان.

- حسنًا، إذن سوف أفشل.

توقفنا، وأرسلنا نظرنا إلى البحر. في تلك اللحظة، وعلى نحو يكاد يبدو عجائبيًّا، تلاشى الضباب، ورأينا سفن أوديسيوس، وقد توقف الرجال عن التجديف للتو، وهمّوا يرفعون الأشرعة.

قلتُ:

- آملُ أنها ستكون على ما يرام.

- بينيلوبي طيبة القلب، أو هذا ما يقوله الجميع.

- لكنها ليست حريّة رغم ذلك، صحيح؟

وقتما نظرتُ بطرف عيني، رأيتُه مختنقًا بدموعه. التفتَ إليَّ، وحاول الكلام، لكنه هز رأسه فقط، وقدم انحناءة معجّلة، ثم وسَّع خطاه عبر الشاطئ تجاه الأكواخ.

نظرتُ إلى البحر ثانيةً، لكن الضباب قد عاد إلى حاله، وسفن أوديسيوس بعيدة عن الأعين.

والآن سأنتهك قواعدي الخاصة، فحتى هذه النقطة في سردي قصة شبابي، كنتُ قد حاولتُ ألا آتي إلى ذكر الحقائق التي لم أعرفها إلا لاحقًا، وفي بعض الأحيان -كما في مصير أوديسيوس وسفنه- بعد سنوات عديدة، لكن أظنني معذورة في استثنائي هيكوبا، وبالنهاية، لو لم ينسدل ستار الضباب مجددًا، لربما رأيتُ ما حدث تاليًا.

في اللحظة التي رُفعَت فيها الأشرعة تمامًا تحوّلت هيكوبا، التي كانت رابضة في زاوية بعيدة، إلى كلب مسعور ذي فكَّين مُريَّلَين، وعينَين حمراوي الحواف، وقبل أن يتمكن أيّ شخص من منعها، تسلقَت الصارية الأعلى، حيث وقفَت تزمجر متحديةً الإغريق تحتها، ثم قفزَت إلى حتفها. لم يبدُ أن أحدًا يعرف ما إذا انفلقَت على ظهر السفينة، أم سقطَت في البحر. يروق لي الظن أنه كان البحر.

لم تأتِ جموع لتودّع هيلين. رافقتُها مودعةً، ووقفتُ وحدي على الشاطئ، أراقب بينما حُملت دزينة، أو أكثر من اللفائف الأسطوانيّة بحذر إلى سفينة مينيلاوس. رأيتُ جسدًا طويلًا في عباءة داكنة يشرف على العملية، وافترضتُه

رجلًا، حتى استدار ليواجهني، ورأيتُ أنها هيلين، تحرص على سلامة تخزين بُسُطها الجداريّة. أظن أن لا شيء آخر كان يهم هيلين في النهاية؛ لا ابنتها -وبكل تأكيد-، ولا أيّ من الرجال الذين أحبوها. عاشت في عملها وحده، ولأجله وحده.

حدَّقت واحدتنا إلى الأخرى، عبر خليج شاسع من الوقت والتجربة، أرسلَت تلويحة أو اثنتين من يد بيضاء دقيقة (إيماءة بالكاد تُلحَظ)، ثم نزلَت بسلاسة إلى باطن السفينة.

من غَير بد، جاء اليوم الذي صار أجاممنون فيه جاهزًا للمغادرة. قطعتُ المعسكر شبه المقفر لأرى ريتسا، عازمةً على ألا أضايقها بالبكاء، وجدتُها أمام كوخ كساندرا، تشرف على تحميل متاع البيت في عربة. جاءت تجاهي، وهي تمسح يدَيها بقطعة الخيش التي عقدَتها حول خصرها؛ حركة مألوفة إلى حد موجع. لطالما فعَلتها سواء أكانت يداها بحاجة إلى المسح أم لا. كان فراقنا مثل كل الفراقات المشابهة؛ عسيرًا. أظن أن كلتينا أرادته أن ينتهي، أن نحظى براحة الانتهاء منه، ومع ذلك تشبثنا في الوقت نفسه بكل ثانية تمر. أذكر أنه في مرحلة ما مرت مجموعة من النساء في طريقها إلى السفن، ولاحظتُ جسم مايري الجريم، والطفل لا يزال محكم الإيثاق بصدرها، ونصف مخفيّ بوشاحها. وفي نفس لحظة تعرُّفي إياها، ألقَت نظرة إلينا، وابتسمَت، وبعد بضع لحظات غابت عن البصر.

استدرتُ، ووجدتُ ريتسا تراقبني...

قالت:

- سيكُنّ على ما يرام، ألم أقُل لكِ؟ سأُبقي عيني عليهن.

ضايَنتُ عزيمتي على ألا أبكي حتى بلغنا مبلغ الوداع، ومن ثم انهرتُ ونُحْتُ مثل بنت صغيرة:

- لكني أريدكِ أن تكوني حاضرة!

وأقصد وقتما يبدأ مخاضي.

- سأحضر إذا ما استطعت، تعلمين ذلك. (وربّتَت على بطني مُطمئنةً) ستكونين على خير ما يرام.

في طريق عودتي إلى مجمع بيروس، مررتُ بزيارة سريعة على هيكاميد. كانت سفينة نسطور جاهزة للإبحار أيضًا.. وداع آخر. شعرتُ بتفاؤل أكبر بخصوص مستقبل هيكاميد مما كنتُ أشعر به منذ بعض الوقت. بدت صحة نسطور تتحسن، وظننتُ أنه طالما تمكن ابن الحرام من التشبث بالحياة، ستكون بخير. تعانقنا، ثم كان عليَّ إطلاق سراحها.

ريتسا أولًا، والآن هيكاميد. مضيتُ عارفةً أنني في الغالب الأعم لن أرى أيّهما مجددًا.

راغبةً بتخفيف ألم فراق صديقاتي، مضيتُ مباشرةً إلى البِرك الصخريّة على الشاطئ، حيث قرفصتُ، ورحتُ أبحث -وإن لم يكن بكثير من الأمل- عن أمارات حياة. وحتى رغم برحاء تركِ ريتسا خلفي، شعرتُ ببعض الإثارة التي كنتُ أحسها، وأنا طفلة صغيرة متشبثة بيد أمي، بينما تعينني على تجاوز الصخور الزلقة. نجمة بحر واحدة هي كل ما وجدتُه، وحتى هذه كانت ميتة. أحبّت أمي نجم البحر، أحبّت كل أشكال الحياة التي تُرى على الخط الساحلي، لكن لنجم البحر مكانة خاصة، وقد نقلَت ذاك الحب لي. انحنيتُ لأعاين الجثة الممتقعة، ورأيتُ أنه قد أُصيب إصابة بليغة قبل موته، فواحد من أطرافه ممزق، وملقى بعيدًا عن الجسم. وعندما انحنيتُ، هبط ظلي على الماء، ودبّت الحياة في نجم البحر من فورها، فراح يتحرك ببطء ناحية حافة من الطحالب المتدلية. ليس ذلك وحسب، بل بدأ الطرف المبتور بالتحرك إلى خدر أيضًا. أردتُ أن أضحك، لأنني تذكرتُ الآن أن هذا ما يحدث. سمعتُ صوت أمي يفسر لي: «نجم البحر الأب يُنمّي طرفًا جديدًا، والطرف المبتور يصير نجم بحر، وهكذا... من فرد واحد معطوب ومشوّه ينمو كائنان كاملان».

منحتني رؤية ذلك أملًا، وبلى، أعرف أن هذا سخيف، فما عساي أشترك، ونجم البحر فيه؟ ورغم ذلك، وجدتُ بغتة القوة اللازمة للوقوف، والنظر مرة أخيرة إلى جثوة قبر أخيل، والمشي بسرعة عودةً إلى المجمع، حيث كان المرميديّون شبه جاهزين للإبحار.

كانت الفتيات قد وضعن ممتلكاتهن القليلة في أكياس قطنيّة، وقَبَعن مرصوصات معًا في الشرفة، ينتظرن أن يُقال لهن إلى أين يذهبن. ألهَبَت هيلي عينَيها فيَّ عند اقترابي، فبطريقة ما، دون أن نتكلم كثيرًا، بدا أننا صرنا

صديقتين. شعرتُ بأمان بتركي الفتيات معها. لم يسعني إيجاد أندروماخي في الزمرة، وأقلقني ذلك، فمضيتُ أبحث عنها. رجعتُ إلى الغرفة الخاوية التي بدت فجأةً أكبر بكثير، بفعل أصداء خطواتي. كنتُ على وشك المضي على الممر إلى غرفة نومها، وقتما سمعتُ حركةً في الفناء الخلفيّ. وجدتُها تقطف الأقاحي الأرجوانيّة من الصنف الذي ينمو نموًّا نشطًا، مثل الحشائش في هذا الوقت من العام. وفي الحقيقة، هي على الأرجح حشائش ضارة. والآن، يمكنني رؤية كتل هائلة منها، من نافذة غرفة نومي. سواء أكانت حشائش أم لا، لم أقدِر على اقتلاعها قط.

- أندروماخي؟

بذراعَين مليئتَين بالأقاحي، التفتت لتواجهني، وقالت كلمة واحدة:

- أمينا.

- لا أعرف أين دُفِنَت.

أو ما إذا دُفِنَت، على الأرجح أنهم قد ألقوا بجسدها عن الرأس البحريّ وحسب. ثم قلتُ لنفسي: «لكنني أعرف أين ماتت»، لذا حِكنا الأقاحي معًا في إكليل، وأخذناه إلى كوخ المغسل، الذي كان يبدو تقريبًا كما بدا دائمًا؛ رفوفًا معلقة تتمايل في التيار، وصفًّا من الأحواض، حيث كانت القمصان المبقعة تنقع، وفي وسط الغرفة الطاولة الكبيرة والرخامة فوقها. كنتُ قد غسلتُ جسد فطرقل على تلك البلاطة، وجسد هيكتور، وجسد أخيل، لكنني دفعتُ هذه الذكريات جانبًا، فهذا وقت أمينا.

سجَّينا الإكليل على البلاطة، ووقفنا للحظة محنيتَي الرأس. لستُ موقنة أني تمكنتُ من الصلاة، لكني تذكرتُها؛ العينَين المتباعدتَين، والكتفَين المستقيمتَين، والرفض القاطع للانحناء.

ثم مضينا خارجًا لننضم إلى بقية النساء، وبعد بضع دقائق ظهر ألكيموس، وقادنا إلى السفن.

